تقرير الدروس سماحة المرجع الديني آية الله العظمى

السيد محمد تقي المدرسي

بينات من فقه القرآن

دراسةٌ قرآنيةٌ تعتمد استنباط السُّنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

(سُورة الرُّوم)

(الجزء الأول - الآيات ١ الى ٣٣)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا

إعداد القسم الثقافي في مكتب المرجعية

بسم الله الرحمن الرحيم

مركز العصر للثقافة والنشر
alasrr@gmail.com

بينات من فقه القرآن.. دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم - **سورة الرُّوم** -١ الآيات ١ إلى ٣٣.

تقريرًا لدروس سماحة آية اللّه العظمى السيد محمد تقي المدرسي

* **إعداد**: إعداد مكتب المرجعية - القسم الثقافي.
* **تحقيق**: مركز العصر للثقافة والنشر.
* **الطبعة**: الأولى، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م. (٣٣٥ صفحة).
* **الناشر**: دار المحجة البيضاء - لبنان بيروت.

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال.

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail: almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع

بينات من فقه القرآن

١٤٣١

دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

(سورة الرُّوم)

(القسم الأول) الآيات ١ إلى ٣٣

تقرير الدروس سماحة المرجع الديني آية الله العظمى

السيّد محمّد تقي المدرّسي

إعـداد

إعداد مكتب المرجعية – القسم الثقافي

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(١)

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣)

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ(٦)

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧)﴾

المحتويات

كلمة البدء

حينما يكون الحديث عن القرآن الكريم، فإنّه ينبغي التأمل إلى حدٍّ مّا، ثم الإلتفات إلى ما نريد التحدّث عنه، ولا ريب أنّ الإنسان البصير - وبنظرة إجماليّة - سرعان ما يلتفت إلى أنّ القرآن عظيم للغاية.

لا بد أنْ يعي المرء أنّ هذا الكتاب خطاب الخالق الكبير إلى مخلوقه، وميثاقه مع عباده.

وبالوعي الصحيح يدرك الإنسان بأنه صغير أمام القرآن، فيقرّ - بلا تكبّر - بعجزه عن إدراك كلّ العظمة القرآنية، ولعلّ الإقرار بهذا العجز أنسب شيء لبيان عظمة وجلال القرآن، وأبلغ من المدح والثناء عليه لدى وصفه.

تُرى كيف للإنسان المحدود أنْ يعي ويدرك حقيقة الخطاب الإلهي؛ واللَّه هو العليّ اللا محدود! وكيف وأنّى للدماغ أن يستوعب الحقيقة العظمى لمقاصد كلام الذات الإلهية اللا متناهية؟! وماذا يستطيع الكاتب - مهما بلغ أدبه - أنْ يكتب بهذا الصدد؟ وما عسى

الخطيـب - مهما أوتي من بلاغة وفصاحة - أن يتفوّه؛ فيكون جديراً ولو ببعض الحقائق القرآنية؟!

يكفـي في عظمة القـرآن أنه كلام اللَّه العليّ العظيم، وحسـب القـرآن قـدراً أنه معجزة خاتـم الأنبياء ﷺ، وحسـبه أنّ آياته كفيلة بهداية البشـر وضامنة لسعادتهم إلى يوم القيامة، والقرآن هو الكتاب الوحيـد القادر - إلى نهايـة التاريخ والحياة؛ وعلـى جميع الأصعدة - علـى قيادة بني الإنسـان، وضمان مجدهم وسـيادتهم وسـعادتهم الأبدية.

إنَّ القـرآن المجيد هـو أعظم مرجعٍ لعلمـاء اللّغة، وهو أجلى نمـوذج لمتخصّصي علـم النحو، وهو خير دليل وسـند فقهيٍّ علميٍّ للفقيـه المسـتنبِط، وهـو الأكثـر طـراوة لكلّ أديـب، وهـو ضالّة كلّ عالِـم، وهو ملهِم كلّ خطيب ماهر وواعـظ مفوّه، وهو مقصد علماء الأخلاق، وأخيراً؛ هو الركن الشـديد والدليل الناصع لكلِّ مفكّرٍ في مجال اختصاصه.

إنّه الكتاب الذي أزاح الستار عن أسرار الكون وقوانينه الدقيقة ورمـوزه العجيبة. إنّـه هو الكتاب - المعجزة الأبديـة - للدين الحيّ الخالد. إنه السلاح الذي لا نظير له؛ قد جعله اللَّه سبحانه وتعالى في متنـاول القائد المعصوم لينقذ الناس به من الجهالة والضلالة ويحلّق بهم إلى حيث العلم والهداية.

روحٌ من أمر اللَّه

إنّ القرآن المجيد لا يؤسّـس للمسـائل العقائدية الحسّاسة أو يحلها فحسب، ولا يواجه الشبهات والوساوس الشيطانيّة العتيدة من

الناحية النظريّة فقط، بل إنّه يساهم كلَّ المساهمة في ترسيخها في الذهن الإنساني، ومعلوم أنَّ خرّيج هذه المدرسة لقادر على ليّ عنق الفتن والضلالات والشبهات. فالقرآن ليس مجرد حروف مسطّرة على ورق، بل هو روح عالية متعالية عظيمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾[1].

وهذه الروح هي التي عبّر عنها النبي الأعظم ﷺ بقوله:

«فَإِذَا الْتبَسَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، ومَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، ومَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، ومَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّار»[2].

فإنْ شهد لمصلحة الإنسان؛ قبل اللّه شفاعته، وإنْ شهد عليه؛ صُدِّق في ذلك.

ها نحن إزاء هكذا كتاب وهكذا خطاب وهكذا حقيقة، ويلزمنا إيلاء المزيد من الاهتمام به؛ فنتلوه ونتدبّر فيه، ونستلهم خارطة طريق الحياة من آياته الكريمة.

إنني طالما جهدتُ لتلمُّس حقائق القرآن ومفاهيمه، والتعرف على أهدافه ومقاصده بكل اشتياق، وحيثما اكتشفت أحد رموز وأسرار القرآن، أو أدركت حلاً لمشكلة من مشاكل فهمه، كانت العلاقة تتعمق أكثر والشوق إليه يتضاعف. كنتُ كلما تأملتُ في كتاب اللّه العزيز، ازددتُ حيرةً وإعجاباً.

---

(١) سورة الشورى، آية: ٥٢.

(٢) الكافي، ج٢، ص٥٩٩.

الإنسان والقرآن

ومهما بحثتُ وحققتُ تجلَّتْ عظمة القرآن ومنزلته أكثر فأكثر، وما يزيد من تعجبي تلكم العناية الإلهية بالإنسان حيث أنزل اللَّه تعالى إليه كتاباً يتضمن هذه العظمة وجلالة الخطاب. فمن هو الإنسان يا تُرى؟ وما هي منزلته في منظومة الكون حتى يرسل إليه اللَّه تبارك وتعالى كتاباً كهذا الكتاب؟ إنَّ الإنسان مهما عدّ نفسه حقيراً إزاء عظمة اللَّه الخالق المتعال، فإنه مطلوب منه ذلك، ولكنه في النهاية ماذا لديه ليخاطبه ربه الأعز الأكرم بمثل هذا الخطاب؟!

لقد لمس المفسِّرون - وبمساعٍ كثيرة - بعض أسرار القرآن وتوصّلوا إلى بعضٍ يسير من حقائقه. ولطالما يخطر في ذهني التساؤل عمّا إذا كان من الممكن الكشف عن جميع أسرار القرآن الكريم ودقائقه؟! فأرى عقلي يجيب بالنفي القاطع، إذ كيف يمكن تصور موجود ناقص ضعيف كالإنسان يستطيع أن يحيط ويلمَّ بكل لطائف ودقائق وحقائق كلام الخالق اللا محدود؟ ثم إنَّ عقلي يقول لي مرة أخرى: ولكن هذا الكتاب لك، وخطابه متوجه إليك، فلا تهن، فإنه مائدة مباركة عظيمة فانتفع منها ما استطعت!

شروط التدبُّر في القرآن

ونرى أنَّ على المفسِّر المتدبِّر أنْ يتخلّى عن آرائه الشخصية قبل كل شيء، وأنْ يتجرَّد عن كل المؤثرات الجانبية لكي يستطيع التقدم خطوة خطوة في الرحاب القرآني. وبعبارة أوضح: يلزم المتدبِّر - بعد قطع الشوطين المتقدمين - أن يفهم القرآن بالقرآن وبمعونته، وليس بواسطة الأحكام المسبّقة والآراء الشخصية

والميول الغريبة عن الشارع المقدّس.

وبداعي أهمية القرآن المجيد وشاكلة التعامل البشري معه من حيث الفهم والتفسير؛ يلزمنا التساؤل عن الطريقة المثلى للتعامل مع القرآن الكريم؟ وإذا ما جلسنا إلى محضر الكتاب العزيز، فهل نجلس إليه كما نجلس عند أيّ كتاب آخر، أم لا بد من نظرة مميَّزة وموقف خاص؟

موقف الإنسان من الحقائق

بإزاء الحقائق والظواهر المتنوعة - الطبيعية والفكرية والعقائدية على حد سواء - يمكن للإنسان أنْ يتخذ أحد ثلاثة مواقف:

الأول: القبول بها ظاهراً وباطناً.

الثاني: رفضها ظاهراً وباطناً.

الثالث: رفضها باطناً والقبول بها ظاهراً.

وتتجسَّد هذه المواقف الثلاثة في: الإيمان والكفر والنفاق[1]، ولكن أين جذور هذه المواقف؟

إنَّ كل عمل ظاهري يصدر عن الإنسان هو في الحقيقة موقف، فإنْ كان شجاعاً؛ تجلّى موقفه في القبول أو الرفض، وإنْ كان جباناً صدر عنه ما ينمّ عن الازدواجية، وبالتالي؛ فإنَّ الموقف والرأي يعود إلى نظرة المرء تجاه نفسه. فحينما تكون نظرته إلى نفسه نظرة

(١) مثال ذلك ما تناولته الآيات العشرون الأولى من سورة البقرة إذ بيَّنت أحوال المؤمنين والكافرين والمنافقين ومواقفهم من القرآن العظيم.

سليمة، يكون موقفه تجاه الآخرين موقفاً سليماً أيضاً، ولكن حين تكون نظرته إلى نفسه نظرة خاطئة أو سوداوية سلبية، يكون موقفه من الآخرين شبيهاً بذلك.

إنَّ من يرى في نفسه القيمة الفذة والكرامة، يتخذ من الآخرين موقفاً صادراً عن الاحترام والكرامة، إلّا أنَّ من يستشعر النقص أو الجهل في تحديد قيمه ومقاييسه، فانه سيتعامل مع غيره على هذا الأساس أيضاً.

موقفنا من القرآن

إنَّ القرآن هو أهم حقائق العالم، فما هو موقفنا تجاه القرآن الكريم وهو كلام اللَّه المتعال وتجليه؟ وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لَقَدْ تَجَلَّى اللَّه لِخَلْقِهِ فِي كَلَامِهِ ولَكِنَّهُمْ لَا يُبْصِرُون**»[(١)].

لماذا كانت ليلة القدر خيراً من ألف شهر؟ لأنها ليلة نزل فيها القرآن الكريم، وفي كل عام وفي هذه الليلة تتنزّل الملائكة والروح - التي قد يكون معناها القرآن الكريم أو ما يكون تعبيراً عنه -. فما هو الموقف إزاء هذه الحقيقة الكبرى؟

ينبغي أن نكون جادّين كلَّ الجدِّ لدى الموقف من القرآن، فهو كتاب اللَّه تعالى، ونحن أيضاً عبيد للَّه سبحانه، فيلزم أن نرتقي بأنفسنا، ونهيّؤها بالجد والكرامة لتكون أهْلاً لنزول القرآن علينا، ذلك لأنَّ تلقّي كتاب اللَّه أمرٌ صعب، إذ القرآن ثقيل كما قال عزَّ مِنْ قائل: ﴿سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[(٢)].

---

(١) بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٠٧.

(٢) سورة المزمّل، آية: ٥.

وعلى النبي أنْ يبذل ما أوتي من جهدٍ ليكون جديراً بتلقي القرآن المجيد، عليه أنْ يستيقظ في الليل، ويقوم مصلياً، لأنَّ اللَّه يريد أنْ يُنزل عليه قولا ثقيلا. يقول تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1].

ثم يبيّن اللَّه سبحانه السبب في أهمية القيام والعبادة في الليل: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[2]. فالليل فترة زمنية مناسبة للتلقي، إذ يكون القلب والتفكير خلاله أكثر تحرراً، وأكبر قدرة على استيعاب الروح العظيمة، ثم إنك لتقرأ القرآن عند الفجر بعد كل هذا التلقي والاستيعاب: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾[3].

وواضح أنَّ تعاليم سورة المزمل المباركة ليست خاصة بالنبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، بل هي تعم جميع المؤمنين.

موقف المنافقين من القرآن

إنَّ المنافقين لطالما أرادوا تصغير القرآن المجيد وتحجيمه وصبّه ضمن قوالب فهمهم وأهدافهم، كيف؟ بالحذف والتحريف وسلخ الآية عن معناها الصحيح، كسوْق الفرائض والواجبات والمحرمات إلى المستحب والمكروه والمباح، ثم إنهم يعرضون تفسيراً يستحقرون فيه كتاب اللَّه. ولا ريب أن التعامل مع القرآن بهذا المنحى تعامل باطل. لا سيما وأنَّ القرآن كتاب مجيد عظيم لا يمكن تحجيمه، وإنما تفسير المنافقين تفسير فاشل لا صلة له بالقرآن:

---

(١) سورة المزمّل، آية: ١ و٢.
(٢) سورة المزمّل، آية: ٦.
(٣) سورة الإسراء، آية: ٧٨.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[1] حيث يحاولون تزوير المعاني وتحريف الألفاظ إلى غير مساراتها.

إنَّ الأزمة الكبرى والمشكلة الأساسية تكمن في أنَّ القرآن الكريم لا يُفهم ولا يُفسَّر بالصورة المطلوبة الصحيحة. فيما المفسِّر المتدبِّر بمعناه الواقعي ينبغي أن يكون حكيماً مطلعاً في المباحث القرآنية، ومفكراً محققاً في القضايا الأخلاقية، وناظراً إلى الآيات نظرة الفقيه المتبحِّر، وأن يكون في المسائل الإجتماعية عالماً إجتماعياً حاذقاً، فيطالع القرآن مطالعة تامة ثم ينتقل إلى عملية تفسيره، بمعنى أن يفهم ويعي أبعاد القرآن المتعدِّدة بصورة ثاقبة جامعة، وهذه (الجامعية) أمر صعب مستصعب، وهذه هي المشكلة التي أدت إلى حصول النقص في أكثر التفاسير.

من هنا فقد ألزمتُ نفسي بمنحىً جديد، وهو البحث بنظرة جديدة وطريقة حديثة في التدبر في القرآن، تتضمن مزايا تفسيرٍ جامعٍ، رغم التأطر بسورة واحدة.

في هذا التدبّر والتفسير أولينا إهتماماً بالمعارف القرآنية المغفولة غالباً، وأعرضنا عن مباحث الألفاظ والإعراب والعلوم الأدبية التي اغنتنا عنها بقية التفاسير، وإنما نشير إلى بعض النقاط الأدبية التي غُفل عنها في سائر الكتب، أو تلك النقاط ذات الأهمية البالغة جداً وذات الصلة الوطيدة جداً بأصل البحث؛ وحيث تتطلّب الحاجة.

وإنَّ السبب في اختيار سورة الروم المباركة، هو محتواها المميز، واللطائف التي تضمنتها، حيث يمكن تناولها بشكل منفصل.

(١) سورة النساء، آية: ٤٦.

فهي سورة تناولت التوحيد والمعاد – وهما أصل جميع الاعتقادات – بصـورة مركَّزة، ولعل أحد أبعادها المعرفيـة؛ الدروس الدّالة على أهمية الإيمان بالوعود الإلهية ذات الدور الهام في التربية والإصلاح، مضافاً إلى الدور الكبير للايمان بالوعد الإلهي في اجتذاب الإنسـان إلى ربه وقرآنه، حيث تم تناول ذلك في هذه السورة المباركة.

وعلـى أيّة حال؛ فقد بدأنا السـير في هذا الطريق، ونسـأل اللّه العلـي العظيـم أن يوفقنا إلى طيّـه بالصورة السـليمة، وأن ينعم علينا بنعمـة الفهم الصحيح لجانب من جوانـب المعارف القرآنية، فيكون لنا خير ناصر ومعين، وأن يصوننا عن الخطأ والزلل والانحراف.

تمهيدات

١- تسمية السورة

كيف انتخب اسم هذه السورة المباركة؟

قبل الإجابة على هذا السؤال ينبغي الإشارة إلى عدة نقاط مهمة:

١ - إنَّ أسماء السور القرآنية قضية توقيفية، بمعنى أنَّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أو الأئمة المعصومين صلوات اللّـه عليهم وبما نقلوا عن سيدهم الرسول الأعظم قد عيّنوا أسماء السور، وليس لأحد غيرهم حق فيما يتعلق بأسمائها بحيث يختاروا غيرها.

٢ - ثم إنَّ بعض السور القرآنية لها اِسمان أو أكثر، كسورة (الإسراء) التي لها اسم آخر، وهو (بني اسرائيل) حيث عُرِفت بهذا الإسم الأخير أولاً[(١)]، ثم اشتهرت بالاسم الأول، ذلك لأنَّ الحروب التي تسبب بها اليهود أو خاضوها ضد المسلمين أدت إلى حالة من

(١) تفسير نور الثقلين، للحويزي، ج٣، ص٩٧.

النفـرة مـن المسـلمين تجاههم، ففضلوا في النهاية إسـم (الإِسـراء) على (بني اسرائيل).

وكذلـك شـأن سـورة (الممتحنـة) التي تُسـمّى أيضاً بسـورة (المودة)[1]. أو سورة (الشـورى) التي تسمّى بسورة (حم عسق)[2]، مع أن الاسم المشهور هو الأول للحديث عن موضوع الشورى فيها.

وعلى هذا؛ فإنَّ لبعض السـور القرآنية أسـماء متعددة تتفاوت فـي الشـهرة، ولكننـا نؤكـد على الالتـزام بالتسـمية الرسـمية لها، إذ القـرآن الكريم هـو (حبل اللّٰه المتين)[3]، وسـبب هام جداً في وحدة المسـلمين، ولا ينبغي - بسـبب تغيير أسـماء السـور - التسـبب بما يفرقّهم أو يلقي الشبهات والشكوك في أوساطهم.

٣- إنَّ تسـمية سـورتين من السـور القرآنية بـ(الـروم) و(بني إسـرائيل) يشـير إلـى أنَّ لديـن الإسـلام إهتمامـاً خاصـاً بالأديـان والرسـالات السـماوية الأخرى؛ رغم أنَّ الديانة اليهودية والمسيحية قد نُسـختا، ولكن نسـخ دينٍ مّا لا يعني إلغاء أو نفـي تعاليمه عموماً. وعليه؛ فقد سُـميت سورة الإِسراء باسـم (بني اسرائيل) أيضاً، وهذه التسـمية تشـير إلى اليهود، كما أنَّ إطلاق إسـم (الروم) على سـورة أخرى يشـير إلى المسـيحية والمسـيحيين، وفي تسـمية هذه السورة

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي، ج٩، ص٤٠٢. التحرير والتنوير لابن عاشور، ج٢٨، ص١١٥.

(٢) أورد السيوطي أخباراً متعددة في بداية تفسير السورة، ذكر فيها كلها هذا الإسم، انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج٦، ص٢، تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٥٥٦.

(٣) كما وصفه الإمام الرضا عليه السلام في الحديث المروي في: عيون أخبار الرضا، ج٢، ص١٣٠.

باسم (الروم) ربما إشارة إلى اهتمام الإسلام بقضية أهل الكتاب، وتوضح هذه السورة أيضاً طبيعة الموقف الإلهي منهم.

٢- إهتمام القرآن بالأديان السماوية

هنا؛ يقفز إلى الذهن سؤال مهم؛ وهو: لماذا اهتم القرآن المجيد بالأديان السماوية السابقة؟ علماً أن القرآن قد حصر دين اللّه تعالى بالإسلام فحسب؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾(١)، ولم يكتفِ بذلك فقط، وإنما صرَّح بأنَّ من يعتنق غير هذا الدين فإنه سيعيش عبثاً وسيفرّط في مصيره، فقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٢)، فيبدو - على هذا الأساس - عدم جدوى مقايسة الأديان السالفة بالدين الإسلامي!

وعلى ما تقدم؛ هل يعتبر أهل الكتاب - من وجهة النظر القرآنية والإسلامية - كغير أهل الكتاب؟ أيْ أنَّ اليهودي أو المسيحي كأيّ مشرك؟

الإجابة على ذلك هي أنهم ليسوا كذلك، فأساس الدين هو الإسلام، منذ البدء وحتى النهاية، وإنَّ نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لم يأتوا بدينٍ غير الإسلام، والإسلام بمعنى التسليم: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ أي إنَّ الدين الحق الذي جعله اللّه وقرّره هو التسليم لأمره. وفي الحقيقة؛ إنَّ روح الدين في كل عصر ليس سوى التسليم للّه عزَّ وجل وإطاعة أوامره، ولا يعدوه إلى غيره، ولكن حيث كان دين خاتم الأنبياء وأفضلهم أفضل الأديان وأكملها

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩.
(٢) سورة آل عمران، آية: ٨٥.

فقد اختير له اسم (الإسلام)، وإلّا فإنَّ اسم جميع الأديان هو الإسلام، لأنَّ أصلها واحد، مع ملاحظة أنَّ اللَّه سبحانه أراد لأديانه أن تفعّل الحركة البشرية على المستويين الإجتماعي والتاريخي، فأنزل لها أدياناً تواكب تلكم الحركة لتكتمل وتتكامل حتى بلغ الدور دين خاتم الأنبياء.

أمّا أساس ومصدر الخلاف الديني والمذهبي - رغم وحدة الأديان الإلهية النازلة من السماء - فهو ظلم وانحراف العلماء الدنيويين الذين رأوا في اتّباع الأنبياء والرسل زوالاً لمنافعهم ومصالحهم، والسبب الآخر هو انكبابهم على شهواتهم وحبهم للتسلط والظهور: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ﴾.

لقد وقع اليهود فيما يتصل بخليفة النبي موسى عليه السلام في نزاع شديد، وأريق في ذلك دم كثير. وكذلك تنازع النصارى في قضية التوحيد حيث تمَّ تلويث العقيدة بانحراف التثليث. والطرفان معاً وجدا في كتبهما التي يدَّعون قدسيتها دلائل واضحة على نبوة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنهم لم يرعووا عن دسّ الضلالات ونثر بذور الفُرقة والاختلاف، فكفروا به إلّا قليل منهم.

وعلى هذا، وانطلاقاً من الاحترام الذي نكنّه لأنبياء اللَّه، فإنَّ اليهود والنصارى يُحترمون في البلدان الاسلامية، وهكذا تُحترم معابدهم وتُصان، ولا مشكلة في وجود كنيست أو كنيسة في بلدة مسلمة ما أوفت بشروط بقائها، بل إنَّ صوت الناقوس حسب الصادر عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم له قيمة محترمة وتفسير خاص. روى الحارث الأعور قال: بينما أنا أسير مع أمير المؤمنين عليه السلام في الحيرة إذا

بديرانيٍّ يضرب الناقوس، فقال علي عليه السلام: يَا حَارِثُ أَتَدْرِي مَا يَقُولُ هَذَا النَّاقُوسُ؟

قلت: اللَّه ورسوله وابن عم رسوله أعلم.

قال: إِنَّهُ يَضْرِبُ مَثَلَ الدُّنْيَا وخَرَابِهَا ويَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه حَقّاً حَقّاً صِدْقاً صِدْقاً، إِنَّ الدُّنْيَا [قَدْ] غَرَّتْنَا وشَغَلَتْنَا واسْتَهْوَتْنَا، يَا ابْنَ الدُّنْيَا مَهْلًا مَهْلًا، يَا ابْنَ الدُّنْيَا دَقّاً دَقّاً، يَا ابْنَ الدُّنْيَا جَمْعاً جَمْعاً، تَفْنَى الدُّنْيَا قَرْناً قَرْناً، مَا مِنْ يَوْمٍ يَمْضِي [عَنَّا] إِلَّا أَوْهَنَ مِنَّا رُكْناً، قَدْ ضَيَّعْنَا دَاراً تَبْقَى، واسْتَوْطَنَّا دَاراً تَفْنَى، لَسْنَا نَدْرِي مَا فَرَّطْنَا فِيهَا إِلَّا لَوْ قَدْ مِتْنَا.

قال الحارث: يا أمير المؤمنين، النصارى يعلمون ذلك؟

قال: لَوْ عَلِمُوا ذَلِكَ مَا اتَّخَذُوا الْمَسِيحَ إِلَهاً مِنْ دُونِ اللَّه عَزَّ وجَلَّ.

قال: فذهبتُ إلى الديرانيِّ، فقلت له: بحق المسيح عليك لما ضربت الناقوس على الجهة التي تضربها.

قال: فأخذ يضرب وأنا أقول حرفاً [حرفاً] حتى بلغ إلى موضع «إلّا لو قد متنا» قال: بحق نبيكم مَنْ أخبركم بهذا؟

قلت: هذا الرجل الذي كان معي أمس.

قال: فهل بينه وبين نبيكم من قرابة؟

قلت: هو ابن عمه.

قال: بحق نبيكم، أَسَمع هذا من نبيكم؟

قلت: نعم.

فأسلم، ثم قال: واللَّه إني وجدت في التوراة أنه يكون في آخر الأنبياء نبي وهو يفسِّر ما يقول الناقوس[1].

إذن؛ فإن الموقف من الكنيسة والناقوس يجب أن يكون موقفاً قيماً محترماً.

إنَّ القرآن - بطبيعة الحال - لا يعتبر جميع أهل الكتاب سواء، ويقول: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾[2]، ويعد القرآن جماعة من أهل الكتاب محطَّ ثقة واحترام ويقول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾[3]. ولا ريب إنَّ من أهل الكتاب مَنْ لا يفعل ذلك وإن إئتمنته بدينار واحد: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾[4]. ويصف شريحة من أهل الكتاب بالقول الكريم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[5].

وبالنتيجة؛ هناك من أهل الكتاب من يؤمن باللَّه سبحانه ويرتبط باللَّه الرحمن بعلاقة طيبة، فلا يستكبر على ربه، وهو يدعو ويبتهل إليه سبحانه فينبغي احترامه، ولهذه الميزة ذكره القرآن بالمديح وقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا

(١) ارشاد القلوب، ج٢، ص٣٧٣.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٣.
(٣) سورة آل عمران، آية: ٧٥.
(٤) سورة آل عمران، آية: ٧٥.
(٥) سورة آل عمران، آية: ١١٤.

يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[١]، وهكذا يستحق بعض أهل الكتاب - لأجل نبيهم وكتابهم السماوي - الاحترام[٢].

٣- تنوّع الخطاب القرآني

تارةً يكون المخاطب بالقرآن الكريم جميع الناس. يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[٣]، ويقول في آية شريفة أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[٤]، فلا فرق ذاتياً بين إنسانٍ ونظيره، وإنَّ مراد الآية الإشارة إلى أنَّ تعدد القوميات والألوان واللغات وأمثال ذلك حالات عرضية على الذات الإنسانية الواحدة، وإنَّ التفاوت الحقيقي يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار حين الاحتكام إلى مقياس التقوى وطاعة اللَّه تبارك وتعالى.

في مثل هذا النص والخطاب تكون الدائرة عامة وشاملة، وهي تخاطب كل إنسان؛ مهما كانت لغته ولونه وعنصره، وتهدف اجتذابه، لأنها تتحدث إلى روحه وعقله اللذين وهبهما اللَّه تعالى إيّاه.

---

(١) سورة المائدة، آية: ٨٢.

(٢) للأسف؛ نجد بعض المسلمين في خطاباتهم أو أشعارهم لا يولون الإحترام المطلوب والواجب للنبي إبراهيم أو موسى أو عيسى وباقى الأنبياء صلوات اللَّه عليهم أجمعين، وهذا أمر مستهجن، إذ الجميع أنبياء اللَّه، والمطلوب من كل مسلم أن يؤمن بهم جميعاً: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة/ ٢٨٥].

(٣) سورة الانشقاق، آية: ٦.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٣.

وتـارةً أخرى يتوجه الخطاب القرآنـي إلى جميع أهل الكتاب ومنهم المسلمون أيضاً باعتبارهم أهلاً للكتاب السماوي وهو القرآن الكريـم، فيقـول: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

وكل مـن كان من أهل الكتاب يجـد المنطق ويلمس العقلانية في هذا الخطاب، الذي يتلاءم والفطرة وجميع الموازين البشرية .

وتـارة ثالثـة يكون الخطـاب القرآنـي متوجهاً إلى المسـلمين فحسـب، كالآيـة الشـريفة القائلـة: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[2]، وفيها الإشـارة إلى جماعـة من المسـلمين، إذ تؤكد لهـم أنهم لم يبلغـوا مرحلة الإيمان بعد؛ وأنهم يعيشون مرحلة الاكتفاء بالتلفظ بالشهادتين فقط.

وتـارة رابعـة يتوجه الخطـاب القرآنـي إلى جماعـة المؤمنين دون غيرهـم، كقولـه جـل وعـلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[3].

وتـارة خامسـة يختـص الخطـاب بالأنبيـاء والرسـل، كقولـه سـبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٦٤.
(٢) سورة الحجرات، آية: ١٤.
(٣) سورة الجمعة، آية: ٩.
(٤) سورة المؤمنون، آية: ٥١.

وتارة سادسة يكون الخطاب القرآني خاصاً بشخص رسول اللّه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[1].

وعلى هذا؛ فإنَّ الخطابات القرآنية لها دوائرها الخاصة وأشخاصها المعيّنون، ولكلِّ خطابٍ حكمته. فحينما يتوجه الخطاب إلى المؤمنين؛ فإنه يحمّلهم مسؤوليات ووظائف محددة، كالصلاة والصوم وصلاة الجمعة وغيرها. وحين يكون الخطاب لجميع الناس، فإنَّ المفاهيم والرسائل ستتفاوت وقتئذ، كالمساواة في الخلقة وعدم التفاوت، كقوله عز اسمه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[2].

وعليه؛ فإنَّ من الخطاب القرآني ما هو عام، وأعم، وخاص، وأخص، والمتوجه إليهم الخطاب، هم كل الناس، أو أهل الكتاب، أو المؤمنون، أو الأنبياء عليهم السلام، أو النبي الأكرم ﷺ، وإنَّ في تنوّع الخطاب القرآني دلالة على وجود مراتب ودرجات بين المخاطَبين. ونستنتج من ذلك ضرورة التناغم بين الخطاب وبين درجة ومرتبة المخاطَب، ولذلك من هذا المنطلق كان إهتمام القرآن الكريم بأهل الكتاب حيث جعل منهم دائرة لإحدى خطاباته.

٤- صعوبة فهم وتفسير القرآن

لآيات القرآن معانٍ متعددة، وهي جديرة بالفهم والاستفادة تبعاً لاقتضاء موضوعاتها وسائر شرائطها، فكلام اللّه تعالى يختلف

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤٥ و٤٦.
(٢) سورة الحجرات، آية: ١٣.

عـن كلام البشـر، وقـد روي عن رسـول اللّـه صلى الله عليه وآله وسلم قوله الشـريف: ﴿فَضْـلُ الْقُرْآنِ عَلَى سَـائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّـه عَلَى خَلْقِه﴾[١]. وكما أن اللّـه تعالـى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ ولا نظير له، وهـو الواحد الأحد، كذلـك هو أمر القـرآن وواقعه. وإنه لا وجود لكتـاب في العالَم تجد فـي كل جملـة منه خزائـن للمعرفة والعلـم. وقـد روى الزهري عن الإمام السجاد عليه السلام قوله: «آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنُ، فَكُلَّمَا فَتَحْتَ خِزَانَةً يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا»[٢].

ففـي بعض الأحيـان يعكـس اللفظ أو العبـارة معـانٍ مختلفة لاعتبـارات مختلفـة، كالاعتبـار العقلـي أو العرفـي. وتـارة تشـترك المعانـي في مفردة واحدة على سـبيل الإشـتراك اللفظـي، فهي رغم الوحدة الظاهرية، إلا أنك تجد لها معانٍ شتى. ويمكن إحصاء نماذج ومصاديـق عديدة لهـذه الظاهرة، وقد ورد عن أميـر المؤمنين عليه السلام قوله الشريف - في حديث طويل عن القرآن -:

«وَأَمَّا الْمُتَشَـابِهُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَهُوَ الَّـذِي انْحَرَفَ مِنْهُ مُتَّفِقُ اللَّفْظِ مُخْتَلِفُ الْمَعْنَى، مِثْلُ قَوْلِهِ عَزَّ وجَلَّ: «يُضِلُّ اللَّه مَنْ يَشاءُ ويَهْدِي مَنْ يَشـاءُ»[٣] فَنَسَبَ الضَّلاَلَةَ إِلَى نَفْسِـهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وهَذَا ضَلاَلُهُمْ عَـنْ طَرِيقِ الْجَنَّةِ بِفِعْلِهِمْ، ونَسَـبَهُ إِلَى الْكُفَّارِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، ونَسَـبَهُ إِلَـى الأَصْنَـامِ فِي آيَةٍ أُخْرَى، فَمَعْنَى الضَّلاَلَةِ عَلَـى وُجُوهٍ: فَمِنْهُ مَا هُوَ مَحْمُـودٌ، ومِنْهُ مَا هُوَ مَذْمُومٌ، ومِنْهُ مَا لَيْسَ بِمَحْمُودٍ ولَا مَذْمُومٍ، ومِنْهُ ضَلَالُ النِّسْيَانِ....»[٤].

(١) جامع الأخبار، ص٤٠.
(٢) الكافي للكليني، ج٩، ص٦٠٩،ح٢.
(٣) سورة المدثر، آية: ٣١.
(٤) بحار الأنوار للمجلسي، ج٩٠، ص١٢.

وفي هذا الإيضاح إشارة إلى إمكانية أن يتضمّن اللفظ الواحد - بقرائـن متفاوتـة - معـانٍ متفاوتة، وحسـب اصطلاح أهـل العلوم القرآنيـة، يسـمّى ذلـك بـ (الوجـوه والنظائر). أمـا إذا وُضِـع اللفظ الواحد لمعنيين، فهو يكون من نوع الاشتراك اللفظي.

وقد اورد أمير المؤمنين عليه السلام - في نفس الحديث المشار اليه - شـواهد قرآنية لإثبات ما أدلى به من حكمـة، كمفردات: «الخلق» و«الفتنـة» و«القضاء» و«النـور» و«الأمة» واعتبرها من المتشـابهات بسـبب وجـود معـانٍ متعـددة ومختلفـة للفظة واحـدة، وذلـك طبقاً للشرائط والموقع من سياق الكلام، ولذلك يحصل التشابه.

مـع الالتفـات لهذه الحقيقة أعـلاه، فإنني لا أفسّـر القرآن، بل أسـعى جاهداً لاكتشـاف الواقـع عن طريـق القرآن المجيـد، بمعنى أنني أفسّـر الواقع بوسـيلة القرآن.. ولا بد من القول هنا إنَّ الإنسـان ينبغي أن يكون على درجة عالية من الجرأة ليدّعي قدرته على تفسـير القـرآن، أو يقـول: إنَّ هذه الآية تعني كذا وكذا.. وهذا الادعاء يشـبه قولـه - مثـلاً -: إنَّ الشـمس هي هذه الحزمة الضوئيـة التي أراها في غرفتي، والحال إنَّ للشـمس عالمـاً خاصاً، وإنَّ هذه الحزمة الضوئية جزءٌ صغير جداً من نور الشمس، وإنَّ الجزء لا يساوي الكل.

٥- الإطار العام للسورة

كل هذه السـورة المباركـة - طبقاً للمشـهور - نزلت في مكة المكرمـة، مضافـاً إلـى أنها تتفق مـع محتـوى وروح السـور المكيّة الأخـرى، حيـث تتنـاول بحـوث (المبـدأ والمعـاد) لا سـيما وأنَّ مرحلـة الدعوة المكيّة عبـارة عن مرحلة تعليم وترسـيخ المعتقدات

والأصول الدينية، كالتوحيد، والصراع مع الشرك، والإيمان بالمعاد، والحساب في يوم القيامة، وبين هذا وذاك ثمة موضوعات أخرى تعود في النهاية إلى هذه الأصول.

وتضمنت هذه السورة الكريمة - طبقاً للوجهة القرآنية العامة - مسائل استدلالية وعاطفية وخطابية، حتى أنها شكلت بمجموعها إكسيراً ناجعاً لتربية النفوس وهدايتها.

وبنظرة إجمالية، يمكن تقسيم موضوعات هذه السورة إلى سبعة أقسام:

١ - بدأت السورة بوعد من اللَّه عز وجل، وتمثّل بالنصر القريب للامبراطورية الرومانية التي انهزمت من قبل الامبراطورية الفارسية في فترة نزول هذه السورة. وقد تحقق ذلكم الوعد بعد بضع سنين، وهذا الإخبار كان بسبب النقاش الواقع بين المسلمين والمشركين في مكة المكرمة بهذا الشأن.

٢- الاشارة إلى النهج الفكري لغير المؤمنين بالمعاد، وبعد الوعد بانتصار الروم ينتقل الحديث إلى صدق الوعد بالآخرة، حيث يرجع الناس جميعاً إلى خالقهم وربهم. وأثناء ذلك كان الحديث ثم الاستدلال على أصل المعاد، ثم تهديد منكري الآخرة والبعث في القيامة.

٣- قسم كبير من السورة تناوَلَ عظمة اللَّه في السماء والأرض وفي ذات كل إنسان، من قبيل خروج الحياة من الموت والموت من الحياة، وخلقة الإنسان من تراب، ونظام الزوجية، وخلق الأزواج من الأنفس، وعلاقة المودة بينها، وخلقة السماء والأرض، واختلاف

اللغات والألسـن، ونعمة النوم في الليل والنشور في النهار، وظاهرة الرعـد والبـرق والمطـر، وإحيـاء الأرض بعـد المـوت، وتدبيـر أمر السماء والأرض بأمر اللَّه جل وعلا.

٤- الحديـث عن التوحيد الفطري بعد الإشـارة إلى آيات اللَّه في الآفاق والأنفس لأجل معرفة اللَّه سبحانه وتعالى.

٥- العودة إلى بيان نفسيات غير المؤمنين والمذنبين، وظهور الفساد في الأرض بفعل الذنوب والخطايا.

٦- الإشارة إلى مسألة (المالكية) وحق ذوي القربى والامتناع عن الربا.

٧- عودة جديدة إلى دلائل أصل التوحيد والآيات الدالة على وجود الخالق والمسائل المتعلقة بالمعاد.

جدير بالذكر، إنَّ السورة قد خُتمت بالوعد المقدم إلى الرسول الأكرم ﷺ بالنصر، هذا الوعد ورد بشـكل مؤكَّد في قوله سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[1]، وقـد ورد فـي الآيات القليلة التي سبقته: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

إنَّ التدبر في هذه الخاتمة يشير إلى أنَّ هدف هذه السورة تقديم الوعـد الإلهـي القاطع والقاضـي بنصرة الديـن، وإنما كانت مسـألة الوعـد بغلبة الـروم في بضع سـنين؛ لأنّ المؤمنين إذا مـا رأوا تحقق هذا الوعد، سـيزدادون يقيناً بأنَّ الوعد الإلهي الآخر سـيتحقق أيضاً، وبأنَّ الوعد بالآخرة سيتحقق كالوعود الإلهية الأخرى. بلى، إنَّ عقل

(١) سورة الروم، آية: ٦٠.
(٢) سورة الروم، آية: ٤٧.

كل عاقـل يحكم بأنَّ اللَّه تعالى إذا مـا حقق وعدين قد أطلقهما، فإنه سيحقق وعوده الأخرى، ولا بد من الحذر من وعوده التي يطلقها.

٦- فضيلة سورة الروم

روى أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام:

«مَنْ قَرَأَ سُـورَتَي الْعَنْكَبُوتِ والرُّومِ فِي شَـهْرِ رَمَضَـانَ فِي لَيْلَةِ ثَـلَاثٍ وعِشْـرِينَ فَهُـوَ واللَّهِ يَـا أَبَا مُحَمَّـدٍ مِنْ أَهْـلِ الْجَنَّةِ، لَا أَسْـتَثْنِي فِيـهِ أَبَـداً، ولَا أَخَـافُ أَنْ يَكْتُبَ اللَّه عَلَيَّ فِـي يَمِينِي إِثْمـاً، وإِنَّ لِهَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ مِنَ اللَّه مَكَانا»(١).

وورد في حديث آخر عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَنْ قَرَأَهَا كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرُ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ مَلَكٍ يُسَبِّحُ اللَّه بَيْنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ، وأَدْرَكَ مَا ضَيَّعَ فِي يَوْمِهِ ولَيْلَتِه»(٢).

ربمـا يتسـاءل البعـض بعجب عن عظمـة هذا الثـواب والأثر لمجرد قراءة هذه السورة؟!

ولكـن من وجهة نظر المعصومين فإنَّ قراءة السـورة ينبغي أن تُقـرن بالتدبر، وإلّا فإنَّ قراءتها بلا تدبر سـتكون عديمة القيمة، وهذا هو ما نستلهمه من كلام الإمام الصادق عليه السلام في قراءة القرآن، حيث قال عليه السلام في دعاء قراءة كتاب اللَّه تعالى:

«اللَّهُـمَّ فَاجْعَـلْ نَظَـرِي فِيـه عِبَـادَةً، وقِرَاءَتِـي تَفَكُّـراً، وفِكْرِي اعْتِبَـاراً، واجْعَلْنِي مِمَّنِ اتَّعَظَ بِبَيَانِ مَوَاعِظِكَ فِيـهِ واجْتَنَبَ مَعَاصِيَكَ،

---

(١) تهذيب الأحكام، ج٣، ص١٠٠.

(٢) مجمع البيان للطبرسي، ج٨، ص٤٥٩.

ولَا تَطْبَـعْ عِنْـدَ قِرَاءَتِي كِتَابَكَ عَلَى قَلْبِي ولَا عَلَى سَـمْعِي، ولَا تَجْعَلْ عَلَى بَصَرِي غِشَاوَةً، ولَا تَجْعَلْ قِرَاءَتِي قِرَاءَةً لَا تَدَبُّرَ فِيهَا، بَلِ اجْعَلْنِي أَتَدَبَّـرُ آيَاتِهِ وأَحْكَامَهُ آخِذاً بِشَـرَائِعِ دِينِكَ، ولَا تَجْعَـلْ نَظَرِي فِيهِ غَفْلَةً ولَا قِرَاءَتِي هَذْرَمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الرَّءُوفُ الرَّحِيمِ»[1].

وواضـح إنَّ مـن يقـرأ سـورة قرآنيـة مباركـة مفعمـة بدروس التوحيد والمعاد وقضايا الآخرة ثم يُشْبِع - بتدبِّره - روحه وقلبه بها، ويعـي مراقبة اللَّه له لحظـة بلحظة، ويعتبر الآخرة ويـوم الجزاء أمراً مسـلَّماً به، فإنَّ تقوى اللَّه جل وعلا سـتملأ قلبه بصورة تناسـب كل هذا الأجر العظيم.

(١) مستدرك الوسائل للنوري، ج٤، ص٣٧٢-٣٧٣.

غُلِبت الروم

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾

من الحديث

روى أبـو عبيدة عـن الامام الباقر عليه السلام، قال: سـألته عن قول اللَّـه: «الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ». قَالَ: «يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، إِنَّ لِهَذَا تَأْوِيلًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّه والرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْأَئِمَّةِ. إِنَّ رَسُـولَ اللَّـه صلى الله عليه وآله وسلم لَمَّا هَاجَرَ إِلَـى الْمَدِينَةِ وقَدْ ظَهَرَ الْإِسْـلَامُ كَتَبَ إِلَى مَلِكِ الـرُّوم كِتَاباً وبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُـولًا يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْـلَامِ، وكَتَبَ إِلَى مَلِكِ فَـارِسَ كِتَاباً وبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُـولًا يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْـلَامِ، فَأَمَّا مَلِكُ الرُّومِ فَإِنَّهُ عَظَّمَ كِتَابَ رَسُـولِ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وأَكْرَمَ رَسُـولَهُ، وأَمَّـا مَلِكُ فَارِسَ فَإِنَّـهُ مَـزَّقَ كِتَابَهُ واسْـتَخَفَّ بِرَسُـولِ رَسُـولِ اللَّـه صلى الله عليه وآله وسلم، وكَانَ مَلِكُ فَـارِسَ يَوْمَئِـذٍ يُقَاتِلُ مَلِكَ الرُّومِ، وكَانَ الْمُسْـلِمُونَ يَهْـوَوْنَ أَنْ يَغْلِبَ مَلِكُ الرُّومِ مَلِكَ فَارِسَ، وكَانُوا لِنَاحِيَةِ مَلِكِ الرُّومِ أَرْجَى مِنْهُمْ لِمَلِكِ فَـارِسَ، فَلَمَّا غَلَبَ مَلِـكُ فَارِسَ مَلِكَ الـرُّومِ بَكَى لِذَلِكَ الْمُسْـلِمُونَ

واغْتَمُّوا، فَأَنْزَلَ اللَّه: «الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ» يَعْنِي غَلَبَتْهَا فَارِسُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ، وهِيَ الشَّامَاتُ ومَا حَوْلَهَا. ثُمَّ قَالَ وفَارِسُ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ الرُّومَ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِين...»[١].

تفصيل القول

(الروم) اسم مجموعة من الشعوب الذين كانوا يعيشون على سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى الغرب من قارة آسيا.

في تلك الحقبة أسّست تلك الشعوب امبراطورية كبيرة على مساحات شاسعة؛ بحيث بلغوا حتى بلاد الشام، وحين نزول هذه الآيات وقعت حرب طاحنة بين هذه الامبراطورية والامبراطورية الفارسية على أرض تقع بين الشام والحجاز، وقد خسر الروم تلك الحرب.

والأمر الملفت للنظر هنا، أنه وخلافاً للسور القرآنية التي تبدأ بالحروف المقطعة ثم تتناول قضية عظمة القرآن، لا نجد في هذه السورة المباركة حديثاً عن عظمة القرآن، وإنما جاء بعد الحروف المقطَّعة حديث عن هزيمة الروم ثم انتصارهم في المستقبل القريب. ولكننا إذا أمعنا النظر جيداً سيتضح لنا أن ثَمَ خطاباً مضمراً عن عظمة القرآن أيضاً، وذلك لتحقق الخبر الغيبي الذي أدلى به القرآن، وهذا يمثل إشارة من إشارات الإعجاز القرآني وعظمة هذا الكتاب السماوي والحجة على حقانيته وصدقه.

في هذه الآية تقرير عن واقعة بصورة مبهمة دون أن تُنسب إلى اللَّه سبحانه وتعالى، ولكن الآيات التي تليها ستتغير فيها نبرة

(١) بحار الأنوار، ج٤، ص١٠١، عن: تفسير القمي، ج٢، ص١٥٢.

الحديث، حيث يشار فيها إلى فعل اللَّه ونصره مباشرة.

ففـي جملـة ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ جاء الفعـل بصيغـة المجهول، فمـن هو الفاعل؟ و(الفرس) باعتبارهـم الغالبون لم يرد لهم ذكر في الآية. تقول الآية باختصار شديد: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾. ثم تتحدث الآية التالية عن أنهم ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾. ولكن الآيات التالية ستتبدل صيغة التعبير فيها، حيث تتم الاستفادة من الفعل المعلوم ويشار إلى نُصرة اللَّـه تعالـى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. فتنبغـي الدقـة في التفاوت بين صيغتي الفعل والتغيير الحاصل في وجهة الخطاب القرآني الحكيم.

ولعـلّ اللَّه تعالى يريد بذلك الإشـارة إلـى أنَّ الهزيمة الرومية قضية مؤقّتة، وأنَّ النصر قادم، وأنه سبحانه لا يريد الهزيمة لهم، وأنَّ الـروم إذا غَلبـوا فيما بعد؛ فإنَّ المؤمنين سيفرحون، وهـذه الحقيقة تشـير إلـى أنَّ النصـارى محترمـون، وأنَّ المسـلمين لهـم موقفهـم الإيجابـي منهم لغرض دعوتهم وهدايتهم إلى الاسـلام، وهو الدين الحق.

دور الإمكانات في الانتصار العسكري

تمت الإشـارة في هذه الآية والتي تليها إلـى النصر والهزيمة. فهل الهزيمة أو النصر أمر حتمي وغيبي؟

كلا، فغلبة الروم على الفرس أو بالعكس أمران منوطان بطبيعة التفكيـر والتخطيط الأفضل، وبشـجاعة الجنـود، وبتوفر الإمكانات العسـكرية، والإستعداد للمواجهة، وهكذا هي سُـنّة اللَّـه تعالى في خلقـه. يقـول اللَّـه سـبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن

﴿رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[١]. أما النبي الأكرم ﷺ فرغم أنه سيد الخليقة كلها من حيث القوة المعنوية، كما أنه قائد المسلمين، ولكنه لم ينتظر نزول النصر من الغيب، بل انطلق بالمسلمين ذات صباح إلى منطقة أُحُد، فرسم الخطة العسكرية على الأرض وحدّد جغرافية مواقعهم[٢]، وكان صلوات اللّه عليه وآله يولي كل الأهمية قضية الاستفادة من الخطط الحربية المتطورة، مضافاً إلى حرصه الشديد على استخدام ما كان فعّالاً من الأسلحة آنذاك. حتى أنه حين أُخبر عن وجود سلاح جديد أو طريقة جديدة لصنع السيف في اليمن، أرسل من فوره من يتعلم هذه الصنعة[٣].

إذن؛ فالأمر لم يكن مجرد دعاء وانتظار للغيب، بل كان المؤمنون يعدّون العدة ثم يدعون ويتوكّلون على اللّه تعالى.

وهكذا علّم أمير المؤمنين عليه السلام ولده محمد بن الحنفية قواعد الحرب في صفين وقال له:

«أَعِرِ اللَّه جُمْجُمَتَكَ، تِدْ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ، ارْمِ بِبَصَرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ، وغُضَّ بَصَرَكَ، واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّه سُبْحَانَه»[٤].

إنه يلزم أن ننجز وظائفنا بكل جدّيّة، فنوفِّر الشجاعة في أنفسنا، ونعدُّ العدّة العسكرية، ثم نتأكد من حقيقة أنَّ النصر بيد اللّه جلّ وعلا.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٠.
(٢) أشير إلى هذه الحقيقة في الآية (١٢) من سورة آل عمران: (وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).
(٣) الأمثل في تفسير كتاب اللّه المنزل؛ مكارم الشيرازي، ج٥، ص٤٧٣.
(٤) نهج البلاغة، الخطبة ١١.

بصائر وسنن

ليسـت الغَلبـة فـي المواجهة أمـراً حتمياً ينزل مـن الغيب، بل النصر منوط بطبيعة التفكير السـليم، والتخطيط الأفضل، وبشـجاعة القادة والجنود، وبتوفر الإمكانات العسكرية، والإستعداد للمواجهة. وهذه هي سنَّة اللَّه تعالى في خلقه.

سيَغْلِبون

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾

من الحديث

قيـل: احتَربَـتِ الرُومُ وفَـارسُ بين أذرعات وبُصـرى، فَغَلَبتْ فَـارسُ الـرومَ، فبلَـغَ الخَبـرُ مكّـةَ، فَشَـقَّ علـى رسـولِ اللَّـه ﷺ والمسلمينَ، لأنَّ فارِسَ مَجُوسٌ والرُّومَ أَهلُ كِتَاب، وفَرحَ المشركونَ وقالُـوا: أَنتُم والنَصَارى أهلُ كتاب، ونَحنُ وفَارسُ لا كتابَ لَنَا، وقَد ظَهَـرَ إخوانُنَا على إخوانِكُـم، ولَنَظهَرَنَّ نحنُ عَليكُم، فَنَزَلَتْ: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ يعنـي: أَنَّ الـرومَ مـن بعدِ غَلبـةِ فَارس إيَّاهُم سَيَغْلِبونَهُم فِي بِضْعِ سِنِينَ[1].

تفصيل القول

تشـير الآية هذه إلى أنَّ الحرب التي انتهت بانكسـار الروم قد

(١) تفسير جوامع الجامع، ج٣، ص٤.

وقعت:

١- ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾

والمقصود من هذا الدنو هو القرب من أهل مكة إلى الشمال من الجزيرة العربية، في أراضي الشام، في منطقة واقعة بين (بصرى) و(أذرعات). وأحتمل أن يكون الموقع قريباً من بلاد الفرس، أي أن الحرب قد وقعت في أقرب نقطة بين الفرس والروم. واحتمل أيضاً أن يكون المقصود بالأرض؛ أرض الروم، أي أنَّ هؤلاء قد خسروا الحرب في بقعة كانت تقع في حدودهم الجغرافية وتحت نفوذهم السياسي.

وعلى أية حال؛ فإن التقرير الخبري القرآني هذا يتضمن الإشارة إلى أهمية وفداحة هذه الخسارة، لأنَّ الهزيمة إذا ما وقعت في نقطة بعيدة فهي غير ذات أهمية؛ بالقياس إذا ما وقعت في نقطة قريبة من مركز الدولة أو على مشارف الحدود الجغرافية أو النفوذ العسكري والسياسي لها، ولكن الأمر الأكثر إثارة هو التأكيد والوعد بوقوع النصر لهذا المنهزم بعد فترة قصيرة، مما يشير إلى صدق وإعجاز الإنباء القرآني:

٢- ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾

والسؤال هنا هو: لماذا صيغ هذا الخبر بهذا النحو؟ وقد كان للّه تعالى أن يقول: وهم سيغلبون. فلِمَ أُضيفت عبارة: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾؟ فما علة هذا التعبير؟

﴿غَلَبِهِمۡ﴾ مصدر، أي: (مغلوبيتهم) وأضيف إلى المفعول دون الفاعل، إذ اللّه تعالى ربما يريد القول إنهم بمقدار هزيمتهم

سـينتصرون وليـس أكثـر، وإنهم سيسـترجعون الأرض التـي غلبهم عليهـا الفـرس. إذن؛ فهـو انتصار محـدود ومؤقّـت، وهـذا أمر هام للغاية من لطائف الآية الأدبية والإعجازية التي بيّنها اللّٰه تعالى بكلمة واحدة.

مـن جانـب آخـر؛ وردت عبـارة ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ للإشـارة إلـى أهميـة هذا النصر، ذلـك لأن انتصار جماعـة مغلوبة على أقرب وأمنع موقع من حدودها في مدة قصيرة أمر غير متوقع ويشير إلى بُعد إعجـازي، وليؤكد لأهل مكة – وكل القوى غير المؤمنة – ألّا يغترّوا بقوتهم، وأنْ يعلموا بأن أقوى الدول معرّضة للهزيمة.

إنَّ هذا الدرس حيٌّ باقٍ على مدى التاريخ.

بصائر وسنن

إنّ التأكيـد على أنّ الجهة المنهزمة سـتنتصر بعد فترة قصيرة، يشير الى صدق وإعجاز الإنباء القرآني، كما يؤكِّد لأهل مكة – وكل القوى غير المؤمنة – ألّا يغترّوا بقوتهم، وأن يعلموا بأنّ أقوى الدول معرَّضة للهزيمة.

يفرح المؤمنون

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾.

من الحديث

روي عن أبي سَعيد الخُدَريّ قَالَ: التَقَيْنَا مع رسولِ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم ومُشْـرِكي العَرب، والتَقَتِ الرُومُ وفَارسُ، فَنَصَرنَا اللَّه على مُشـركِي العَـربِ ونَصَرَ اللَّـه الرُّومَ على المجوسِ فَفرحْنَا بِنَصْـرِ اللَّه إيَّانَا علَى المشركينَ، ونَصْر أهلِ الكتابِ علَى المَجُوسِ[1].

تفصيل القول:

١ - ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾

(بضـع) بمعنى المقـدار لغةً، ومع مفردة (سـنين) تأتي بمعنى عـدة سـنين قليلـة، والعـرب تقول: بضـع، وتعنـي به ما بيـن الثلاث

(١) تفسير جوامع الجامع، ج٣، ص٤.

والتسع[1]. وعلى هذا الأساس، يكون بين هزيمة الروم وانتصارهم سنين قلائل، وقد وقع الاختلاف بين المفسرين في تحديد عدد السنين على وجه الدقة.

٢- ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾

للّه الأمر من قبل هزيمة الروم وبعد هزيمتها، أي: انتصارها، إذ كلّ شيءٍ بيده سبحانه وتعالى، فهو يأمر بما يريد، وينصر من يشاء ولا ينصر من يشاء.

صراع الساسانيين وهزيمة الفرس

يرى الملوك وأصحاب السلطان والقوة أنَّ من يقدّم لهم الخدمات الكبيرة ويحصل على نفوذ خطير بين الناس ينبغي القضاء عليه، إذ يمكن أن تسوّل له نفسه بالانقلاب على وليّ نعمته، تماماً كما فعل بنو العباس بأبي مسلم الخراساني وأبي سلمة الخلّال.

كهذه الحادثة وقعت في القصر الساساني، إذ كان القائدان الفارسيان اللذان أدارا الحرب ضد الروم، وهما (شهربراز) و(فرخان) أخوين، وبعد انتصارهما أراد الملك أن يتخلص منهما، فكتب إلى شهربراز: إذا أتاك كتابي فابعث إليَّ برأس فرخان، فكتب إليه: أيها الملك، إنك لن تجد مثل فرخان، إنَّ له نكايةً وضرباً في العدو، فلا تفعل. فكتب إليه: إنَّ في رجال فارس خلفاً منه، فعجِّل إليَّ برأسه. فراجعه، فغضب كسرى فلم يجبه.

فبعث بريداً إلى أهل فارس: إني قد نزعتُ عنكم شهربراز،

(١) العين للخليل الفراهيدي، ج١، ص٢٨٦. ولسان العرب لابن منظور، ج٨، ص١٥.

واستعملتُ عليكم فرخان.

ثم دفع إلى البريد صحيفة صغيرة فيها: إذا ولي فرخان الملك، وانقـاد له أخوه، فأعطه هذه، فلما قرأ شـهربراز الكتاب، قال: سـمعاً وطاعـةً، ونزل عن سـريره وجلس فرخان ودفـع الصحيفة إليه، قال: ائتوني بشهربراز.

فقدمـه ليضرب عنقه، قال: لا تعجل حتى أكتب وصيتي، قال: نعم، فدعا بالسـفط، فأعطـاه الكتب الثلاثة التي ارسـلها الملك اليه، وقال: كُلُّ هذا راجعتُ فيك كسـرى، وأنـت أردتَ أن تقتلني بكتاب واحد؟

ولما اكتشـف القائدان حيلة الملـك معهما خلعا طاعة الملك وتحالفا مع قيصر الروم فجيشوا الجيوش وهاجموا فارس[1].

وتجـدر الإشـارة إلـى أنَّ هـذه القصـة وتفاصيلها لـم ترد في القرآن، إذ ليست هي الهدف من نزول السورة.

بين عالَمي الخلقة والأمر

هـذا المقطع من الآيـة: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ مهم للغايـة، والتدبّر فيه يفتح آفاقاً مثيـرة أمامنا ويبيّن حقائق جديدة. فمن وجهة النظـر الأدبية؛ وقع المضاف إليه في عبارة (من قبل ومن بعد) محذوفـاً. ولكن السـؤال هو: ما هو المحذوف فـي العبارة؟ مِن قبل

(١) وردت هذه القصة في كتب تاريخية عديدة، وأشير فيها إلى وقوع اضطرابات في السلطة الفارسية إذ ذاك، حتى كانت مقدمة لهجوم الروم الكاسح ضد إيران، انظر: روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن لأبي الفتوح الرازي، ج١٥، ص ٢٣٧ – ٢٤١، ذيل الآية المذكورة.

ماذا؟ ومِن بعد ماذا؟ قبل أيّ شيء؟ وبعد أيّ شيء؟

أشار البعض إلى أن المحذوف هو: الفتح، فقالوا الآية تعني: للّه الأمر من قبل الفتح ومن بعد الفتح.

وقال آخرون: المحذوف هو الغلبة، أي: من قبل غلبهم ومن بعد غلبهم، وهذه النظرة يؤيدها سياق الآية نفسه[(١)].

ولكن ثَمَ نظرية أفضل، وهي كالتالي:

إن نحن أمعنّا النظر، إستفدنا نكتة دقيقة وبحثاً عميقاً من قضية حذف المضاف إليه في الآية الشريفة. والحقيقة هي أنَّ المقصود من الآية ربما يكون التالي: من قبل إجراء السُنن، ومن بعد إجراء السُنن.

لتوضيح هذه النظرية نقول: لو نظرنا إلى عالَم الخلقة؛ وجدنا نوعين من النظام:

ألف: عالَم الخَلْق.

باء: عالَم الأمر.

إنّ الأمر الذي يصدره اللّه، ليس من نوع الأمر الخاص بعالَمنا، وهو فوق كل ذلك. فالأمر الذي نقصده من نوع الأمر الذي أصدره اللّه تعالى للنار؛ فقال: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[(٢)].

الأمر في هذه الآية من هذا النوع. فالروم انهزموا على يد الفرس، ثم انقلب الحال بعد بضع سنين فَغَلبوا الفرس. ولفهم أعمق للموضوع نضرب مثلاً:

---

(١) التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، ج٨، ص٢٢٩.
(٢) سورة الأنبياء، آية: ٦٩.

في الطائرات المدنية العملاقة التي قد تقل (٧٠٠) مسافر مع أثقالهم وتحلّق ضمن ارتفاعات شاهقة، يطلبون من المسافرين إغلاق هواتفهم النقالة طيلة السفر خشية تأثير ذبذبات هذا النوع من الهواتف على أجهزة الطائرة، رغم الحجم العملاق لهذه الطائرات، فما هي هذه الذبذبات؟ وبيد مَن؟ وماذا لو غيّر اللَّه تعالى وجهتها؟

وأضرب مثالاً آخر من تاريخ الإسلام: في معركة الأحزاب، اجتاز عمرو بن عبد ود العامري الخندق، فجاء لوحده ووقف أمام المسلمين وراح يطلق الأراجيز ويتحداهم طالباً المبارزة، وكان قبل ذلك قد عرّف نفسه لهم، ثم قال: أنا قادر على مواجهة ألف مقاتل ومبارزة ألفٍ منكم أيها المسلمون. حتى قيل إنه قبل ذلك قد واجه في وادي يليل الف مقاتل، وقد هزمهم جميعاً بعد أن اتخذ من جَمَلٍ درعاً.. وها هو يقف في قبالة أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي كان فتىً يافعاً، فراح يهتز ويرتجف رعباً؟ لماذا يا تُرى؟ وأيّة ذبذبة استولت على وجوده وتحكّمت بجسمه العملاق؟!

كان رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ ..»[1]. فكان اسمه أو حضوره يلقي بالرعب في قلوب أعدائه، فلا يستطيعون مقاومته. وكان جميع الأعداء يهابون المسلمين، كما كان أعداء أمير المؤمنين عليه السلام يهابونه، فقد قيل له: بأيّ شيء غلبتَ الأقران؟ فقال عليه السلام: «**مَا لَقِيتُ رَجُلًا إِلَّا أَعَانَنِي عَلَى نَفْسِه**»[2].

ما هذا الخوف؟ وأيّ سلاحٍ هو؟

يتولّد هذا الخوف في داخل الإنسان بفعل اللَّه تعالى. وعليه؛

(١) الكافي للكليني، ج١، ص١٢٠. والتبيان للطوسي، ج٣، ص١٧.
(٢) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، ص٥٣١، الحكمة: ٣١٨.

فإنه ليس كل شيء ينحصر في السلاح الظاهري المادي، وإنّما هناك أشياء أخرى يمكن أن تفعل خلافاً للظاهر.

وقد ورد في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْن إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَن»[1].

ترى ماذا يعني هذا؟

يعنـي أن قلـب المؤمن فاعل وناشـط بقدرة اللّـه تعالى، وهو سبحانه الذي يحفظه من الزيغ، إذ ينير له الدرب ويرشده إلى الهداية، فيحثه على الهدى ويمنعه عن الردى.. وهذا كما الذبذبات. ولا ريب أن جميع العلوم البشـريّة كالكيميـاء والفيزياء والجيولوجيا، إنما هي قطرة من بحرٍ لم تخضه البشرية حتى الآن!

مثـال آخـر: أطلـق الامريكيون فـي الثمانينات مكـوكاً فضائياً اسـموه: (تشـالنجر) أي: التحدي، وقد أعملوا فيـه كل الدقة، ولكنه انفجر أمام أعين المشـاهدين من حاضرين أو متابعين بواسطة التلفاز بعد أقلّ من دقيقة من انطلاقه ومات من فيه من روّاد الفضاء السـبعة. وحينما راجعوا حسـاباتهم جيداً لم يجدوا إلّا شـرخاً بسـيطاً فيه كان ينفـث بعـض الغـاز. ولكنـك حينما تسـأل خبيـراً في هـذا المجال، ستجده أمام واقعين؛ فهو قد لا يفهم شيئاً، أو يشير إلى أن ثمَّة حقائق علمية لم يعها بعدُ! ونحن لا نشـك أنَّ هناك سُـنن الهية هي وراء مثل هذه الامور التي لا يجد البشر لها تفسيراً في الظاهر.

الأمر الهام جداً هو أن إرادة الإنسـان بيد اللّه سبحانه وتعالى. وقـد روي عـن أميـر المؤمنين عليه السلام أنّ رجـلاً قام إليه فقـال: يا أمير

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، ص٤٠.

المؤمنين! بماذا عرفتَ ربك؟ فقال صلوات اللّه عليه: «**بِفَسْخِ الْعَزْمِ، ونَقْضِ الْهَمِّ، لَمَّا هَمَمْتُ فَحِيلَ بَيْنِي وبَيْنَ هَمِّي، وعَزَمْتُ فَخَالَفَ الْقَضَاءُ عَزْمِي، عَلِمْتُ أَنَّ الْمُدَبِّرَ غَيْرِي**»[1].

وفي هذا إشارة صريحة إلى أنَّ إرادة اللّه فوق إرادة البشر، وأنه ليس كل ما يشتهي الإنسان يتحقق له.

ويتساءل البعض: لماذا تحدث السيول في مناطق من الأرض، بينما الجفاف يزحف على مناطق أخرى؟

ويجيب البعض بأن السبب هو القمر أو الشمس أو غيرهما. ولكن الحقيقة هي أنّ القمر أو الشمس لا يقرّران ذلك، بل هي سُنن اللّه تعالى وأوامره الحاكمة على الحياة.

وبالنتيجة نعرف أن مفهوم الآية الشريفة: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ يقضي بأنَّ الدنيا لها نظام إلهي، وأن جميع الناس، بل وجميع الموجودات خاضعون لهذا النظام، ويسمّي القرآن المجيد هذا النظام (سُنّة).

﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

يفرحون بانتصار الروم (وهم أهل كتاب سماوي) لأنّ المؤمنين كانوا يأملون باهتداء النصارى واعتناق الاسلام والايمان بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي بشَّر به كتابهم السماوي.

(١) التوحيد للصدوق، ص٢٨٨، ح٦.

بصائر وسنن

١ - للَّـه الأمـر من قبـل هزيمة الـروم وبعد انتصارهـم، إذ كل شـيء بيده سـبحانه، فهو يأمر بمـا يريد، وينصر من يشـاء، ولا ينصر من يشاء.

٢ - إنّ الأمـر الذي يصـدره اللَّه، ليس من نـوع الأمر الخاص بعالَمنا، إنه فوق ذلك، هو من نوع الأمر الذي أصدره اللَّه تعالى للنار حين قال لها: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرۡدٗا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾.

٣ - إنَّ قلـب المؤمـن فاعـل ونشـط بقـدرة اللَّـه تعالـى، وهو سبحانه الذي يحفظه من الزيغ، إذ ينير له الدرب ويرشده إلى الهداية، فيحثه على الهدى ويمنعه عن الردى.

ينصر اللّـه من يشاء

﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾.

من الحديث

جاء في حديث عن الامام الباقر عليه السلام:

«وَالْقُرْآنُ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ نَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ **يَعْنِي إِلَيْهِ الْمَشِيَّةُ فِي الْقَوْلِ أَنْ يُؤَخِّرَ مَا قَدَّمَ وَ يُقَدِّمَ مَا أَخَّرَ إِلَى يَوْمٍ يَحْتِمُ الْقَضَاءَ بِنُزُولِ النَّصْرِ فِيهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ:** ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾»[1].

تفصيل القول

الآية السابقة انتهت بعبارة: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وهي تُفهم أكثر بتفسير الآية الخامسة. فالمسلمون قد فرحوا بانتصار

(١) تفسير القمي، ج٢، ص١٥٤.

الروم في ذلك اليوم، ولكن ما العلّة في فرح المسلمين لانتصار الروم؟

في هذه الآية تتّضح العلة. إنّ سبب فرحهم هو أن انتصار الروم كان من قِبل اللّـه تعالى، وهذا معتقد المؤمن في النصر والهزيمة، فهما من فعل اللّه سبحانه:

١ - ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ﴾

فلو كان جيشان متكافئين في العدّة والعدد والقيادة، فإنّ النصر الإلهي يكون هو الفيصل، والى هذه الحقيقة تشير الآية الكريمة: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾[1].

لك أن تلاحظ المثال التالي: إنك قد تشعر بالعطش، فتحدِّث نفسك وتطلب من اللَّه أنْ يوفِّر لك قدحاً من الماء. فماذا تقول لو أنَّ أحداً - كأن يكون ابناً لك - جاءك بقدح من ماء وقال: فكّرت في نفسي أنك تعاني العطش؛ ولهذا جئتك بقدح من الماء! لا ريب أنَّ هذا المثال لا يتحقق في الحالات العادية، ولو تحقق فهو يثير فيك الفرح. والسؤال هو: ما سبب فرحك في هذه الحالة؟ هل هو نيلك الماء؟ أم لأن اللَّه استجاب لرغبتك؟ وأن لك مقام قُربٍ من ربك؟ لا شك أنه الثاني. فحينما تشرب الماء تعلم أن دعاءَك قد أجيب.

شروط النصر الإلهي

إنّ القرآن الكريم حين يأمر الإنسان بالعبادة والطاعة، فإنّه

(١) سورة آل عمران، آية: ١٣.

يبشّـره مباشرة بالنتيجة، وللتعبير عن ذلك يستعمل تارةً كلمة (لعلّ)، مثل قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أو: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فما هو الوجه في استعمال هذا اللفظ؟

(لعـلَّ) مـن الحـروف المشـبَّهة بالفعـل، وتأتـي بمعنـى توقُّع وترجـي المحبوب. واللّه تعالى يريد أن يُعلم المسـتمع وقارئ القرآن بأنَّ للنصر الإلهي واسـتجابة الدعاء شروطهما، وأن من الممكن أن لا تتوفر تلكم الشروط في الإنسان، فلا يتوفر النصر، ولا يُجاب الدعاء.

وتجدر الإشـارة هنا الى أنَّ اللّه تعالى لم يسـتعمل لفظ (لعلّ) في الآيات المتعلقة بالجهاد في سبيله، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]. فعبـارة: ﴿تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تشـير إلى أن الجهاد في سـبيل اللّه ينجي من العذاب بلا أدنى شـك، وهذه الميـزة موجودة في آيات الجهاد فحسـب. أما في سائر المجالات فإنّ القرآن يستخدم كلمة (لعلَّ).

وفي هذه السـورة المباركة بيَّن اللّه تعالى أنَّ النصر مشـروط، وذلـك بعبـارة ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ﴾ أي أنَّ النصر معلّقٌ على مشـيئة اللّـه سـبحانه، وأنـه لا بـد مـن السـعي لتوفير شـروط هذه المشـيئة القدسـية، والشـروط هي: التقـوى، وإطاعـة القيادة، وتهيئة وسـائل الحرب وآلياتها. وحيث تتوفر الشروط جميعاً، نطلب إلى اللّه تعالى أن ينصرنا بنصره.

في هذا الإطار؛ هناك شواهد عديدة في تاريخ الإسلام وعصر رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) سورة الصف، آية: ١٠ و١١.

عندما تحالف جميع كفّار الجزيرة العربية ليهاجموا المسلمين ويقضوا عليهم في واقعة الاحزاب (الخندق)، وقد انضم المنافقون واليهود إلى المشركين في تحالفهم، انشغل النبي ﷺ بإعداد وسائل الحرب والدفاع، واستشار المسلمين فيما ينبغي فعله، فقال سلمان الفارسي رضوان اللَّه عليه: «يا رسول اللَّه إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا»، فعمل فيه رسول اللَّه ﷺ والمسلمون حتى أحكموه. فقد حفر المسلمون خندقاً حول المدينة في شهر رمضان اللّاذعة حرارته، حتى أن منهم من كان يُغشى عليه. وحين تمّ الحفر اتّخذ المسلمون مواقعهم خلفه[1]. وكما هو معروف فإنّ المسلمين أنتصروا في تلك المواجهة المصيرية بمشيئة اللَّه تعالى الذي ينصر من يشاء، ونصره لا ينزل على أحد بلا سبب، بل النصر الإلهي متعلق بنصر الإنسان لربه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾[2].

وفي الختام يقول سبحانه:

٢- ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

أي أنه هو مصدر القوة والعزّة، وهو الذي يهبهما لمن يشاء ضمن الشروط التي رسمها بحكمته ورحمته، ومن رحمته أنه سبحانه وتعالى ينجي المؤمنين المخلصين من أعدائهم.

(١) انظر: بحار الأنوار، ج٢٠، ص١٩٧-١٩٨. في هذه الحرب تمكن عمرو بن ود العامري اختراق حاجز الخندق وراح يتحدى المسلمين طالباً المبارزة، فتصدى له أمير المؤمنين عليه السلام، حتى قال رسول اللَّه ﷺ: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كله، إلهي إن شئت أن لا تعبد فلا تعبد» كنز الفوائد للكراجكي، ص١٣٧. ودعاء النبي ﷺ كان سبباً لهزيمة عمرو بن ودّ والمشركين عموماً .. وقد قال بعد ذلك: «ضربة علي يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين» مشارق أنوار اليقين للحافظ البرسي، ص٣١٢.

(٢) سورة محمد، آية: ٧.

بصائر وسنن

١- إنَّ فرح المؤمنين بانتصار الروم كان بسبب أن هذا الإنتصار كان من قِبَل اللَّه تعالى، ومعتقد المؤمن في النصر والهزيمة أنهما من فعل اللَّه سبحانه.

٢- إنَّ النصر معلَّق على مشيئة اللَّه تعالى، ولكن لا بد من السعي لتوفير شروط هذه المشيئة القدسية، وهي: التقوى، وإطاعة القيادة، وتهيئة وسايل الحرب وآلياتها.

لا يُخلف اللّه وعده

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾.

من الحديث

قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبةٍ له عن أركان الدين:

«... **أَفِيضُوا فِي ذِكْرِ اللَّه فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الذِّكْرِ، وَارْغَبُوا فِيمَا وَعَدَ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْد**»[1].

تفصيل القول

في الآية السابقة قطع اللّه تعالى الوعد بالنصر، وفي هذه الآية ورد تأكيد أكبر باعتباره صادراً عن اللّه سبحانه:

١ - ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾

ليطمئنّ الإنسان - المؤمن خاصة - أنّ اللّه لا يخلف وعده.

(١) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، خطبة ١١٠، ص١٦٣.

(الوعـد) لغةً يعني: العهد، واصطلاحاً يعني: التعهد والالتزام بانجاز عملٍ ما، سواء كان هذا العمل خيراً أم شراً، ويختصّ أحدهما ويتعيّن بواسطة القرينة.

ويُستعمل (الوعـد) فـي الخيـر والشـر، ولكـن (الوعيـد) و(الإيعاد) يستعملان في الشرّ فحسب[1].

والفـرق الآخر بين (الوعد) و(الوعيـد) هو أنَّ خُلف (الوعد) أمر قبيح، ومحالٌ أن يصدر عن اللَّه جلّ وعلا:

٢- ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾

بينمـا خُلـف الوعيـد ليـس أنه غيـر قبيح فحسـب، وإنمـا فيه وجـه كبير من الحُسْـن، ذلك لأنّـه تعبير عن الكـرم والعفو والصفح والشموخ.

والوعـد تفضّـلٌ من اللَّه المتعـال على عباده وليس إسـتحقاقاً منهـم عليه، لأنَّ المؤمن ومهما كمل إيمانه وزادت أعماله الصالحة، فإنـه عاجـز عن الشـكر علـى أصغـر النعم الإلهيـة ليسـتحق به ذلك الوعـد. ولكن الوعيد يأتي بسـبب إسـتحقاق العبـاد، واللَّه لا يعذب أحداً أكثر مما يستحق، وهو سبحانه قد يعفو ويصفح.

وقد وردت كلمة (الوعد) ومشـتقاتها في القرآن (١٥١) مرة، منها (٩١) مرة اسـتعملت في وعد اللَّه تعالى في مواقع مختلفة، مما يشير إلى أهمية الأمر.

مـع كل هذا التأكيـد إلّا أنّ اللَّه سـبحانه وتعالى غير راضٍ عن فريق من الناس الذين يشكّون بوعده، فيقول عنهم:

(١) لسان العرب لابن منظور، ج٣، ص٤٦٣.

٣- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

والسبب في هذا أنهم لا يعرفون اللَّه حق معرفته، ولا يعرفون شيئاً عن علم اللَّه وقدرته، فهم يجهلون إستحالة أن يخلف الربُّ وعده.

أقول: إنَّ التخلف عن إنجاز الوعد يكون بسبب الجهل بما يعد به المرء، فتراه يغير رأيه ويتراجع عن وعده، أو بسبب الضعف والعجز عن العمل بما وعد. ولكنَّ اللَّه جلّت قدرته عالم أصلاً بعواقب الأمور، وكذلك هو قادر على كلّ شيء ولا يخلف وعده أبداً.

إنّ التأمّل في أبعاد هذا الموضوع أمر هام للغاية، لأنّ منشأ التوكل على الخالق المتعال متوقّف على فهم هذه الحقيقة.

لقد وردت إشارة الى اسم من أسماء اللَّه الحسنى في هذه الآية المباركة، حيث يستشف من قوله سبحانه: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ أنه (صادق الوعد). فإذا قال بأنه سيفعل فعلاً ما، فلا ينبغي الشك في قدرته على ذلك، ولكن أين تكمن المشكلة إذن؟ إنها تكمن في أنَّ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. فغالب بني آدم لا يعون بأنّ اللَّه صادق الوعد؛ عالم بما يقول؛ قادر على إنجاز ما يعد، فهم جاهلون وغير واثقين به وبما يصدر عنه جلّ وعلا. ولهذا السبب تراهم يسلكون المسالك غير الشرعية لتحقيق رغباتهم وأهدافهم، حتى أنهم ليتوسّلون بكل الوسائل إلّا الوسيلة التي حدّدها اللَّه لهم، فينتهي بهم المطاف إلى السقوط في مهاوي الشرك والضلال.

سألتُ بعضهم قائلاً: لِمَ تصلّون؟ فقالوا: لأنَّ اللَّه أمر بها. فسألتهم: ولِمَ تصومون وتحجون؟ فقالوا: لأنهما من فرائض ربنا.

فقلت لهم معقّباً: هذا الربّ هو نفسه قد قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾(١). فقالوا: هذا يعني أنّك تقول بأنّ مآلنا النصر؟ فقلت: إنّه اليقين، وهذا قول اللّه تعالى وليس قولي أنا، فهو ذو قدرة لامتناهية، ورحمة واسعة، وحكمة فائقة، وهو القائل: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾(٢)، فلِمَ الهلع ما دمنا مؤمنين؟ فإذا كنّا على حدٍّ من اليقين؛ فإن اللّه تعالى يتلطّف بنا بحدِّ إيماننا ويقيننا. أمّا إذا قلنا بأنَّ اللّه قد يستجيب دعاءَنا وقد لا يستجيب؛ فهذا لعمري أمر غير مقبول، إذ ينبغي التحلي بالجدية التامّة لدى الدعاء وكأنّ الإجابة على الباب.

ولكن في بعض حالات إستجابة الدعاء، يتقدم الشيطان إلى قلب ابن آدم قائلاً: كان من الطبيعي أن يزول عنك المرض - مثلاً - أو أنّ الحاجة الفلانية قد انقضت بصورة تلقائية، فيغفل ابن آدم هذا عن أن كثيراً من الناس قد مات بهذا المرض نفسه، أوْ لم تنقضِ لأحد هذه الحاجة كما انقضت له. ولكن الشيطان يبقى لصيقاً بالانسان الشاك حتى يخرجه عن جادة الهدى والسلامة العقائدية.

إنَّ أحد أبرز أسماء اللّه الحسنى هو أنه (صادق الوعد) ومعناه أنه تعالى يعمل بوعده الذي يقطعه لعباده الصالحين على نفسه. وهنا موضوع هام جداً لا تنبغي الغفلة عنه، وهو: أنّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾(٣) وأنه ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ﴾(٤). فصحيح أنّ اللّه ينجز وعده، ولكنّه في الوقت نفسه فعّال لما يريد، وهو الذي له كل القدرة

(١) سورة محمد، آية: ٧.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٠.
(٣) سورة آل عمران، آية: ٤٠.
(٤) سورة الأنبياء، آية: ٢٣.

والحكمة والعلم والصفات العليا والأسماء الحسنى. فهو حقاً قد قال بأنه يثيب جنةً وأنه ينتصر لعباده، ولكنه إنْ لم يفعل ذلك فلن يحاسبه أحد، لأنه الفعّال لما يريد.

ولكن هذه الحقيقة لا يصح أن تدفعنا إلى سلب الثقة عنه - والعياذ باللَّه - أو عدم الاعتماد على وعده، فهو صادق الوعد حقاً، ويحقّق بالفعل ما كتبه على نفسه، فهو تعالى بعد أن قال في الآية السابقة: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ قال أيضاً في الآية التالية: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ للتأكيد على أنه ينجز ما يعد كما يشاء ولِمَنْ يشاء.

إنَّ هذا الوعد الإلهي أملٌ عريض وبُشرى للبشر؛ ليعلموا بأنّه على الرغم من كون الدنيا دار بلاءٍ وامتحان، إلّا أنها ليست داراً مستباحة ليفعل فيها المرء ما يشاء ثم ينجح في نهاية المطاف. فقد يسمح اللَّه تعالى لبعضهم وفي مدة محدودة أن يعصوا لأنهم أساؤوا الإختيار، ولكنه يأخذهم مرةً واحدة: ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1]، وفي لحظة واحدة يكشف لهم أن فرصتهم ومهلتهم قد انقضت.

بصائر وسنن

١ - الوعد تفضّلٌ من اللَّه المتعال على عباده وليس إستحقاقاً منهم عليه، لأنّ المؤمن ومهما كمل إيمانه وزادت أعماله الصالحة، فإنه عاجز عن الشكر على أصغر النعم الإلهية ليستحق به ذلك الوعد.

٢ - أكثر بني آدم لا يعون بأنّ اللَّه صادق الوعد، قادر على

(١) سورة القمر، آية: ٤٢.

إنجاز ما يعد، ولهذا السبب تراهم يسلكون المسالك غير الشرعية لتحقيق رغباتهم وأهدافهم، فينتهي بهم المطاف إلى السقوط في مهاوي الشرك والضلال.

٣- إنّ أحد أبرز أسماء اللَّه الحسنى هو أنه (صادق الوعد)، أي أنه تعالى يعمل بوعده الذي يقطعه لعباده الصالحين على نفسه.

غافلون عن الآخرة

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ۝٨﴾.

من الحديث

قال رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم في حديثٍ: «**يَا ابْنَ مَسْعُودٍ، مَا يَنْفَعُ مَنْ يَتَنَعَّمُ فِي الدُّنْيَا إِذَا أُخْلِدَ فِي النَّارِ:** ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ **يَبْنُونَ الدُّورَ، وَيُشَيِّدُونَ الْقُصُورَ، وَيُزَخْرِفُونَ الْمَسَاجِدَ، لَيْسَتْ هِمَّتُهُمْ إِلَّا الدُّنْيَا، عَاكِفُونَ عَلَيْهَا، مُعْتَمِدُونَ فِيهَا، آلِهَتُهُمْ بُطُونُهُم...**»[1].

وقال الامام الصادق عليه السلام: «**أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ إِدْمَانُ التَّفَكُّرِ فِي اللَّه وَفِي قُدْرَتِه**»[2].

(١) مكارم الأخلاق، ص٤٤٩.

(٢) الكافي، ج٢، ص٥٥، ح٣.

تفصيل القول

في الآية السادسة قال اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فلماذا أكثر الناس لا يعلمون؟

يبيّن اللّه الإجابة في الآية السابعة:

١ - ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾

فهم اكتفوا بظاهرٍ من الحياة فقط، فقنعوا بهذا الجزء من الحياة ولذّتها وزخرفها وغرورها وما تحويه من أسباب الغفلة. وهذا الواقع البشري المرير ليس بالأمر الخفيّ على أحد. ولو أنّهم اطّلعوا على عمق الحياة، لكفاهم ذلك لمعرفة الآخرة، ذلك لأنَّ الدقة - بالمقدار الكافي - بأمر الدنيا الزائلة تشير إلى أنها حلقة من سلسلة طويلة ومرحلة من مسار مديد، كما أنَّ الدقة في مرحلة جنينيّة ابن آدم، تؤكد أنها ليست هدفاً نهائياً من خلقته، وأنها مجرد مرحلة مقدمة لحياة أوسع وأشمل.

وتكرُّر ضمير (هم) في عبارة: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ يشير إلى أنَّ السبب في هذه الغفلة هو الإنسان ذاته.

إذن؛ فالآية الشريفة تصرّح بأنَّ مشكلة الناس الكبيرة هي الغفلة.

وهنا عدّة أسئلة يمكن أن تطرح في هذه الآية:

١ - لماذا مرض الغفلة؟

لماذا يُبتلى الإنسان بمرض الغفلة؟ وهل إنَّ الطيور أو القوارض أو الأسماك أو الأرض أو السماء أو الجبال تصاب

بالغفلة؟ تُرى هل الإنسان فقط معرّض لها؟!

يبدو أنّ غير الإنسان، يعمل ضمن إطار تكوينه، ولا معنى للغفلة فيما يرتبط بالموجودات الأخرى، وهي جميعاً منهمكة بالتسبيح والعبادة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]. وإن كانت لنا أُذن واعية لفقهنا تسبيح الجبل والوادي والشجر وحيتان البحار. وهناك مَنْ بلغ درجة رفيعة من المعرفة والقُرب الإلهي تؤهله ليسمع تسبيح الموجودات، فلماذا أكثر الناس غافلون؟!

لأنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

إننا نعيش مشاكل هذه الدنيا وصعوباتها، وخلال ذلك نغفل من الهدف الأصلي والكبير، أعني الآخرة:

٢- ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾

مضافاً إلى الجهل بها: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعلمون إلّا ظاهراً من الدنيا. لماذا؟!

لاحظوا التوضيح الذي نتلوه في الآية التالية، لا سيما وأنَّ القرآن الكريم متسلسل البصائر، بمعنى أن كلّ آية تفسّر ما قبلها وما بعدها. يقول في الآية الثامنة:

٣- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

فلماذا لا يتفكّرون في أنفسهم؟ أي: لماذا لا يعتمدون

(١) سورة التغابن، آية: ١.

تفكيرهم؟ ولماذا لا يتجرّدون بتفكيرهم عن العوامل الجانبيّة؟

فاللَّه تعالى لم يخلق السماوات والأرض عبثاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾[1] و﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾[2].

ولكن الكثير من الناس لا يتفكرون ولا يتدبرون في خلق السماوات والارض، وذلك بسبب الجهل والغفلة والكفر.

قال سبحانه في الآية السادسة: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال في الآية السابعة: ﴿غَافِلُونَ﴾ وقال في الآية الثامنة: ﴿لَكَافِرُونَ﴾، فالمشاكل ثلاث: الجهل والغفلة والكفر.

يبدو أنّ البشر في أزمة ذهنية، فهم جاهلون وغافلون وكافرون. بالطبع ليس جميع الناس، بل تقول الآية: (أكثر الناس) أو (إن كثيراً من الناس). ولو لم يمعن المرء نظره، فإنَّ من المحتمل أن يسقط في هذه الورطة.

ويبدو أنّ اللَّه تعالى حين قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإنّه يعني أنّ الدنيا عبارة عن جسر ينتهي بالآخرة، ولكن هل يعني أنّنا نعيش على مجرد جسر؟

فلو أنك رأيت طريقاً عريضاً منظماً ومخططاً، فهل ترغب في السير فيه إذا لم تعلم نقطة نهايته؟ أولست تسأل أولاً عن النقطة التي ينتهي إليها الطريق؟

فإذا علمتَ أنّ هذه الدنيا عدّة من الأيّام وأنَّ الآخرة نقطة

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩١

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٧.

نهايتها، فإنَّ موقفك منها وتعاملك فيها ومعها سيتغيران لا محالة. أمّا من لا يؤمن بالآخرة، فهل يمكن وصفه بأنه يعلم شيئاً مهماً من الدنيا؟!

إنهم يعلمون أنّ النار تحرق، وأنّ الماء سائل، وأن الثلج جامد، وأنّ الشتاء بارد، وأنّ الصيف حار.. ولكن ليست هذه هي المشكلة، بل المشكلة الكبرى هي أنهم لا يعلمون إلى أين يتّجهون وإلى أين ينتهون؟

على الإنسان أن يفكر في عاقبة كلّ فعل يريد القيام به، والدنيا مجرد مقدمة وبداية، بينما الآخرة نقطة الهدف، ومن كان جاهلاً بنقطة الهدف، فلا ريب في أنّ علمه بظاهر الطريق لا ينفعه.

إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة يجهلون الهدف من الحياة، ولكنهم يعرفون كيف يعيشون فقط، ويجهلون لماذا يعيشون؟ ولماذا يجب أن يبقوا أحياء؟

٢- لماذا نحن غافلون؟

الآن؛ تنبغي الإجابة عن السؤال القائل: لماذا نتعرَّض نحن المسلمين للغفلة إذن؟ فنحن الذين نأخذ الحقائق عن اللَّه والقرآن والرسول وأهل البيت عليهم السلام، لماذا نصاب بداء الغفلة عن ظواهر الأمور وبواطنها؟ ففيما يتعلق بالأمور الظاهرية نجد الحيوانات تعرفها بينما نحن غافلون عنها! فالكثير من الحيوانات تعرف بالزلزلة قبل وقوعها فيما العلماء المختصّون لم يبلغوا هذا الحدّ من المعرفة بعد، لمَ نحن غافلون مع كوننا قد خُلقنا في هذه الدنيا للامتحان؟!

لقد خلق اللَّه سبحانه وتعالى الجنّة وملأها بأنواع النعيم؛ ثم إنّه

خلق جهنّم وأفرغها من كلّ رحمة، فجعل الجنة للصالحين وجهنم للسيّئين، ثم أخذ مقداراً من الجنّة ومقداراً من جهنّم وخلطهما؛ فصارت الدنيا، فهي ليست جنة بالكامل، ولا جحيماً بالمرّة.

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**لَوْ عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ الْخَلْقِ لَمَا اخْتَلَفَ اثْنَانِ. فَقَالَ: إِنَّ اللَّه تَبَارَكَ وتَعَالَى قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ قَالَ: كُنْ مَاءً عَذْباً أَخْلُقْ مِنْكَ جَنَّتِي وأَهْلَ طَاعَتِي، وقَالَ: كُنْ مَاءً مِلْحاً أُجَاجاً أَخْلُقْ مِنْكَ نَارِي وأَهْلَ مَعْصِيَتِي، ثُمَّ أَمَرَهُمَا فَامْتَزَجَا، فَمِنْ ذَلِكَ صَارَ يَلِدُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ ويَلِدُ الْكَافِرُ مُؤْمِنا**»(١).

إنّ الدنيا شيء من الجنّة وشيء من الجحيم، وهنا تتلخص كلّ الحكمة من وجود الدنيا، فهي مزيج من الإثنين، وهذا الحال مردّه ليكون للإنسان هدف ينمو ويتطوّر له ثمّ يصبح من أهل الجنّة، بعد أن يتغلب فيه بُعد النور والعبادة على بُعد الظلمة والمعصية، ويرجِّح الرؤية الإلهية على الوسوسة الشيطانية.

ترى لِمَ علينا المرور عبر الدنيا الممزوجة بميزاتٍ من الجنة وميزاتٍ من النار؟

الجواب واضح. لاحظوا المثال أدناه: إنْ أردتم خوض اختبار ثم تقدّمتم إلى الجهة المسؤولة بطلب الأسئلة قبل وقت الاختبار فإنهم لا شك سيرفضون طلبكم وسيقولون لكم: لو أننا وافقنا على طلبكم؛ ما عاد الإختبار اختباراً، إنّما الاختبار حيث يجهل المرء المختبَر طبيعة الأسئلة!

إن أمور الدنيا تأتي بالغفلة، ولكن تجاوز الغفلة وطردها عن

---

(١) المحاسن، ج١، ص٢٨٢.

الذهن والقلب من أوجب الواجبات، وعليه؛ فإنّ منشأ غفلتنا هو من ماهية الحياة الدنيويّة، ولكنّ هذا لا يعني الاستسلام لها، وإنّما المهم هو أن نتبصّر مواقع أقدامنا وأن نبذل كلّ الجهد في صراعنا حتى الوصول إلى الهدف المنشود.

مثال آخر: روي أنه لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1]، صاح رسول اللَّه ﷺ على أبي قبيس: «**يَا آلَ عَبْدَ مَنَافٍ إِنِّي نَذِير**».

فجاءته قريش، فحذَّرهم وأنذرهم.

فقالوا: تزعم أنك نبيٌّ يوحى إليك، وأنَّ سليمان عليه السلام سُخِّرت له الريح والجبال، وأنَّ موسى عليه السلام سُخِّر له البحر، وأنَّ عيسى عليه السلام كان يُحيي الموتى، فادع اللَّه أن يسيِّر عنا هذه الجبال ويفجِّر لنا الأرض أنهاراً فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلّا فادع اللَّه أن يحيي لنا الموتى فنكلّمهم ويكلّمونا، وإلّا فادع اللَّه أن يجعل هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم.

يقول الراوي: فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلما سرى عنه الوحي قال: «**وَالذِيْ نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ مَا سَأَلْتُمْ، وَلَوْ شِئْتُ لَكَانَ، وَلَكِنَّهُ خَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ تَدْخُلُوا بَابَ الرَّحْمَةِ فَيُؤْمِن مُؤْمِنُكُمْ، وَبَيْنَ أَنْ يَكِلَكُمْ إِلَى مَا اخْتَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَتَضِلُّوا عَنْ بَابِ الرَّحْمَةِ وَلَا يُؤْمِنُ مُؤْمِنُكُمْ، فَاخْتَرْتُ بَابَ الرَّحْمَةِ وَيُؤْمِن مُؤْمِنُكُمْ، وَأَخْبَرَنِي إِنْ أَعْطَاكُمْ ذَلِكَ ثُمَّ كَفَرْتُمْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً لَا يُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ**»[2].

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٢١٤.

(٢) الدر المنثور، ج٤، ص٦٢-٦٣، عند تفسير الآية (٣١) من سورة الرعد.

تـرى ما موقف النبـيّ ﷺ تجاه هذه اللجاجة إلّا أن يستشـعر الخطـر الكبيـر؛ فيطلب من ربّه المتعـال أن يهديهم: «**اللَّهُـمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**»[1]. فإنّه بعد نزول كلّ آية مبصِرة، وعند كفر الإنسـان بها؛ ينزل العذاب الحقّ، لأنَّ مهلة الامتحان قد انتهت. إنّ طريق الإنسان محفوف بالمشـاكل والعقبات لكي يُمتحـن ويُختَبر ولكي يُعرف ما إذا كان غافلاً أم بصيراً. فعلينا أن نتحلى بإرادة جادّة في الحياة.

وروي أنَّ عمـرو بن الجموح كان رجـلاً أعرج، وفي يوم أُحد أراد الخـروج الـى الجهـاد فمنعـه قومه فأبى وجـاء إلى رسـول اللَّه ﷺ فقال: يا رسـول اللَّه إن قومي يريدون أن يحبسوني هذا الوجه والخـروج معـك، واللَّه إني لأرجـو أن أطأ بعرجتي هـذه في الجنة. فقال له: «**أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ عَذَرَكَ اللهُ وَلَا جِهَادَ عَلَيْكَ**». فأبى، فقال النبي ﷺ لقومه وبنيه: «**لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَمْنَعُوُه، لَعَلَّ اللهُ يَرْزُقهُ الشَّهَادَةَ**». فخلوا عنه، فقُتِل يومئذ شهيداً[2].

وروي أيضـاً أنّ ابـن أمّ مكتـوم كان يشـترك فـي الحـرب ضدّ المشـركين حاملاً راية للمسلمين مع كونه ضريراً لئلّا يُحرم من بركة الجهاد، وكان يقول: دعوني أحمل الراية فإنّي لا أفرّ[3]!

وعلـى هذا؛ ينبغي أن نقـرّر ونجهد ولا نَكِلْ عمـل اليوم لغد. علينـا أن نريـد حتّـى نكون مـن أهل الجنّـة. وأن نعزم ونجـدّ وندعو بالقـول: «**اللَّهُـمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نِيَّتِي**» «**وَاشْـدُدْ عَلَـى الْعَزِيمَةِ جَوَانِحِي**» لنكون من الفائزين.

---

(1) بحار الأنوار، ج11، ص298.
(2) بحار الأنوار، ج20، ص130.
(3) الدرّ المنثور للسيوطي، ج2، ص204، ذيل الآية (95) من سورة النساء.

أما التخاذل والتكاسل والتجاهل؛ فذاك مسلك الغافلين:

﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

٣- ما هو طريق الخلاص من الغفلة؟

يلزم أن نخرق ظاهر الحياة الدنيا لنصل إلى الباطن والحقيقة. إننا نفهم الظاهر إلى حدٍّ مّا ولكن ماذا عن الباطن؟

ليس أمامنا إلا التفكّر والتدبّر في الأنفس وفي خلق اللّٰه تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾

يكشف اللّٰه تعالى لنا بأنَّ باطن الدنيا أمران: الحق، والأجل.

وللحقّ معانٍ عدّة:

أحدها: الإيمان بالحقائق، أي: التجرّد عن الظنون الباطلة.

فقد ذهب جماعة إلى أنّ كلّ شيء في ما حولنا عبارة عن خيال وتصور واهٍ، فقالوا بأن الشمس خيال كما هي الأرض والسماء، وأن اللّٰه - والعياذ به - مجرد كذبة كبيرة.

وقال آخرون بأنّ كل شيء هو اللّٰه، وكأنه عين ماء جارية، واللّٰه الذي هو في الأعالي، هو تلك العين الفياضة.

ولكنّ الحقّ ليس هذا ولا ذاك. فاللّٰه تعالى قد خلقنا، ولم يخلق الأشياء من شيء، يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديثٍ: «**لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ وَلَا مِنْ شَيْءٍ خَلَقَ مَا كَان**»[1]، وقد أعطى القدرة لما خلق، والفرق بين أنّ الشيء موجود، وأنَّ وجوده ليس من ذاته، هو

(١) الكافي، ج١، ص١٣٤، ح١.

أنّه قيّوم بغيره قائم باللَّه.

وإن قلتـم بالنفـي، قلنا: انظروا إلى ذواتكم وليسـأل كل منكم نفسـه: أنا موجود أم لا؟ أنا أفكر؛ إذن فأنـا موجود. إننا نؤمن بوجود أنفسنا، ونؤمن أيضاً أنّ وجودنا ليس من أنفسنا، لماذا؟

لأنـه لو كان وجودي من نفسـي؛ لما خلقتهـا صغيرة محدودة، ولخلقتها ضخمة عملاقة، ولما خلقتها ضعيفة. أريد أشياء كثيرة ولكن أكثرهـا لا يتحقّق، فهذا خارج عـن نطاق قدرتي. أحد الأمور التي تعدّ الدقّـة فيها أمـراً مهماً جداً ويفتح آفاقاً رحبة، ما جاء في سـورة لقمان: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1]، فلو كنتَ مالك نفسك؛ فلِمَ لا تعلم عن نفسك ومصيرها شيئاً؟

طبعـاً هناك من يحظى بمقام القرب من اللَّه تعالى، ولذلك قد يعرف أشـياء وأمـوراً عدّة، ولكـنّ غالب الناس لا يعلمون شـيئاً عن غدهم وأنهم متى يموتون. ولو ادّعى أحدهم بأنّه خالق نفسه، فيمكن أن يُسأل: فلِمَ خلقتَ نفسكَ على ما هي عليه؟

اللَّه القيوم الخبير ينبئنا بأننا لسنا مالكي أو خالقي أنفسنا، وأننا لا نسـتطيع فعل كلّ ما نرغب فيه. هكذا كان فرعون الطاغية، وهكذا هو شأن كل جبابرة الدنيا.

إنّك تأمـره بالإقـرار باللَّه؛ فيجيبك قائلاً مسـتنكراً مسـتهزءًا: ومـن هو اللَّه؟! وهو يجهل من يكون هو. ولعل إحدى حكم تعرّض الإنسان للابتلاء والمصائب هي أن تُنتزع منه آفة الغرور.

وعليـه؛ فنحن موجودون إلّا أنَّ وجودنا ليس من عند أنفسـنا،

(١) سورة لقمان، آية: ٣٤.

وليس الإنسان فقط؛ بل كلّ المخلوقات هذا شأنها، وهكذا هو الحق.

إنَّ اللَّه تعالى خلق كل شيء بناءً على قوانين وسنن ثابتة، ولا تأثير لكلّ الادّعاءات الباطلة. مثال ذلك: قد وضع اللَّه تعالى قانون الجاذبية، ولكنك قد تعترض على هذا القانون وتقول: لا وجود لقانون الجاذبية، فماذا يحصل لك؟ هناك من يعاقر أقراص الهذيان والهلوسة، فيتخيل نفسه طائراً، ولكنه سرعان ما يسقط إلى الأرض على أم رأسه! إنك عاجز عن تجاهل قانون الجاذبية.

والنوم والموت من جملة القوانين الحاكمة في الدنيا. قال أحدهم: لا أريد أن أموت. فقيل له: لك ذلك إنْ كنتَ قادراً على تجاوز حاجتك للنوم.

وهذه القوانين الحاكمة على الدنيا سنن إلهيّة إلّا ما كان من أمر اللَّه تعالى، وهي سنن جارية في خلقه، وهي الحقّ، ويلزمنا أن نتحرك في نطاقها. وماذا يحدث إن عارضناها؟ يحدث أن تبقى الدنيا تسير وفق المرسوم والمخطّط لها، بينما نحن عاجزون عن فعل أيّ شيء.

إنّ السنن الإلهيّة قسمان: بعض السنن ظاهرة وواضحة، كما لو أنك لمست سلك الكهرباء فتُصعق من فورك، أو إن شربت ماءً ملوّثاً فتمرض.

وبعض السنن خفيّة، وهي حقٌّ أيضاً، والقرآن المجيد أكثر ما ذكر هذا القسم من السنن، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[1]، فاللَّه تبارك وتعالى أرحم الراحمين ولا يسلب النعمة

(١) سورة الرعد، آية: ١١.

أحـداً، ولكن ابن آدم يسـيء التصرف فتُسـلب منـه النعم: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

كان النبي الأكرم ﷺ - كما في بعض الروايات[2] - يستيقظ في اللّيل من نومه فينظر في السماء ويقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾[3].

فهو ﷺ قد علم أنّ النجوم لم تخلق نفسـها، فتسامى بذلك وعـرف أنّ لخلقة الكون هدفـاً كما وضعه خالقه المتعـال، وإذا كان هذا الهدف غير قابل للتحقّق في الدنيا بصورة تامة، إذ في الدنيا ظالم ومظلـوم وفقيـر وغنيّ، فالدنيا - إذن - ليسـت هدفـاً، وإنّما ثَمّ آخرة فـي نهاية المطـاف، وواضح أنّ فـي الآخرة جنّة وجحيم، وسـرعان مـا توصَّلَ صلوات اللّـه عليه وآله إلى النتيجـة فقال: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ والظالـم يعجز عن النجاة في يوم القيامة، ويعجز أحدٌ عن أن ينصره من دون اللّه تعالى.

إنّ مـن يفقه كلّ هذا؛ يبتعد عن حالات اللهو واللعب؛ كما أنه سيدرك بأنّ اللّه تعالى لم يخلقه للعبث واللّغو.

إذن، فـإنّ إحدى طرق الخروج عن الغفلة؛ هي التفكّر والتدبّر بافتقار العالم إلى الخالق، ووعي ما وراء الظواهر الكونية والحياتية، وإدراك هدف الخلقة:

﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ

(1) سورة الشعراء، آية: ٢٢٧.
(2) سنن النسائي، ج٣، ص٢١٣.
(3) سورة آل عمران، آية: ١٩١ و١٩٢.

مُّسَمًّىۚ﴾.

إنَّ ما يُستشف من مجمل الآيات القرآنية بعد التدبّر فيها هو أن اللبنة الأولى للخلقة تعتمد أمرين: الحقّ أوّلاً، والأجل المسمّى (أي: الزمان) ثانياً.

عن الحق والأجل المسمّى

ففي آيات الذكر تأكيد واضح على أنّ اللَّه جل وعلا لم يخلق السماوات والأرض بالباطل، وأنه لم يخلقها لاعباً، إذ فعله سبحانه ليس لهواً وعبثاً، بل خلقهما بالحق.

فما هو الحقّ؟ وما هو الأجل المسمّى؟

ورد في الآية الشريفة قوله تعالى: (بالحقّ) فما المراد بحرف الباء هنا؟ فهل أريد به المعيّة؟! أم هو باء الاستعانة؟

ذُكِر في قوله سبحانه: (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) أنّ الباء هنا للاستعانة، أي: نستعين بسم اللَّه، ولهذا قيل إنّ حرف الباء من أدقّ الحروف وأشملها في المعاني.

روى ابن عبّاس عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه شَرَحَ لَهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ حِينَ أَقْبَلَ ظَلَامُهَا حَتَّى أَسْفَرَ صَبَاحُهَا فِي شَرْحِ الْبَاءِ مِنْ «بِسْمِ اللَّه» وَلَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَى السِّينِ، وَقَالَ: «**لَوْ شِئْتُ لَأَوْقَرْتُ أَرْبَعِينَ بَعِيراً مِنْ شَرْحِ بِسْمِ اللَّه**»(١).

أقول: حيث قدّم القرآن هنا حرف الباء على كلمة (الحقّ) فلعلّ تفسير هذه الباء مثل الباء في البسملة الشريفة من حيث التفسير

(١) بحار الأنوار للمجلسي، ج٤٠، ص١٨٦.

والتفصيل والمغزى.

وعلى أيّة حال؛ فإنَّ درك أنّ الخليقة كلها خُلقت (بالحق) وأنّ لها (أجل مسمّى) أمر غاية في الأهمّيّة، وقد فصّل اللَّه تعالى القول في آيات متعدّدة بخصوص هذه المسألة الخطيرة. ففي سورة (ص) نفى سبحانه الباطل عن عملية الخلقة، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾. وأثبت الحقّانيّة في آيات كثيرة لجوهر الخلقة أيضاً، مثل قوله العزيز: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾[1].

بالحق

إنّ الحقّ يعني وجود حقيقة وشيء، والسماء والأرض لهما وجود حقاً، وبعبارة أخرى: إنّ إثبات الحقّ يعني نفي الباطل، والباطل عبث، والعبث يعني اللّاهدف. ولم نرَ في هذه الدنيا شيئاً موجوداً عبثاً بلا هدف وحكمة، وإنَّ نظرة - ولو بسيطة - إلى السماء تشير إلى قيامها بالحق: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾[2]، فاللَّه عزّ وجلّ لم يخلق شيئاً بلا سبب حكيم، وهو قد وضع كلّ شيءٍ في مكانه المناسب، وإنّ لكلّ نجم - مثلاً - موضعه المحدّد ودوره ومساره المرسوم: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[3]، حتى أنّه لو أزيح نجم عن موضعه لتعطّل نظام الفضاء.

ولكي يكون الشيء هادفاً، لا بدّ له من سُنّة ونظام. نعم إنّ النظام لموجود، وهو دقيق أيضاً، بل إنّ سقوط مجرّد ورقة من شجرة

(١) سورة ابراهيم، آية: ١٩.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٩١.
(٣) سورة الواقعة، آية: ٧٥ و٧٦.

في أبعد نقطة من الأرض يكون وفق نظام وسُنّة إلهية:

﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[1] أي: أنّ الوجود محكوم وخاضع بشكل مطلق وأبدي لسُنة اللَّه التي لا تبديل أو تحويل فيها.

وأجل مسمى

وفي آيات عديدة وردت عبارة: (وأجل مسمّى) فما هو هذا الأجل المسمّى؟

الأجل المسمّى يعني أن الشيء موجود ولكنه غير مستقلّ بذاته وليس قائماً بنفسه، ومعنى إتّصاف غير اللَّه تعالى بالأجل، أنّ كلّ الأشياء موجودة بغيرها، فلو لم يصل الرزق الإلهي، ولو لم يصل المدد الربّاني، لانعدم الوجود برمّته، لو توقّفت الذرّة عن الحركة لانعدمت، ولكنّ الحركة بحاجة إلى طاقة، فمن ذا الذي يهب الذرّة طاقتها؟: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾[2] أي: أنّ اللَّه تعالى مستمرٌ في رزق الموجودات لحظةً بلحظة .. ولهذا؛ فهو يهبُ الوجود لمخلوقاته لحظةً بلحظة. إذن؛ فـ(الأجل المسمّى) يعني أنّ هذا الوجود قرين بالإيجاد المستمر، وأنّ له نقطة نهاية كما كانت له نقطة بداية.

لفهم طبيعة بناء نظام الوجود على (الحقّ) ولدرك حقيقة (الأجل المسمّى) ينبغي النظر والتفكّر فيما وراء كواليس هذه الدنيا وفي جوهرها وفي محصّلتها النهائية.

(١) سورة فاطر، آية: ٤٣.
(٢) سورة الذاريات، آية: ٥٨.

وقد عرض اللّه سبحانه جهتين للنظر والتفكر:

١ - التفكّر في هدفية الدنيا، فهل الدنيا خُلقت لغير هدف؟ فهل الخلق ألعوبة وعبث أم أنه لهدف وغاية؟

٢ - التفكّر في طوايا النفس، يقول القرآن المجيد: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾ وقد عدّ غالب المفسرين عبارة: (الأنفس) نموذجاً لعالم الوجود، أي: لمَ لا يجعلون من النفس محوراً للتفكّر والتأمّل والاستنتاج؟ ولمَ لا يفكّر الإنسان المخلوق في طوايا نفسه؟ فهو عصارة هذا العالم. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

وَتَزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ
وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ[1]

إذن؛ فالإنسان لا يعوزه شيء، وإن كلّ العالم قد اختصر فيه، وهو نموذج هذا العالَم من كلّ الحيثيّات. وحين يفكّر المرء في نفسه وماذا كان، ومن هو، ومن أين جاء، وإلى أين يذهب؟ سيصل إلى حقائق جمّة. وهذه طريقة تفكر فاعلة حقاً.

حقّانيّة الخلقة والعلاقة بالأجل المسمّى

إذن، يدعونا القرآن المجيد لأنْ نتفكّر ونتعقّل، وألّا نُخضع هذا التفكّر والتعقّل لتأثير الآخرين، وإنّما يلزم الإنسان أن يكون مستقلاًّ في التفكّر، وقد جعل اللّه تعالى محور التفكّر شيئين: (بالحقّ) و(أجل مسمّى) فالسماوات والأرض وما بينهما كانت خلقتها بالحق ولها أجل مرسوم مسمّى:

(١) الوافي للفيض الكاشاني، ج٢، ص٣١٩.

٤ - ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

هكذا يشير اللَّه إلى (الحقّ) و(الأجل)، ولكن ما هي العلاقة بين الحقّ والأجل؟ ولماذا خلق اللَّه سبحانه العالَم على هذين المحورين؟

(الأجل المسمّى) معطوف على (الحق) أي: بالحقِّ وبأجلٍ مسمّى. فماذا يعني (بالحق)؟ وما هو مفهوم (الباء) هنا؟ وماذا يعني عطف (الأجل المسمّى) على (الباء)؟

أي شخص وفي أي عمل يقوم به له هدف، وهذا الهدف - في الحقيقة - يجذبه إلى هذا العمل، فالهدف هو العلّة الغائية كما يقال، وهي آخر مرحلة من العمل، ولكنها المرحلة الأولى نظرياً. بمعنى أنّ الشخص يرسم الهدف في ذهنه أوّلاً ثم يتحرّك حتى يصل إليه.

إذن؛ فإنّ (بالحقّ) تعني: لبلوغ غاية معيّنة، وهي حق وليست باطلاً. فاللَّه خلق البشر لينعم برحمته، والنتيجة من التمتع بالرحمة التكامل، وهو الهدف الأصلي والأساسي من الخلقة.

لماذا: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وبأجلٍ مسمّىً؟ قال البعض: الباء المضمرة هنا بمعنى اللّام، أي: لمدّة معيّنة ومحدودة.

نحن لا نستطيع تجاوز المعنى الظاهر بعجل الى المعنى غير الظاهر. ينبغي القول: بأجل مسمّىً يعني: بتاريخ مسمّىً مكتوب ومبيّن ومقدّر. فهو تاريخ معلوم خلق اللَّه الخلق لبلوغه والوصول إليه. فالأجل والهدف مرتبطان معاً، فإذا كان للخلقة هدف؛ فلا بد من بلوغه، وحين بلوغه يتم أجل الخلقة.

ومن قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ

﴿فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾[1] نستلهم أنّ البشر يأتون إلى الدنيا ليُمتحنوا، وحين يجتاز الناس مرحلة امتحانهم ويتبيّن أنهم من أهل الجنّة أم من أهل النار، هنالك تتحقق غاية خلقتهم وتبلغ هدفها، فالدنيا فرصة للتذكرة، وكل شخص يعمّر بقدر التذكّر (حسب ظروفه وبنية شخصيته) فاذا انتهت الفرصة فإنّ الحكمة الرئيسية من بقائه تنتهي.

فإذن، الهدف من خلقة ابن آدم هو الابتلاء والامتحان، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[2] ليميز الخير من الشر والصحيح من الخطأ، وليتبيّن كم له من الاستقامة والصبر.

فالهدف من خلقة الإنسان في هذه الدنيا هو الامتحان. ولنفترض أنه خاض الامتحان، وحينها يقال له: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[3].

إنّ تفاوت الأعمار بين الناس على هذا الأساس. فأحدهم يعيش سبعين سنة، وآخر يعمّر خمسين سنة، وهكذا لكي يخوض الامتحان وينتهي الأمر، خيراً كان أو شرّاً.

وعليه؛ فثّمَّ ارتباط بين (بالحقّ) و(أجل مسمّى) فـ(بالحقّ) يعني أنّ له هدفاً يجب أن يحقّقه، و(أجل مسمّى) يعني أن لبلوغ كلّ هدف تاريخاً محدّداً، فاذا انقضى الأجل انتهى كلّ شيء.

(1) سورة فاطر، آية: 37.
(2) سورة الإنسان، آية: 2.
(3) سورة فاطر، آية: 37.

عقبات الوصول الى الحقيقة

في خواتيم الآيات الثلاث (٦ – ٨) إشارة إلى العقبات التي يواجهها الإنسان في بحثه عن الحقيقة:

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾[1].

يُستفاد من خواتيم هذه الآيات الثلاث أنّ للإنسان – في بلوغه الحقيقة –ثلاث عقبات:

١ – الجهل: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٢ – الغفلة: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

٣ – الكفر: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

نلاحظ في التعبير القرآني هنا نوعاً من (البديع). فاللّه يقول أولاً: ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ثمّ يقول: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ويختتم قائلاً: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾.

لقد نسب الجهل لأكثر الناس، والغفلة نسبها لجميع الناس مع التأكيد المكرر بلفظ (هم) ونسب الكفر إلى كثير من الناس.

من هذه التعابير يفهم أنّ كميّة الجماعات المتّصفة بالصفات المذكورة متفاوتة وأنّ لهم ثلاث درجات:

---

(١) سورة الروم، آية: ٦–٨.

١ – الغفلـة: فكل الناس أو أغلبهم الغالبة مبتلون بالغفلة، فهم غافلون عن الآخرة.

٢– الجهل: يتصف أكثر الناس به.

٣– الكفـر: والجماعـة الكافـرة أصغر مـع أنها كثيـرة، ولكن ليـس الجميع، إذ ليس الجميع أو الأكثر كافرين. بل الأكثر جاهلون، والكل – تقريباً – غافلون.

فكيف تتم معالجة هذه العقبات؟

١ – علاج الجهل والخلاص منه

إنَّ مشـكلة الجهل واضحة، وطبيعة البشـر هـي الجهل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[١]. هكذا سـمّى اللَّه الإنسان. والجهول على وزن (فعول) يراد منه المبالغة، أي: جاهل جداً، ودائرة جهله واسعة للغاية.

وطريـق العلـم واضح أيضـاً، وهو تفعيـل وتنشـيط الجوارح والجوانح التي وهبها اللَّه تعالى لنا[٢].

٢– وكيف نعالج الغفلة؟

لنفترض أنّ أحدهم تناول أقراصاً منوّمة كثيرة، فقد يموت هذا الشخص، ولكن إن لم يمت، فلا بد من إيقاضه، وأما إن تركناه نائماً، فقـد يتعرّض للموت.. وهكذا يوصي الطبيب أن لا ندعه نائماً.. فإذا أيقضناه، فإنه قد لا يعود إلى رشـده بسـرعة، لذلك علينا أن نعمل ما

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٧٢.

(٢) يقال للعين والأعضاء الظاهرية: جارحة وجوارح، كما يقال لعين القلب والقوى الداخلية: جانحة وجوانح. ويمكن التخلص من الجهل بعين مفتوحة، وأذن واعية، وقلب بصير، وبصيرة نافذة.

بوسعنا لإزالة حالة النوم العميقة عنه.

وهـذه حالنا، فقد تناولنا أقراصاً شـيطانية كثيرة فأنامنا بها، من قبيـل أقراص الغفلة والشـهوة والأنانية وغيرها، وهـي منوِّمات قويّة ومؤّثرة إلى حدٍّ بعيد، حتى لترانا نائمين وإن كنّا حاضرين في مجلس قرآنـيٍّ أو صـلاة او غيرها، ممّا يعني أنّ الصـراع بين ابن آدم من جهة وبين الشـيطان والغفلة صراع شـديد، الأمر الذي يوجب عدم الغفلة عنـه، فهي آفـة حقيقيّة.. ولعـلّ ملك الموت يفاجئنـا ونحن في حالة الغفلـة، وهـذا لعمري أمر مرير ومـزرٍ للغاية.. إذ نعجـز حينذاك عن تدارك أنفسنا أو العودة والإستيقاظ لنعمل صالحاً فيما تركنا.

مـن هنا قال الباري سـبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهـم قد يعرفون شـيئاً عن ظواهر الحياة الدنيا وسـطحيّتها، إلاّ أنّهم: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

وكلمـة (هـم) تكـرّرت مرّتين للتأكيـد على غفلتهم الشـديدة والكثيرة والشاملة للجميع.

ولقـد وهب اللَّه النـاس جميعاً عقـلاً وإدراكاً وشـعوراً، وهو سبحانه الذي خلق الإنسان في ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[(١)].

ولكنّ هذا الإنسان نفسه إن سقط كان في ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾[(٢)].

وأزمة الإنسـان الكبرى تكمن في هذا الإطار، فاللازم عليه أن يمعن النظر في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[(٣)].

(١) سورة التين، آية: ٤.
(٢) سورة التين، آية: ٥.
(٣) سورة الروم، آية: ٧.

بلى؛ إنّ السيارة تصدر عن مصنعها كاملة الأوصاف وسليمة، ولكنّ الفرق في سائقها، فقد يكون ماهراً حذقاً فيحافظ عليها ويستفيد منها بأحسن وجه، وقد يكون متهوراً جهولاً فيرتطم بها بالجدار ويدمِّرها.

للخروج من شرنقة الغفلة لا بد من تخطّي الصعاب واقتحام العقبات، ولذلك قال العليّ العظيم: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾[1].

ومعلوم أنّ اليقين نادر وقليل، لماذا؟ لأنَّ اليقين يصل للإنسان في نهاية المطاف، وحين يأتي الموتُ الإنسانَ يعي أن الموت حق. بينما كان المرء يعترف أنَّ الموت حق ولكن على لسانه فحسب؛ وكأنّه غير مشمول أو معنيٍّ به.. وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «**الْإِيمَانُ ثَابِتٌ فِي الْقَلْبِ والْيَقِينُ خَطَرَاتٌ، فَيَمُرُّ الْيَقِين بِالْقَلْبِ فَيَصِيرُ كَأَنَّهُ زُبَرُ الْحَدِيدِ، ويَخْرُجُ مِنْهُ فَيَصِيرُ كَأَنَّهُ خِرْقَةٌ بَالِيَة**»[2].

وورد عن الإمام الرضا سلام اللّه عليه: «**الْإِيمَانُ فَوْقَ الْإِسْلَام بِدَرَجَةٍ، والتَّقْوَى فَوْقَ الْإِيمَانِ بِدَرَجَةٍ، والْيَقِينُ فَوْقَ التَّقْوَى بِدَرَجَةٍ، ومَا قُسِمَ فِي النَّاسِ شَيْءٌ أَقَلُّ مِنَ الْيَقِين**»[3].

فالغفلة إذن شاملة، فماذا نصنع بها؟!

ينبغي اتّخاذها عدواً، فنراقبها على الدوام، ولقد حذّرنا اللّه تعالى من الغفلة وأرشدنا إلى الاستعانة به لئلاّ نقع في حبائلها وفي مكائد الشيطان: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾[4].

(١) سورة الحجر، آية: ٩٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٨٥.
(٣) الكافي، ج٢، ص٥١.
(٤) سورة الزخرف، آية: ٣٦.

و(يعـشُ) تختلف عن (يعمى) لغةً، إذ العَمى فقدان الرؤية[١]، فيما العشـو ضعف الرؤيـة، ويقال له أيضاً: ضعف الرؤيـة الليليّة[٢]. وهنا قد اسـتعمله القرآن في الضعـف الحاصل في رؤية عين القلب، إذ يضعف القلب عن ذكر اللّه تعالى، حيث سرعان ما يحتلّ الشيطان قلب ابن آدم فيشغله طيلة الوقت كما يستولي عليه في منامه أيضاً.

٣- معالجة الكفر

يقـول سـبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾[٣]. أي أنّهم ينكرون الآخرة من رأس، ويدّعون أنَّ الدنيا تتوالى أيامها ثم ينتهي كل شـي: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[٤].

ثـم يقول تعالى في الآية العاشـرة من سـورة الروم: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾[٥].

إذا أخطـأ المـرء في البداية خطأً ثمّ لم يصلح خطأه، سـتتوالى عليه الأخطاء والذنوب حتى ينتهي به الأمر إلى الكفر. وقد نرى أحد الأفـراد كان مؤمناً متديناً في البدايـة، ولكنه وقع ذات مرة في الخطأ، فلـم يعمد إلى تصحيحه، ثم انسـاق وراء الغفلة وعدم التصحيح، لا سـيما إذا كان قد صاحَبَ شـخصاً سـيّئاً جداً، فوجد نفسه على حين غـرّة أنه بلـغ مرحلةً من السـوء ما كان لـه أن يبلغها فصـار من جملة الذين ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾.

(١) المفردات للراغب الأصفهاني، ص٥٨٨، (عمى).
(٢) نفس المصدر، ص٥٦٨ (عشو).
(٣) سورة الروم، آية: ٨.
(٤) سورة الجاثية، آية: ٢٤.
(٥) سورة الروم، آية: ١٠.

وإنّ هـذه لقضية مصيريّة وجديرة بالتأمّل، بمعنى أنّ الإنسـان ملزم بعدم الاطمئنـان لواقعه، وإن لم يكن كافراً، بمعنى لزوم جانب الحيطة والحذر من تكرار الذنوب والأخطاء، ومن الوقوع في الكفر في نهاية المطاف.

قال سبحانه في الآية السادسة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم قال في الآية السـابعة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِـرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِـرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾. وفي الآية التالية قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ﴾.

ومـن هـذه الآية الاخـرة يمكن التعـرف على طريقـة مواجهة الجهل والغفلة والكفر، وهو التفكّر.

ولكن! بمَ وكيف نفكّر؟!

فـي خاتمة الآية الثامنة يشـير اللّه المتعـال الذى يدعو الجميع الـى أن يتفكّـروا ويمعنوا النظر فـي المبدأ والمعاد، يشـير الى حقيقة هامـة: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾. فبـدلاً مـن أن يتعقّل الإنسـان فـي حياته وينظر في حقيقة نفسـه، تراه يتعجّل في الحكـم واتّخـاذ الموقـف، حتـى أنّ كثيراً مـن الناس ينكـرون أصل المعـاد والآخـرة، وقـد نقـل القـرآن المجيد عـن المشـركين قولهم الباطل بهذا الصدد:

١- ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾[1].

(١) سورة الرعد، آية: ٥.

٢ - ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾[١].

٣- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾[٢].

٤ - ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[٣].

فهم - إذن - يعدّون القول والإيمان بالبعث والمعاد والآخرة والحساب والثواب والعقاب ضرباً من الجنون يستدعي التعجّب والنكران لعدم إمكان وقوعه بزعمهم.

وهناك فريق آخر، ومع عدم نكرانهم أمر لقاء اللَّه ووقوع الآخرة بألسنتهم، إلّا أن سيرتهم تشير إلى عدم إيمانهم بالمعاد، ولو أنهم آمنوا به حقاً، ما كانت سيرتهم على هذا النحو من الفساد والإفساد والضلال والإضلال.

ثم إنّ التشكيك والكفر بوقوع الآخرة ولقاء اللَّه تعالى يفضي إلى رداءة الحياة وسخافتها ولا هدفيتها، ثم إلى الفضيحة الكبرى في يوم القيامة بسبب كثرة الذنوب وتراكم الخطايا، وإنَّ اللَّه سبحانه يصف مصير المكذبين بالآخرة بالقول القاطع:

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[٤].

(١) سورة المؤمنون، آية: ٣٥.
(٢) سورة النمل، آية: ٦٧.
(٣) سورة ق، آية: ٢ و٣.
(٤) سورة يونس، آية: ٤٥.

بصائر وسنن

١- الكثير من الناس لا يتفكرون ولا يتدبرون في خلق السماوات والارض، وذلك بسبب الجهل أو الغفلة أو الكفر.

٢- على الإنسان أن يفكر في عاقبة كلّ فعل يريد القيام به، والدنيا مجرد مقدمة وبداية، بينما الآخرة نقطة الهدف، ومن كان جاهلاً بنقطة الهدف، فلا ريب في أنّ علمه بظاهر الطريق لا ينفعه.

٣- يدعونا القرآن المجيد لأنْ نتفكّر ونتعقّل، وألّا نُخضع هذا التفكّر والتعقّل لتأثير الآخرين، وإنّما ينبغي أن يكون الإنسان مستقلاً في التفكّر، وقد جعل اللّه تعالى محور التفكّر شيئين: (بالحقّ) و(أجل مسمّى) فالسماوات والأرض وما بينهما كانت خلقتها بالحق ولها أجل مرسوم مسمّى.

كانوا أنفسهم يظلمون

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٩﴾.

من الحديث

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**اعْتَبِرُوا بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا، هَلْ بَقِيَ عَلَى أَحَدٍ؟ أَوْ هَلْ فِيهَا بَاقٍ مِنَ الشَّرِيفِ والْوَضِيعِ والْغَنِيِّ والْفَقِيرِ والْوَلِيِّ والْعَدُوِّ؟ فَكَذَلِكَ مَا لَمْ يَأْتِ مِنْهَا بِمَا مَضَى أَشْبَهُ مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ**»[١].

تفصيل القول

يبدو من سياق هذه الآية الشريفة أنّ المشركين والكفّار الذين كانوا يعيشون في عصر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن كانوا

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص٣٢٥، عن: مصباح الشريعة، ص١١٣.

مغرورين بقوّتهم وتسلّطهم على الأرض، وكانوا يتفاخرون بما عمروا أرضهم، حتى لكأنّ ما لديهم لن يزول ذات يوم، فيما اللّه تعالى يعيب عليهم أنّهم لا ينظرون إلى عاقبة أمرهم؛ وأنّها لن تكون بأفضل من عاقبة من سبقوهم وقد كانوا أقوى وأكثر تسلّطاً منهم.

وفي قسم آخر من الآية الشريفة تمّ التذكير بحقيقة سلوك الأمم السابقة الذي كان شبيهاً بسلوك المشركين المعاصرين لنزول القرآن المجيد. فهم قد جاءتهم رسل السماء ليثبتوا لهم حقّانيّة دين التوحيد وأصل المعاد، وأدلوا لهم بالبراهين الواضحة الجليّة، إلّا أنَّ الضالين واجهوهم بالصد والتكذيب، فأضاعوا أنفسهم واستوجبوا العذاب الأبدي.

وفي خاتمة الآية جاء التذكير بأنّ اللّه الرحيم لم يظلمهم ولن يظلمهم، بل إنّهم هم الظالمون لأنفسهم، وما أقبح هذا من ظلم أن يستوجب الناس العذاب بسبب عدم الإقرار بالحق والحقيقة.

السفر ودراسة التاريخ

هذه الآية الشريفة تشير إلى طريقٍ مناسب للخلاص من الغفلة والخروج عن دائرة الجهل وفهم عاقبة الكفر والتكذيب. فبعد الإشارة الى مشاكل البشر والعقبات الثلاث التي تواجهه في الآيات السابقة، فإنّ اللّه يدعوه أن يعمد إلى السير في أرجاء الارض وأن يتدبَّر في تاريخ الأمم السابقة وينظر في آثارهم الباقية ليستلهم العبرة ويعي سبيل الإصلاح في واقعه:

١ - ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

وطبعاً؛ هناك من الناس من لا يسافر ولا يتنقّل، إلّا أنه يستطيع حل مشاكله بما يقرأه في كتب التاريخ، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام

فـي وصيّته لابنـه الامام الحسـن عليه السلام: «**أَيْ بُنَـيَّ، إِنِّي وإِنْ لَـمْ أَكُنْ عُمِّـرْتُ عُمُرَ مَـنْ كَانَ قَبْلِـي، فَقَدْ نَظَرْت فِـي أَعْمَالِهـمْ، وفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وسِـرْتُ فِـي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُـدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَـلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، ونَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ جَلِيلَهُ، وتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَه...**»[(١)].

إنّ القـرآن المجيد يربط بين الدهور السـابقة والعصر الحاضر كلّ الربط، كما يصل بين ثقافة الجيل الحاضر وثقافة الأجيال السالفة لـدرك الحقائق، ويعد ذلك أمـراً لازماً وضرورياً، لأنّ من شـأن هذا الربط أن يحدد وظائف ومسؤوليات الأجيال القادمة.

إنَّ البحث والنظر في التاريخ عبر السـير والسـفر والاسـتفادة من تجارب الآخرين يعتبر من طرق المعرفة، أمّا الإحجام عن دراسة التاريخ فهو أمر غير سليم، والعلّة في ذلك هو أنّ التعرف إلى التاريخ وفلسفة التاريخ والإطّلاع على ما حلّ بالأقوام السابقة، ينقذ الإنسان من مرض السطحيّة.

إنَّ التحـولات التاريخية إنمـا حدثت بناءً على السـنن الإلهيّة وقوانينها الثابتة، ويمكن الاعتبار بها واسـتلهام الدروس والعبر منها لليوم والغد، ولا ريب أنّ شرط الإستفادة من السفر هو النظر العميق والتفكّـر المنطقـي ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ ليتسـنّى لهـم العلـم بمصيـر الأقوام الماضية والعبرة بما حلّ بهم من نتائج.

لقـد نهضـت حضـارات عـدّة قبـل ظهور الإسـلام ثـم بادت

---

(١) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، قسم الوصايا والرسائل، الرسالة ٣١، ص٣٩٣-٣٩٤.

وزالـت، ولا بـد مـن التفكرّ في ذلك الـزوال، حتى نـدرك أنّ اللَّه إذا غضـب على قوم، فإنـه لا توجد القدرة علـى مواجهة ذلك الغضب. فيكـون الالتفات إلى هـلاك وزوال الحضارات الكبـرى عاملاً لمنع الغرور والتحصن دونه.

لقـد كانـت للَّه تعالى سـنن في الأقوام السـالفة، وهـي لم تكن خاصـة بقـوم دون غيرهـم أبـداً، بـل كانت تجـري ضمن سلسـلة من القوانيـن المصيرية فـي الجميع وما تزال. وفي تلكم السـنن كان تقدم وتسـامي المؤمنيـن المجاهديـن المتّحديـن الواعين؛ أموراً مرسـومة ومتوقّعة، أما الهزيمة والإنحطاط فقد كان مصير الأمم الممزّقة الكافرة الملوّثة بالخطايا. وهذا هو الثابت ومسجَّل في التاريخ البشري العتيد.

ويفهـم من هذه الآية وشـبيهاتها – وهي عديـدة – أن للتاريخ والآثـار التاريخيـة أهمية قصوى لـكل أمّة. فالتاريخ يكشـف لنا عن الخصائص السـلوكية والأعمـال الصالحة والطالحـة للأمم الغابرة، وعن رؤى وأفكار الماضين، كما يكشـف لنا علل سـقوط وانحطاط أو تقـدم وسـعادة المجتمعات البشـرية عبـر القـرون الماضية. وفي الحقيقـة؛ يمكـن اعتبـار التاريـخ الماضي مـرآة لحيـاة المجتمعات المعاصـرة والقادمـة من الناحية الروحيـة والمعنوية، كمـا يمثل أداة فعّالة في تنبيه أجيال الحاضر والمستقبل.

إنّ القـرآن المجيـد بدعوتـه النـاس إلـى السير فـي الأرض، إنمـا يدعوهم إلـى إعمال الدقّة فـي النظر في حـوادث التاريخ وآثار السـالفين مـن أمم وقـادة وجبّارين، ليتبيّـن لهم أنّ أولئـك الكافرين الذين كذّبوا رسـل اللَّه وشـيّدوا كياناتهم على أساس الظلم والجور؛ فوجئوا بمصائر مناسبة لما فكّروا واقترفوا.

نعم؛ هناك آثار تاريخيّة متناثرة في شـتّى بقاع الأرض، وبمثابة وثائـق حيّـة ناطقة باسـم التاريخ، ولعلّنـا ننتفع منها أكثر مـن انتفاعنا بالتاريـخ المـدوّن.. فالتماثيـل والصور والآلات ومختلف الأشـياء الباقيـة مـن الماضيـن تبيّن لنـا روح وقلـب وطريقة تفكيـر الماضين وقدراتهـم وعظمتهـم أو أسـباب تفاهتهـم وسـقوطهم. أمـا التاريخ المكتوب فهو لا يعكس أمامنا إلّا صورة جامدة لا روح فيها.

إنَّ خرائـب قصور الطغاة والأبنيـة العجيبة مثل الأهرام وحدائق بابل وقصور القياصرة والأكاسرة وآثار سبأ ومئات من نظائرها الموزّعة فـي بلـدان العالـم.. لهـا مئات الألسـن والخطابـات - رغـم جمودها الظاهري - تحدثنا بها. وهنا بالذات يسجّل الشعراء ملاحظاتهم وتتفتّح قرائحهم وتهتز أرواحهم فيبدعون أروع الأشعار وأكثرها حماساً.

إنَّ النظـر فـي جزء بسـيط من هـذا التاريخ الملموس والمشـهود يعادل قراءة سِـفر تاريخي كبير، ولا شـكّ إنّ التأثير الذي يتركه في يقظة الروح البشـرية أشـد من ذلـك الذي تتركـه الكتب في قارئيهـا. فنتعرف بذلك إلى فداحة الخسائر الجسيمة التي تسبّب بها مَن شيّد تلكم القصور والقلاع الأثرية على البشرية، وكم أزهقوا في تشييدها من أرواح بريئة.

التدبـر في هـذه الآية الكريمة يكشـف عن البون الشاسـع بين حقيقة دعوة الإسـلام إلى السـياحة وبين السياحة المعروفة اليوم. إنَّ السـياحة المعاصرة لا تعدو كونها نزهة فارغة قد تتحول الى الفسـاد والميوعـة. أمّا الرؤية القرآنية للسـفر والسـياحة، فتشـير إلى ضرورة أن يأخـذ منحـى التفكيـر في آثـار الماضيـن والتعرف إلى قـدرة اللَّه عـزّ وجلّ في القضاء على المفسـدين في الأرض بسـننه وقوانينه في مختلف بقاع الأرض.. وقد وردت الإشـارة إلـى ضرورة القيام بهذا

العمل المفيد والبنّاء في آيات عديدة، منها:

١ - ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾(١).

٢ - ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾(٢).

٣- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾(٣).

وآيات عديدة أخرى.

إنَّ هذه السياحة المعنويّة والفكريّة في الأرض تجعل قلب ابن آدم أكثر معرفة، وعينه أعمق مشاهدةً، وأُذنه أدق سمعاً، وتنقذه من الخمول والجمود والخمود.

فإذا سافرنا ورأينا - مثلاً - مقابر وآثار أشخاص كانوا أكثر منا مالاً، وأشدّ منّا قوة؛ وقد عمروا الأرض أيّما عمران:

٢ - ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾

ولكنّهم ماتوا، وخربت قصورهم، وتبخّرت إمكانياتهم، فلعلّ قلوبنا تهتز إلى تلقّي الدروس والعبر والاستنتاجات الناجعة، وعسانا نلتفت إلى دلائل الأنبياء الواضحة وبراهينهم القاطعة:

٣- ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾

فنستشعر المسؤولية والتكليف.

هـذه الآية تثير فينا النزعة إلى دراسة التاريخ، تاريخ الذين استولوا على الأرض بالعدة والعدد، ولكنّهم لم يفتحوا قلوبهم

(١) سورة النمل، آية: ٦٩.
(٢) سورة العنكبوت، آية: ٢٠.
(٣) سورة الحج، آية: ٤٦.

وعقولهم لتلقّي الحقائق، فاستحقّوا العقاب الإلهيّ الأليم، ثم تذكّرنا الآية:

٤- ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾

إنها تشير إلى أقوام كانوا أشدّ قوّةً من المشركين المعاصرين للنبيّ الأكرم ﷺ من حيث القدرة الجسميّة والماليّة، وكان مصيرهم عذاباً أليماً، فصاروا دروس عبرةٍ لهم. ونحن بدورنا ينبغي أن ندرس ونعتبر.

ويمكن أن تكون عبارة ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ تنويهاً إلى حرث الأرض وتهيئتها للزراعة والتشجير، أو شقّ الأنهار والقنوات، أو استخراج المعادن والصخور لبناء الأبنية العظيمة، أو كلّ هذه أجمع. ففرعون الذي سعى جاهداً ليوجد دنياً متفاوتة ويبني قصوراً عالية، وأنهاراً جارية من تحت عرشه، تراه أين ذهب؟ وماذا تبقّى منه؟!

فهو وغيره من الطغاة ومع ما كان لديهم من القوّة؛ لم يسعهم الخلاص والفرار من العقاب الإلهي النازل بهم بعد إنكارهم وتكذيبهم. وأنّى لهم المهرب من قضاء الربّ المتعال وأليم عقابه؟!

إنّ العقاب الإلهيّ الكبير كان نتيجة أعمالهم، فهم الذين ظلموا أنفسهم، وليس اللَّه بظلاّم للعبيد.

الخلاص من الغفلة العقائدّية

لماذا علينا دائماً أن نتذكر القضايا العقائدية وأن نبحث عنها؟

إنّ غالب الآيات القرآنيّة تطرح المسائل العقائديّة، مثل معرفة اللَّه، والأسماء الحسنى، ومسألة المعاد، والتذكير المتواصل بعاقبة الإنسان، ووجود الآخرة والجنة والنار.

ترى ماذا يُستشفّ في المنحى العقائدي من هذه الآيات؟ وما هي مسؤوليتنا تجاه عقائدنا؟!

إنَّ مسائل العقيدة مرتبطة بروح الإنسان، ولقد نعلم أنّ بدن الإنسان بسبب مخلوقيّته بحاجة إلى الطعام والشراب، وأنّه غير قادر على الاستمرار في الحياة دون ذلك. كذلك هو أمر الروح، إذ تتعرض لأفدح الأخطار إذا ما افتقرت إلى غذائها الخاص.

إنّ أحد أهمّ المواد الغذائيّة للروح هو العلم، والروح هي وعاء العلم، فالانسان يدرس ويبحث ويقرأ ليكون عالماً، ولكنه بالطبع ينسى ما تعلّمه، والنسيان آفة العلم، وهذا النسيان متعلّق ببعض العلوم وليس جميعها. فالعقائد الأساسيّة التي نؤمن بها من جملة الأمور غير المتأثّرة بالنسيان، مع أنّها قد تتعرض للغفلة بسبب وجود عوامل جذب أخرى.

المثال الواضح للغفلة يتعلّق بالصلاة، فكم منّا يا ترى قادر على أن يؤدّي الصلاة كّلها بالتفات تام؟ ولماذا يتشتت الفكر ما أن يقول المصلّي: (اللّه أكبر)؟ السبب يكمن في عوامل جذب وتأثير أخرى.

يقول سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[1].

ويقول أيضاً: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[2].

(١) سورة المنافقون، آية: ٩.

(٢) سورة النور، آية: ٣٦ و٣٧.

إنّ اللَّه تبارك وتعالى قد امتدح أناساً بصفة عدم الغفلة عن ذكر اللَّه حتى حين البيع والتجارة، فكيف بالصلاة؟

إذن؛ فنحن قد نصاب بالغفلة بخصوص حقائق كبرى وقضايا مصيرية، مثل معرفة اللَّه والمعاد، وهذه الغفلة تتحوّل سبباً لأن يبحث المرء في طرق أخرى، وإنّما تذكير اللَّه تعالى في القرآن فيما يتعلّق بالشيطان والحذر منه، هو لدرء الغفلة عن قلوبنا، يقول سبحانه: ﴿أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾[1]. والشيطان يتسلل إلى داخل الإنسان. وقد روي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ**»[2].

فالشيطان يراقبنا باستمرار ولكننا لا نراقبه كما يراقبنا، وما أن يرانا غافلين حتّى يدفعنا إلى الهاوية. وهكذا نغفل عن مسائل الآخرة والموت والجنة والنار؛ وهي مسائل تمثّل محور الرسالات الإلهيّة، وإن لم نغفل، بلغنا مقاماً معنويّاً رفيعاً.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «اسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم حَارِثَةَ بْنَ مَالِكِ بْنِ النُّعْمَانِ الْأَنْصَارِيَّ، فَقَالَ لَهُ: **كَيْفَ أَنْتَ يَا حَارِثَةَ بْنَ مَالِكٍ؟**

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه مُؤْمِنٌ حَقّاً.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: **لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِكَ؟**

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، فَأَسْهَرَتْ لَيْلِي،

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٩٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٦٠، ص٣٣٢.

وأَظْمَأَتْ هَوَاجِرِي، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي قَدْ وُضِعَ لِلْحِسَابِ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِي الْجَنَّةِ، وكَأَنِّي أَسْمَعُ عُوَاءَ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّه ﷺ: **عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّه قَلْبَهُ، أَبْصَرْتَ فَاثْبُتْ.**

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، ادْعُ اللَّه لِي أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ مَعَكَ.

فَقَالَ: **اللَّهُمَّ ارْزُقْ حَارِثَةَ الشَّهَادَةَ.**

فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا أَيَّاماً حَتَّى بَعَثَ رَسُولُ اللَّه ﷺ سَرِيَّةً، فَبَعَثَهُ فِيهَا، فَقَاتَلَ فَقَتَلَ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً ثُمَّ قُتِلَ»[١].

إذن، فإنّ البعض الذي كان مراقباً وسائراً في الطريق الصحيح فقد وصل إلى الهدف المنشود.

وهناك عبارة نقرأها في زيارة عاشوراء، وهي: «**وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُبَلِّغَنِي الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ لَكُمْ عِنْدَ اللَّه**»[٢].

وهذا هو نفس المقام الذي ندعو به لنبيّنا الأعظم صلوات اللّه عليه وآله فنقول: «**وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً يَغْبِطُهُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُون**»[٣]، وها نحن نطلب ذلك المقام الرفيع لأنفسنا، وفيه الإشارة إلى الهمة العالية والعزم الراسخ على أن لا نقنع بتافه المصير وضعيف الطموح. فبينما البعض يرضى ويقنع لنفسه بحياة بسيطة، هناك من يطمح ويخطّط لأن تكون حياته مع خاتم الأنبياء ﷺ. من هنا لزم تكرار بحث القيامة، ليس للإيمان فحسب، وإنّما للتخلّص

---

(١) الكافي، ج٢، ص٥٤.
(٢) مصباح المتهجّد للطوسي، ج٢، ص٧٧٥.
(٣) نفس المصدر، ج١، ص٤٠٦.

من داء الغفلة، فننجو بمعونة اللَّه منه. يجب النظر إلى أيّة نقطة سامِيةٍ يمكن أن نصل.

ومع وجود هكذا مراتب عليا وإمكانيّة بلوغها، لماذا نجد البعض لا يؤمنون بالآخرة؟ أين مكمن الأزمة والإشكال؟! إنّها - لا ريب - أزمة عامّة وينبغي مكافحتها لتتقلّص وتزول، ولكن يا ترى ما هو جذر المشكلة؟

الجذر هو الجهل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. فالطبيعة الظاهريّة للبشر هي الجهل، أما العلم فهو أمر مكتسَب. ومع أنّ اللَّه تعالى قد جعل في الإنسان فطرة، ولكن ما لم يتم استثمارها، وما لم يفعّل العقل، فإنّ ظلمة الجهل هي الأصل، ونور العلم شيء عارض. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

وفضلاً عن الفطرة، فقد أوتي الإنسان كل أدوات المعرفة، ولكن يبقى الإنسان في بادئ الأمر لا يعلم شيئاً.

إنّ أحد مصاديق جهل الإنسان؛ الجهل باللَّه، ومن مصاديق الجهل باللَّه، الجهل بصفات اللَّه وبأنّ اللَّه قادر على أن يفعل ما يريد، ثم إنّ من موارد الجهل الخطير هو القول: كيف يمكن للَّه الذي هو (أرحم الراحمين) وهو الذي تقع كلّ الدنيا ضمن دائرة رحمته، أن يغرقنا جميعاً في لحظة واحدة، أو أن يحرقنا ويعذّبنا في الجحيم؟. هذه إحدى الوساوس الشيطانيّة!

---

(١) سورة النحل، آية: ٧٨.

إنّ الجهل باللَّه إذا ما ضُمَّ إلى الوساوس الشيطانية فإنّ المشكلة تتضاعف وتصبح خطيرة للغاية. فالشيطان يهمس فينا قائلاً: إنّ الشمس والقمر مسخّران لنا، والدنيا تتحرك لأجلنا، فكيف يعقل أن يعذّبنا اللَّه؛ وهو الذي وهبنا كلَّ هذه النعم؟!

الجهل بطبيعته يصعّب التصديق. والإنسان يريد ربّاً لا يحاسبه . فكيف لنا أن نوضح لمثل هذا الإنسان بأنَّ اللَّه الذي هو أرحم الراحمين هو شديد العقاب أيضاً؟! وأنّ البؤساء والمظلومين والمساجين والمرضى والمصابين بأضرار الظواهر الطبيعية كالزلازل والأعاصير والفيضانات هم أيضاً عباد لهذا الربّ؟!

لا ريب أنّ للدنيا وجهين، فَلِمَ النظر الى وجه واحد؟ فهذا كلّه دليل على أنّ اللَّه الذي هو أرحم الراحمين، قد تقتضي حكمته في بعض الأحيان أن يكون (أشدَّ المعاقبين).

النبي نوح عليه السلام يقول لقومه الكافرين: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]. فأنتم ترون النعمة والرخاء فقط، ولكنّ اللَّه نفسه قد سلّط طوفان الماء القادم من الأرض والسماء على الكافرين وانقرض الجميع إلّا من آمن.

ما هو السبب في تكرّر قصص النبي نوح عليه السلام وعاد وثمود وبني إسرائيل وفرعون ونمرود في القرآن المجيد؟ إنّه من أجل إيجاد التعادل في أذهاننا.. وأنّه لا ينبغي أن نعرّف اللَّه تعالى ونصفه بما ليس هو ذلك، فلا نخدعنّ أنفسنا والآخرين.

إنّ نار جهنم حقيقة لا ريب فيها، وأنها لا تقاس حرارتها بنار

(١) سورة الأعراف، آية: ٦٢.

الدنيا، فقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ نَارَكُمْ هَـذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وقَدْ أُطْفِئَتْ سَبْعِينَ مَرَّةً بِالْمَاءِ ثُمَّ الْتَهَبَتْ، ولَوْ لَا ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ آدَمِيٌّ أَنْ يُطِيقَهَا، وإِنَّهُ لَيُؤْتَى بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى تُوضَعَ عَلَى النَّارِ فَتَصْرَخُ صَرْخَةً لَا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ إِلَّا جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ فَزَعاً مِنْ صَرْخَتِهَا**»[1].

إنَّ نار جهنم وعذاب الآخرة ليس أمراً يمكن التغافل عنه، فهو حقيقة واقعة، ثم إنّ عذاب هذه الدنيا له نهاية على عكس عذاب الآخرة. يقول تعالى بخصوص قوم نوح عليه السلام: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾[2].

إذن، فمن الخطأ القول بأنّه عزّ وجل يعطي النعم فقط، وبسبب هذا الزعم الخاطئ صار الكثير من الناس كافرين بالآخرة ولقاء الربّ العزيز: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾[3] لأنّهم يظنّون بأنّ الرب الذي يزعمونه لا يعرّض أحداً من خلقه للعذاب.. وهذه لعمري شبهة واهية يجيب اللّه تعالى عليها قائلاً: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾[4].

إذ كانوا من نوعهم، كانوا بشراً مثلهم، فأخذهم اللّه بالعذاب.

يصرّح اللّه -في معرض ردّه على تخرّصات الكافرين بلقائه-: إنهم يظنون بأنّ الذين كانوا من قبلهم كانوا أضعف منهم، ولذلك كانت عاقبتهم العذاب والفناء، ولكنهم يجهلون بأنهم: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ﴾.

(١) بحار الأنوار، ج٨، ص٢٨٨، عن: تفسير القمي، ج١، ص٣٦٦.
(٢) سورة نوح، آية: ٢٥.
(٣) سورة الروم، آية: ٨.
(٤) سورة الروم، آية: ٩.

وآية قوتهم أنّهم: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾.

فقد كانـوا يملكون كل مقومات الحضـارة والتقدم، من القوة والإمكانات والإدارة، ولكنهم لم يستثمروا ما أوتوا من قوة ووسائل وعلم، ورغم أنه: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾.

إلّا أنهـم راحوا يكذّبون من جاءهم من رسـل وأنبياء، ففرطوا بفرصتهم، والتفريط بالفرصة التي تعددت بتعدد المرسلين يعد ظلماً للنفس وتحطيماً للـذات وتدميـراً للمستقبل: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

إنهـم لـم يعيـروا البيّنـات والدلائل التي جـاء بها المرسـلون اهتمامـاً، ولـم يتفكّـروا فـي أنفسـهم، فظلموهـا، فانهـارت حياتهم الدنيوية، ومن بعد سيلمسون العذاب الأخروي الموعود.

أمّـا آثارهم، فلا تزال باقية وهي تحكـي نزول العذاب بأهلها، يراها الناظر فتثير في نفسـه هول العقاب.. وتلك أهرام مصر؛ تحكي القوّة والعلم الـذي توصّل إليه الفراعنة، ولكن أين هم، وماذا فعلوا، ولِمَ زالوا، وما حلّ بهم؟!

إذن، فـإن الزعم بأنّ اللَّه أرحـم الراحمين فقط ليس صحيحاً، بل إن اللَّه أيضاً هو أشد المعاقبين.

نستشـفّ مـن هذه الآيـة الكريمـة أنّ مشـاهدة آثـار الماضين مستحبّة إن لم تكن واجبة.

روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كثيراً ما كان يقول:

عِلْـمُ الْمَحَجَّـةِ وَاضِـحٌ لِمُرِيـدِهِ
وأَرَى الْقُلُـوبَ عَـنِ الْمَحَجَّـةِ فِـي عَمًـى

وَلَقَـدْ عَجِبْتُ لِهَالِـكٍ ونَجَاتُـهُ
مَوْجُـودَةٌ ولَقَـدْ عَجِبْـتُ لِمَـنْ نَجَـا[١]

إنّ طريـق معرفة الحقائـق واضح، ولكنّ المشـكلة تكمن في الناس الذين يحجمون عن التعرّف إليه والمسير فيه، هم لا يريدون أن يروا، ولذلك قال القرآن المجيد: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾.

إذن، فالحركـة ضروريـة كمـا أنّ النظـر لازم، ليـس النظـر السطحي، وإنّما النظر المنتهي بالاعتبار.

والتساؤل التالي يزيدنا عبرة بمصائر الماضين:

لمـاذا انتهـى النـاس إلى هـذا المصيـر؟ أَوَليس اللّـه قد خلق الإنسان بأحسن تقويم؟ فلماذا صار سيّئاً؟

لقد كان أهل اليمن يعيشون عيشاً رغيداً، وكان لهم سدّ مأرب، وكانت النعم تترى عليهم، حتى قيل إنّ المرأة منهم كانت تحمل سلّة على رأسها وهي تمر بالطرقات، فتمتلئ السلة فواكه وأثماراً متساقطة من الأشجار حتى تعود إلى بيتها لكثرة المحاصيل الزراعية. ولكنهم كفروا بأنعم اللَّه، فمهَّد الكفران للشيطان أن ينفذ فيهم ويتسلّل إلى قناعاتهـم، فأغراهـم وخدعهم، فـكان عقابهم أن سـلّط اللّـه عليهم الجـرذان، فقرضـت الحبـال التـي كانـت تربـط بيـن أجـزاء السـد، فتساقطت صخوره وهاجمهم السيل العظيم، فأُغرِقوا[٢].

إنّ هـؤلاء أضحـوا عبرة تدعونـا للذهاب والنظر فـي آثارهم. وهكـذا كانـت الأقـوام والحضارة المصريـة القديمـة. ومثلها كانت

(١) الأمالي (للصدوق)، ص٤٩٠.
(٢) انظر: بحار الأنوار، ج١٤، ص١٤٣- ١٤٧، و: مجمع البيان، ج٨، ص٢٠٩- ٢١٠.

منطقة البحر الميت التي ربما كانت موطن قوم لوط، إذ قَلَبَ اللّه بهم الأرض وقضى عليهم قضاءً مبرماً، فأصبح بحرهم ميتاً لا يعيش فيه كائن.. فلماذا يحلّ بالبشر هذا المصير؟!

حسب ما نستلهمه من آيات الذكر الحكيم فإنَّ الغفلة سبب كلّ هذا المصير الأسود المرّ. ويبدو أنّ ابن آدم لا يصاب بالغفلة دفعةً واحدة، وهو لا ينسلخ عن دينه فجأةً فتسقط حضارته، وإنما الأمر في تدرّج وخطوات متتالية، فإذا بلغ النهاية هوى، وقد يتنبّه، ولات حين مناص! يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[1].

فالشيطان متكبّر، وما أن تعارضه حتى يفرّ، فإذا وسوس لك بتأخير الصلاة (وهي الخطوة الأولى من خطواته) فكن قاطعاً في رفضه، وإذا حاول دفعك إلى مرافقة صديق تعلم منه السوء والانحراف؛ فلا تطعه منذ البداية.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:** ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾[2] **صَعِدَ إِبْلِيسُ جَبَلاً بِمَكَّةَ يُقَالُ لَهُ ثَوْرٌ، فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ بِعَفَارِيتِهِ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ.**

فَقَالُوا: يَا سَيِّدَنَا لِمَ دَعَوْتَنَا؟

قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَمَنْ لَهَا؟

فَقَامَ عِفْرِيتٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ فَقَالَ: أَنَا لَهَا بِكَذَا وكَذَا.

قَالَ: لَسْتَ لَهَا.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٦٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٣٥.

فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَسْتَ لَها.

فَقَالَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ: أَنَا لَهَا.

قَالَ: بِمَاذَا؟

قَالَ: أَعِدُهُمْ وأُمَنِّيهِمْ حَتَّى يُوَاقِعُوا الْخَطِيئَةَ، فَإِذَا وَاقَعُوا الْخَطِيئَةَ أَنْسَيْتُهُمُ الِاسْتِغْفَارَ.

فَقَالَ: أَنْتَ لَهَا.

فَوَكَّلَهُ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[١].

وواضح أنّ النسيان نتيجة الغفلة والتساهل والوساوس الشيطانية، ولا يصاب بكلّ ذلك سوى الذين يستسلمون للشيطان وينهزمون أمامه. أمّا الأذكياء الواعون فهم حذرون دوماً، فما أن يصدر منهم خطأ حتى تراهم يبادرون إلى الإقرار والتوبة والاستغفار، فيغسلون قلوبهم وأرواحهم، ويغلقون نوافذ قلوبهم دون وساوس الشيطان وجنوده الخنّاسين.

بصائر وسنن

١- إنّ اللَّه يدعو الإنسان إلى السير في أرجاء الارض والتدبر في تاريخ الأمم السابقة والنظر في آثارهم الباقية، ليستلهم العبرة ويعي سبيل الإصلاح في واقعه.

٢- إنَّ التحولات التاريخية إنما حدثت بناءً على السنن

(١) الأمالي للصدوق، ص٤٦٥.

الإلهيّـة وقوانينهـا الثابتـة، ويمكـن الاعتبـار بها واسـتلهام الدروس والعبر منها لليوم والغد، ولا ريب أنّ شـرط الإسـتفادة من السفر هو النظـر العميق والتفكّر المنطقي (فَيَنْظُرُوا) ليتسـنّى لهم العلم بمصير الأقوام الماضية والعبرة بما حلّ بهم من نتائج.

٣- إنّ النسـيان نتيجة الغفلة والتساهل والوساوس الشيطانية، ولا يصـاب بكلّ ذلك سـوى الذين يستسـلمون للشـيطان وينهزمون أمامه.

عاقبة المستهزِئين

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾.

من الحديث

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال:

«إنَّ الـمُسْـتَهْزِئِينَ يُفتَـحُ لِأحَدِهِـمْ بَـابُ الجَنَّـة، فَيُقـالُ: هَلُمَّ. فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَغمِّهِ، فَإذا جاءَ أُغْلِقَ دُوْنَهُ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ آخَر، فَيُقَالُ لَـه: هَلُـمَّ، فَيَجِيءُ بِكَرْبِهِ وَغَمِّهِ، فَإذا جَاءَ أُغلِـقَ دُوْنَه، فَمَا يَزالُ كَذَلِكَ حَتّى إنَّ الرَّجُلَ لَيُفْتَحُ لَهُ البَاب، فيُقالُ لَه: هَلُمَّ هَلُمَّ، فَمَا يَأتِيْه»[1].

تفصيل القول

تحدّث اللَّه تعالى في الآيات السابقة عن الغافلين والجاهلين والكافرين والمكذّبين بالمبدأ والمعاد، كما تناول قضيّة الظلم

(١) كنز العمال، ج٣، ص٦٥٠، ح٨٣٢٨.

للنفس، وهذه الصفات كلها من قبائح عمل الإنسان.

وفي هذه الآية إستنتاج كلّيّ لخّصته الآية الكريمة. فإذا واصل المـرء المتّصف بالصفات المذكورة سـلوكه هذا ولـم يتب إلى ربّه، فإنّه ينتهي إلى التكذيب بآيات اللَّه:

١ - ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾

واستمرار المرء في هذا الغي لا يوقفه عند التكذيب، بل ينتقل الى مرحلة أسوء هي الإستهزاء بآيات اللَّه:

٢ - ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

والقـرآن المجيـد يعلّـم البشـر هنا درسـاً تربويـاً مهمـاً، إذ أنّ ارتكاب الذنب والتلوّث به مرض خطير، كما الجذام، يسـتولي على روح الإنسان، فينخر فيها ويسجن فطرته الإلهيّة، حتى ينتهي بصاحبه إلـى التكذيب بالآيات، بل والاسـتهزاء بها وبمن يأتي بها ومن يؤمن بها. وهنالك لن تؤثر فيه المواعظ، فلا يبقى أمامه إلّا العذاب الإلهي الأليم.

إنّ دراسـة التاريخ التي أوصى بها القـرآن الكريم، تؤدي دوراً هامـاً هنا، فسـيرة العديد من طغاة الأرض تشـير إلى أنهـم لم يكونوا علـى الحـال التي ماتـوا عليها، بـل ولعلّهم كان فيهم نـور ضئيل من الإيمـان في قلوبهم، ولكن اجتراحهـم للخطايا والموبقات المتوالية أدّى بهم إلى ممارسة الطغيان والكفر والتكذيب والاستهزاء بالصور التي عُرفوا بها.

لقـد كان لمعاويـة ويزيـد - مثـلاً - أن يعيشـوا تحـت مظلّـة الإسـلام، فينعمـوا بتعاليمـه الأخلاقيّـة، فينجوان ككثيرٍ مـن الناس،

غير أن إصرارهما وأمثالهما على الذنوب وطيش المعيشة كان سبباً لبلوغهم حالة إجراميّة جعلتهم يستلذّون بارتكاب أفظع الجرائم، فكان مِن يزيد - مثلاً - أنْ قال أمام الناس وفي محضر الأسارى الذين جيء بهم من كربلاء إلى الشام، وبكلّ وقاحة أبياتاً من الشعر تنبئ عن مدى كفره واستهزائه بالحق وأهله، حيث قال:

لعبت هاشم بالملك فلا خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل[1]

ولكن مولاتنا الصدّيقة زينب الكبرى عليها السلام ردّت عليه - بعد الحمد والثناء على اللَّه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم - قائلةً: «صدق اللَّه سبحانه، كذلك يقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[2]».

آيات اللَّه والتكذيب بها

وهنا لا بد أن نتوقف قليلاً عند مسألة التكذيب بآيات اللَّه. فما المراد من التكذيب بآيات اللَّه؟ ولماذا كلّ هذا التأكيد القرآني على هذه المسألة؟ ولماذا يريد اللَّه تعالى من الإنسان أن يكفّ عن التكذيب بآياته؟

ثم ما المقصود بآيات اللَّه؟ وهل أنّ آيات اللَّه أشخاص؟ أم أنها هذه الآيات القرآنيّة المجيدة؟ أم هي الشمس والقمر والجبال والبحار والحقائق الكونية الأخرى؟ وإذا كانت هذه هي الآيات؛ فما معنى التكذيب بها؟!

التكذيب بآيات اللَّه هو أن يواجهها الشخص بالإنكار وبأنها

(١) الإحتجاج، ج٢، ص٣٤.
(٢) بحار الأنوار للمجلسي، ج٤٥، ص١٥٧.

كاذبة وغير صحيحة.

ولفهم معنى التكذيب بشكل أفضل، نتدبر قليلاً في آيتين من آيات سورة الأعراف. وهنا لا بد من الإشارة إلى أنّ لكلّ سورة إطارها الخاصّ بها، فسورة الأعراف تتحدث عن الانسان وحقيقته وطبيعته، وماذا كان، واين كان، وما هي مشاكله؟ في أواخر هذه السورة المباركة جاء قوله العزيز:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

(سَلَخَ، يَسْلَخُ) يعني أخرج واستلَّ الشيء من شيء آخر، كإخراج النهار من الليل، نقول: سَلَخَ الحيوان أي: أخرجه من جلده.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي أنّه كان يتخّذ الآيات زينة يتغشّى بها فخرج منها، وبعد هذا الانسلاخ ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. تماماً كما قد يخرج الجندي من حصنه فيتبعه الأعداء ليفتكوا به ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فالذي كان يدعو إلى اللّه وإلى اتّباع النبيّ الحقّ ذات يوم، انهار وضلّ وضاع على حين غرّة!

ثم يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ وأنجيناه ممّا ورَّط به نفسه ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فصار من عبيد الدنيا، فغرّته ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٥-١٧٦.

تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾. لماذا التمثيل بالكلب وبلهاثه؟ في الحقيقة إنَّ كل الحيوانات تلهث حينما يستدعي الأمر ذلك، كما لو واجهت خطراً فإنها تلهث استعداداً للدفاع عن نفسها، بينما الكلب يلهث بسبب وبغير سبب لأنّ عادته اللهث، كذلك من انسلخ من آيات اللّٰه وأخلد الى الأرض واتبع هواه، فإنه كالكلب دائم اللهث، فاتحاً فاه لتدبير وضعه السيئ بمناسبة وغير مناسبة، فهو يلهث ويبرِّر سيئاته إنْ تحمل عليه، ويلهث إنْ لم تحمل عليه.

ثم يقول اللّٰه تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

تحكي هاتان الآيتان قصة رجل يُدعى (بلعم بن باعوراء) وكان - كما يُروى - عالماً زاهداً متّقياً، ولكنّه فشل في امتحانه وانتهى به الأمر إلى حيث لا ينبغي(١). ومثله الكثير في التاريخ ولم يكن السبب في انحطاطهم إلّا أنّهم ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾. فما يعني التكذيب بالآيات؟

لفهم معنى هذه الجملة لا بد من بعض التوضيح، فنقول:

كلّما أمعنّا النظر في خلق اللّٰه، وجدنا الدقّة والنظم والحكمة في أعلى مراتبها، حتى لترى الخلق بجميع أفراده متوقّفاً على بعضه. وكأنّ الجميع عبارة عن حبّات مترابطة في عقد واحد.

مثال ذلك نجمة عيوق(٢)، وهي نجمة صغيرة وبعيدة عنّا للغاية، إلّا أنها لدى طلوعها، يزداد ماء الأرض. أو نجمة سهيل ذات

---

(١) انظر: تفسير القمى، ج١، ص٢٤٨.

(٢) العيوق: نجم أحمر مضيء في طريق المجرّة الأيمن يتلو الثريا ولا يتقدمها، سُمي بذلك لأنه يعوق الدَبَران عن لقاء الثريا. [المنجد: عوق].

التأثير على الزراعة، وكذلك هي نجمة شعرا. فأين نحن من النجوم؟ ولكن ما يصدر عنها من أشعة أو جاذبيّة خاصة، يصلنا تأثيرها. فالعالم بأجمعه مترابط الأجزاء، وكلّ ذلك ضمن سُنن وقوانين علمية جعلها اللّه سبحانه ثابتة. وهناك من الأسرار الكونية ما لا يُحصى عدداً.

وكذلك هو شأن البشر، فالحواسّ التي زوّدنا بها اللّه تعالى، كالعين والأذن والشم واللمس، إنما هي أدوات ربط وعلاقة مع باقي المخلوقات، فهناك أمواج وذبذبات تُرسل من عضو الى آخر ومن مخلوق الى غيره لكي يتم التعامل والتعاطي بينهما، ولكن قد تأتي إشارات تحذيرية او توجيهية من جهة الى جهة أخرى، فلا يتم استقبالها وذلك بسبب الغفلة أو عطل في المستقبِل مما يؤدي الى بروز خلل في التعامل، فإذا كان عمل (المرسِل) صحيحاً وكان (المستقبِل) ضعيفاً، حدث الارتباك في نظم الحياة البشرية.

حتى أنّ هناك ما يُدعى بالحاسّة السادسة التي تربط الانسان بما حوله، وهي من نعم اللّه الخاصة بالقدرة على التنبؤ، فإذا ما قُدّر لحادث أن يقع بلغت البعضَ منّا ذبذباته، وأمّا عدم تلقّي البعض هذه الذبذبات، فمردّه إلى الضعف أو العجز الموجود في المتلقّي.

كذلك الأمر فيما يتعلق بالعالم غير المحسوس، فاللّه تعالى ليس خفيّاً، ونقرأ في دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام: «**أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَك؟**»[1]، فكل حركاتنا وسكناتنا، وكل ما في الظاهر والباطن، كل ذلك من مظاهر وجود اللّه وقدرته، وكلها دلائل وبراهين توجهنا للايمان باللّه وباليوم الآخر، ولكن المشكلة هي أنَّ الإنسان قد لا يستقبل

(١) بحار الأنوار، ج٦٤، ص١٤٢.

هـذه الاشـارات والذبذبات المعنويـة الصادرة اليه، وهـذا هو معنى التكذيب بآيات اللّه.

إنّ الآيـة تعنـي العلامـة، وهي تُصـدر ذبذبة خاصّـة باتّجاهنا، ويرسـلها اللّه لنا لنسـتثمرها فنعيش عيشـةَ صالحة، ونخطّط لآخرتنا تخطيطاً سليماً، فندرك ما حولنا إدراكاً جيداً.

ومع وجود هذه الحقائق فإنّ هناك من لا يرى شـيئاً بعين قلبه، وكأنـه أصيب بعمى البصيرة، فيكون مصداقاً لقول اللّه تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾[1]. فهـو قـد عميـت عيـن قلبـه بفعل ما تراكـم عليها مـن حجب الجهـل والغفلة والعناد والجحود، فإنَّ مصيره في الآخرة سـيكون متّسـقاً موافقاً لما كان عليه واقعه الدنيويّ، بل وأضلّ سبيلاً وأشدّ مرارة.

إنّ مـن النـاس مـن يتعطّـل لديهـم جهـاز التلقّي والاسـتقبال بالمرّة، فهم لا يفقهون شـيئاً. ألا ترى بعضَ الأقوام في الهند يعبدون الفـأر أو الفلفل أو ماء بعض الأنهار أو البقرة. وكان منهم بعض كبار شـخصياتهم السياسـية إذ كان يعبـد البقر، فهو في واقعه ليس سـوى رجـل قد سـدّ نوافـذ عقله وانهمـك في تقليـد آبائه على عمـىً، فعن هـؤلاء يقول اللّـه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ ثـم يوجهنـا الباري عز وجل الـى الاعتبار من مصير هؤلاء: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وعندما تُغلق منافذ الإسـتقبال والتلقي لآيات اللّه في الانسان تصبـح حياتـه حياةً سـيّئة، وأعماله أسـوء، إذ كذّب بآيـات ربّه.. فلا

(١) سورة الإسراء، آية ٧٢.

يحقّ له في الآخرة أن يتوقّع حياةً طيبة سعيدة لأنّـه من جملة الذين كذّبوا في الحياة الدنيا بآيات اللَّه، فكانت عاقبتهم السوء بما أساؤوا واستهزؤوا بالحقائق وتمسّكوا بالأباطيل والخرافات:

٣- ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

و﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾ تعني: عملوا السوء والقبيح. و﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: مؤنّث الأسوأ والأقبح.

والمعنى أنّ الإنسان إذا لم ينتفع من نعم اللَّه على النحو الصحيح، زالت نعمه، لأنّ اللَّه تبارك وتعالى إنما يزيد من عطائه إذا زاد الإنسان من الاستفادة بالصورة الصحيحة، والعقل هكذا، فما لم يُنشّط ويُستثمر، نقص وخمدت جذوته، ناهيك عن أن يُستثمر بالشكل الخاطئ.

وعلى هذا؛ فإنّ كلمة ﴿عَٰقِبَةَ﴾ التي هي خبر كان واسمها ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تعني أسوأ العواقب للذين ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾.

روي أنّ النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً مخاطباً المسلمين: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَدَ نِسَاؤُكُمْ، وفَسَقَ شُبَّانُكُمْ، ولَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ ولَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ؟!**».

فَقِيلَ لَهُ: ويَكُونُ ذَلِكَ، يَا رَسُولَ اللَّه؟!

قَالَ: «**نَعَمْ، وشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ ونَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ**».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه، ويَكُونُ ذَلِكَ؟!

قَالَ: «**نَعَمْ، وشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَراً والْمُنْكَرَ مَعْرُوفاً؟!**»(١).

يومها إستغرب المسلمون من حدوث ذلك، ولكن هذا هو ما وقع فعلاً.

فتارةً قد يعكف المرء على ممارسة الخطأ حتى لا يعود قادراً على تركه، إذ الخطأ يأتي بعد الخطأ والجناية تلي الجناية، ولكن الأسوء حينما تتبدل لديه الرؤية وتنقلب عنده الموازين، فيعتقد بالذنب حسنة وبالحسنة ذنباً!! ويرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾(٢) أنه قَالَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ: الْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ، ثُمَّ الْجِهَادُ بِأَلْسِنَتِكُمْ، ثُمَّ الْجِهَادُ بِقُلُوبِكُمْ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَلْبُهُ مَعْرُوفاً، ولَمْ يُنْكِرْ مُنْكَراً انْتَكَسَ قَلْبُهُ فَجُعِلَ أَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ، فَلَمْ يَقْبَلْ خَيْراً أَبَداً**»(٣).

وروي عن الامام الباقر عليه السلام في تفسير نفس الآية أنه قال: «**نُنَكِّسُ قُلُوبَهُمْ فَيَكُونُ أَسْفَلُ قُلُوبِهِمْ أَعْلَاهَا، ونُعْمِي أَبْصَارَهُمْ فَلَا يُبْصِرُونَ بِالْهُدَى**»(٤).

وروي عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**أَيُّمَا رَجُلٍ رَأَى فِي مَنْزِلِهِ شَيْئاً مِنَ الْفُجُورِ فَلَمْ يُغَيِّرْ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى بِطَيْرٍ أَبْيَضَ فَيَظَلُّ بِبَابِهِ**

---

(١) قرب الإسناد، ص٥٤.

(٢) سورة الأنعام، آية: ١١٠.

(٣) مختصر البصائر، ص٤١٤. و: تفسير القمي، ج١، ص٢١٣.

(٤) تفسير القمي، ج١، ص٢١٣.

أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَيَقُولُ لَهُ كُلَّمَا دَخَلَ وخَرَجَ: غَيِّرْ غَيِّرْ، فَإِنْ غَيَّرَ وإِلَّا مَسَحَ بِجَنَاحِهِ عَلَى عَيْنَيْهِ، وإِنْ رَأَى حَسَناً لَمْ يَرَهُ حَسَناً وإِنْ رَأَى قَبِيحاً لَمْ يُنْكِرْه»(1).

وجاء في الحديث: «**إنَّ النَّاسَ إذا عُمِلَ فِيْهِمْ بِالمعاصِي ثُمَّ لم يُغيِّروا، أوْشَكَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أنْ يَعُمَّهُمْ بِعِقابِهِ**»(2).

وهذا هو الواقع الذي عبّر اللَّه تعالى عنه بالقول: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ إذ تعطّلت فيهم القدرة على التلقّي والاهتداء إلى الحقّ وانطفأ نور قلوبهم، فإذا حدّثتهم بآيات اللَّه ولوّا عنها معرضين: ﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فهم لا يفقهون منها حرفاً، فتسوء حياتهم يوماً بعد يوم حتى يبلغ بهم الأمر إلى الاستهزاء بآيات اللَّه: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾. ومن يستهزئ بآيات اللَّه فلا رجاء في هدايته.

بصائر وسنن

١- استمرار المرء في هذا الغي لا يوقفه عند التكذيب بآيات اللَّه، بل ينتقل الى مرحلة أسوء هي الإستهزاء بالآيات.

٢- إنّ ارتكاب الذنب والتلوّث به مرض خطير، كما الجذام، يستولي على روح الإنسان، فينخر فيها ويسجن فطرته الإلهيّة، حتى ينتهي بصاحبه إلى التكذيب بالآيات، بل والاستهزاء بها، وبمن يأتي بها، ومن يؤمن بها.

---

(١) مستدرك الوسائل، ج١٢، ص٢٠٠.
(٢) معاني القرآن، ج٢، ص٣٧٤.

٣- عندما تُغلق منافذ الإستقبال والتلقي لآيات اللَّه في الانسان تصبح حياته حياةً سيّئة، وأعماله أسوء، إذ كذّب بآيات ربّه، وفي الآخرة تكون عاقبته السوء بما أساء واستهزأ بالحقائق وتمسّك بالأباطيل والخرافات.

المُبدئ والمُعيد

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١﴾.

من الحديث

روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«الْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِلشَّاكِّ فِي قُدْرَةِ اللَّه وهُوَ يَرَى خَلْقَ اللَّه، والْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِلْمُكَذِّبِ بِالنَّشْأَةِ الأُخْرَى وهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الأُولَى، والْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِلْمُصَدِّقِ بِدَارِ الْخُلُودِ وهُوَ يَعْمَلُ لِدَارِ الْغُرُورِ، والْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِلْمُخْتَالِ الْفَخُورِ الَّذِي خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ يَصِيرُ جِيفَةً وهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ لَا يَدْرِي كَيْفَ يَصْنَع»[1].

تفصيل القول

يُلقي الشيطان في قلب ابن آدم شبهة إستحالة الإحياء بعد

(١) المحاسن، ج١، ص٢٤٢ن ح٢٣٠.

الممات: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾[١]. حيث يقول منكر المعاد: كيف يمكن للّه أن يحيي العظام النخرة مرةً أخرى؟.

وهذه من أسوأ الشبهات التي يلقيها إبليس في ذهن الإنسان، فيدفع به إلى إنكار كلّ شيء، فيما يجب على الإنسان أن يجدّ ويجتهد في طرد هذه الشبهة عن ذهنه.

إنّ الإيمان إذا كان ضعيفاً، كانت الشبهة أشد تأثيراً في صاحبها، ومن علامات الضعف هذا أنّ صلاة المصلّي لا خشوع فيها، وأعماله لا تتعدى الممارسات الظاهرية، إذ لا روح فيها، ولو أنّ الإيمان كان قويّاً وكان المعتقد راسخاً، ما عشنا حياة البؤس والشقاء والضنك.

بيد أنّ ابن آدم لا ينبغي له أن يبتعد عن محضر اللّطف الإلهي بسبب المعاصي والذنوب، فينتهي به الأمر إلى أن يحرمه اللّه تعالى من الهداية؛ فيتسلّط عليه الشيطان ويلقي في قلبه الشبهات. ثم إنّ الإصرار على الخطيئة المؤدّي إلى التكذيب والاستهزاء بالآيات الربّانيّة ينتهي بالإنسان إلى استيلاء الغفلة على كلّ كيانه، حتّى أنّه ليخيّل إليه أنه مستقل في شخصيّته ولا يفتقر الى اللّه تعالى.

ولكنّ اللّه تبارك اسمه هو المهيمن على قلب الإنسان، وهو الذي ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٢] وهو ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[٣] وهو الذي ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٤].

إنّ هيمنة اللّه تعالى على قلوبنا تعني أنّه أنزل كتاباً ورسالة،

(١) سورة يس، آية: ٧٨.
(٢) سورة الأعراف، آية: ٥٤.
(٣) سورة ق، آية: ١٦.
(٤) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

وهـو الحاضر الناظر في وجود كلّ مخلـوق وليس خارجاً عنه، وهو الناظر على نوايا وخطرات الأذهان والقلوب. والشبهات التي تسري إلى خلد كل إنسان، هو عالم بها وناظر إليها.

لقد أنزل اللَّه لنا كتاباً لحل ما يطرأ علينا من شـبهات، والقرآن المجيد من شأنه معالجة المسائل الخطيرة والأساسية على المستوى العقائـدي، ويجابـه الوسـاوس الشـيطانية فيطردهـا، مضافـاً إلى أنّه يرسّـخ أسـس الإصلاح في ذهن ابن آدم وقلبه بحيـث تثبت لديه فلا ينساها.. وإنّ الذي تتمّ تربيته وتزكيته في هذه المدرسة الإلهيّة يكون قادراً على مواجهة الفتن والشبِهات المضلّة، فيردها وينتصر عليها.

وعلـى أيّـة حال؛ فإنّ شـبهة التشـكيك وإنـكار إمكانيّة البعث والنشـور شـبهة موجودة في أذهان بعض الناس. وهذه الآية الكريمة من جملة الآيات القرآنية التي اهتمّت بمعالجتها والقضاء عليها:

١ - ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

ونلاحظ أنّ أربع آيات من سـورة الروم المباركة ابتدأت باسم الجلالة (اللَّه) كاشارة إلى البدء بفصل جديد من البحث الإصلاحي لقلب الإنسان وذهنه:

الآية١١ : ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

الآية ٤٠ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾.

الآية ٤٨ : ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾.

الآيـة ٥٤: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾.

إنك إذا رأيت بناءً جميلاً جداً، ولكنك تجهل المهندس الذي

شـيّده، فيقال لـك: إنّه فلان. ولكنّـك إذا كنت تعرفـه إلّا أنّك تجهل منجزاته، هنا ستهتمّ بالبحث عن آثاره وليس اسمه وشخصه.

إنّ الإنسـان يـرى خلقـة السـماوات والأرض، ولكنـه قـد لا يعـرف بانيها وخالقها، فيتوجـب - والحال هـذي - أن يتعرّف إليه، فتقول الآية الكريمة: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

وردت فـي الآية كلمة ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾ ثم مرتيـن وردت كلمة ﴿ثُمَّ﴾ فنفهم أنّ هناك مراحل ثلاث في عملية الخلق.

تبـدأ المرحلـة الأولـى بخلـق الكائنات، وهـذه المرحلـة تطول وتسـتمرّ، وطولها يتضمـن مرحلة تكامليّـة في الخلق. فـإذا بلغت حداً مـن التكامـل، تهوي عنـد نقطة، وهذه هـي المرحلة الثانيـة، فإذا بلغت مستقرها تبدأ المرحلة الثالثة فترتفع مرّةً أخرى ويكون الرجوع الى اللّٰه.

لفهـم أصـل الخلقة نسـوق السـماوات والأرض مثـلاً: يقول الفيزيائيون المعاصرون بناءً على بعض المعطيات العلمية: إنَّ الكون الذي نعجز عن إدراك نهايته كانت بدايته ككرة صغيرة الحجم، فوقع فيهـا انفجـار مهيـب قبـل (١٥٠٠٠) إلـى (٢٠٠٠٠) مليـون سـنة. وبعـد ذلك الانفجار بدأ الكون بالتمدّد والتوسّـع، ففي لحظة واحدة تحولـت تلـك الكـرة الصغيرة الى هـذا العالـم الكبير. ويقـال لتلك اللحظة: لحظة الصفر.

يقـول تعالـى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

والرتـق يعنـي السـدّ والغلـق. والفتق يعنـي الفتح والتوسّـع.

(١) سورة الأنبياء، آية: ٣٠.

وطوال الــ(١٥٠٠٠) مليون عام ما يزال الكون في حال توسّع وتمدّد: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾(١).

وطبقاً لأحد التوقعات العلميّة، فإن الكون بحاجة إلى (١٥٠٠٠) مليون عام أخرى ليعود كما كان ويُغلق من جديد. ويصف اللّه تعالى لحظة إعادة الكون إلى نقطة البداية بقوله العزيز: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾(٢).

إنّ الإنسان قد يتصوّر أنّ العالم يبقى كما هو الآن، بينما هذه الآية الكريمة تؤكد أن اللّه سيطوي السماوات والأرض، وتعود صغيرة مطوية.

لقد خلق اللّه الإنسان ضمن إطار زمنيّ أيضاً مع أنّه القادر على أن يقول له: كن، فيكون. ولكنّه خلقه من نطفة صغيرة، وهيّأ لها الأرضية الدقيقة لتكون علقة، ثم مضغة، وهكذا حتى تصير جنيناً، فطفلاً، فشاباً، فشيخاً. وما كلّ هذا إلّا لكي نعرف اللّه ولا يدّعي ابن آدم أنّه وُجِد صدفةً، وهي مقولة باطلة ومستحيلة. إنّ هنالك الآلاف المؤلّفة من الحيامن السابحة في ضئيل من الماء، فلماذا يتمّ اختيار واحدة منها فتتلاقح مع بويضة المرأة فتكون جنيناً فيما بعد؟

وقد أصبح في متاح المرأة - اليوم - أن تعرف ما إذا كانت حاملاً أم لا، وذلك من خلال إختبار علمي بسيط، مع أنّ ما في بطنها ليس إلّا مجرد نطفة صغيرة جداً. لقد أعدّ اللّه تبارك اسمه بدن المرأة للحمل، فيتغيّر فيها كلّ شيء، ليست المرأة فقط، بل الرجل يعتريه التغيّر في شخصيته أيضاً، حيث يكون أباً ويتحمّل مسؤوليات الأبوّة.

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٤٧.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ١٠٤.

بـل حتى المطر لتنـزل قطراته وقد قـدَّر اللَّه لبعـض قطراته أن تكون رزقاً لهذا الجنين المتكوِّن في الرحم.

إنّ البحث فـي هذا عميق ودقيق للغاية، ولكننا نلاحظ الظاهر حيث تحدث التغيّرات الفسلجية والسايكلوجية (الجسمية والنفسية) فـي الأب، وهذا ما أثبته علم النفس وعلم الأعضاء، كذلك تجِد الأم تغيّـرات خاصة بها. ومع هـذه التغيّرات ينتظـران ولادة الجنين، فإذا وُلِدَ إهتما بتربيته ورعايته حتّى يبلغ أشـدّه. وجميع ذلك من شـأنه أن يذكّرنـا ويعرّفنا باللَّه البارئ المصوّر الـذي فعل كلّ ذلك، ولم يعمد إلى خلق ابن آدم في لحظة واحدة طبقاً لقانون (كن فيكون).

إنّ جميع الكائنات تتحرك ضمن نطاق التكامل، ولكنها تصل إلى حدٍّ ونقطة فتعود إلى ما كانت عليه بادئ ذي بدء.

والقـرآن المجيـد استعمل كلمـة (ثـمّ) مرّتيـن في هـذه الآية الكريمـة، فإذا إسـتغرقت (ثمّ) الأولـى (١٥٠٠٠) مليون سـنة، فإنّ الثانية ستستغرق المدة نفسها تقريباً.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الإنسان إذ أطّره اللَّه بقانون الانتكاس، فقال عزّ اسمه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾[1]. فيقصر وينحني بدنه وتترقّق عظامه وتقلّ خلايا دماغه ويلج في عالم النسيان، وعندما يمـوت الإنسـان تنعدم كل خلاياه، ما عدا خليـة واحدة تبقى محفوظة تحـت التـراب بقـدرة اللَّـه تعالى. وعنـد حلول يـوم القيامة يأمـر اللَّه سـبحانه الغيـوم بالمطر، فيهطـل في أربعيـن يوماً، فتنمو تلـك الخليّة الخاصّة بكلّ إنسـان من جديد، فتشبّ في لحظة واحدة، فتُبعث إنساناً كاملاً وتنشق عنه الأرض، فيبدأ عالم البعث والنشور، ثم يوم القيامة:

(١) سورة يس، آية: ٦٨.

٢ - ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

لا تعجبوا! ولا تقولوا: كيف يحدث كلّ هذا؟! ولا تنسوا أن اللّه بدأ خلق الإنسان من لا شيء: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ إذ جاء أحد الكفرة من قريش بعظم ساقٍ بشري وطرحه أمام رسول اللّه ﷺ وراح يضرب له مثلاً بهذا العظم ويتحدّاه قائلاً: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؟ وكيف سيكون هذا العظم البالي - الذي طحنه حتى سوّاه تراباً - جزءاً من إنسان سيُبعث في يوم القيامة؟ ولكنه نسي خلقته الأولى وكانت من عدم.

اعلموا إذن! أنّ للأمر بقيّة، فيوم القيامة سيُحشُر الجميع، ليس البشر وحده، بل حتى الوحوش لتتقاضى وتتداعى في محضر الرب العادل الحكيم. وهنالك يقف الكافر ويتفرّج فيقول: ﴿يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾[1] بعد أن يرى اللّه تعالى قد حوّل الوحوش تراباً بعد انتهاء محاكماتها وأخذ كلّ ذي حقٍّ حقّه.. ولكن عليه أن يعلم بأنّ مصيره ليس كمصير الوحوش، إذ سيُسأل لأنه مسؤول عن كل أعماله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[2].

وهنالك يعلّق سجل أعمال كلّ امرئ على عاتقه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾[3].

علينا أن نفكر دائماً: ما الذي سنواجهه حين نرجع الى اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[4].

---

(١) سورة النبأ، آية: ٤٠.
(٢) سورة الصافات، آية: ٢٤.
(٣) سورة الاسراء، آية: ١٣
(٤) سورة البقرة، آية: ٢٨

بصائر وسنن

١- إنّ هيمنة اللَّه تعالى على قلوبنا تعني أنّه أنزل كتاباً ورسالة، وهـو الحاضر الناظر في وجود كلّ مخلـوق وليس خارجاً عنه، وهو الناظر على نوايا وخطرات الأذهان والقلوب.

٢- إنّ جميـع الكائنات تتحرك ضمن نطـاق التكامل، ولكنها تصل إلى حدٍّ ونقطة فتعود إلى ما كانت عليه بادئ ذي بدء.

٣- علينا أن نفكر دائماً: ما الذي سنواجهه حين نرجع الى اللَّه تعالى.

يُبلس المجرمون

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢﴾.

من الحديث

جاء في كتاب كتبه أمير المؤمنين صلوات اللَّه عليه الى أهل مصر مع محمد بن أبي بكر:

«يَا عِبَادَ اللَّه، إِنَّ بَعْدَ الْبَعْثِ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنَ الْقَبْرِ.

يَوْمٌ يَشِيبُ فِيهِ الصَّغِيرُ، ويَسْكَرُ فِيهِ الْكَبِيرُ، ويَسْقُطُ فِيهِ الْجَنِينُ، وتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ.

يَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ.

يَوْمٌ كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً.

إِنَّ فَزَعَ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَيُرْهِبُ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ لَا ذَنْب لَهُمْ، وتَرْعُدُ مِنْهُ السَّبْعُ الشِّدَادُ والْجِبَالُ الْأَوْتَادُ والْأَرْضُ الْمِهَادُ، وتَنْشَقُّ السَّمَاءُ، فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ، وتَتَغَيَّرُ فَكَأَنَّهَا وَرْدَةً كَالدِّهانِ، وتَكُونُ الْجِبَالُ سَرَاباً

مَهِيـلًا بَعْـدَ مَا كَانَـتْ صُمّاً صِلَابـاً، ويُنْفَخُ فِـي الصُّورِ فَيَفْـزَعُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّه،

فَكَيْـفَ مَـنْ عَصَى بِالسَّـمْعِ والْبَصَـرِ واللِّسَـانِ والْيَـدِ والرِّجْلِ والْفَـرْجِ والْبَطْنِ إِنْ لَمْ يَغْفِرِ اللَّه لَهُ ويَرْحَمْهُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ؟ لِأَنَّهُ يَصِيرُ إِلَى غَيْرِهِ..

إِلَى نَارٍ قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وحَرُّهَا شَـدِيدٌ، وشَـرَابُهَا صَدِيدٌ، وعَذَابُهَا جَدِيدٌ، ومَقَامِعُهَا حَدِيدٌ، لَا يُغَيَّرُ عَذَابُهَا، ولَا يَمُوتُ سَاكِنُهَا. دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ ولَا تُسْمَعُ لِأَهْلِهَا دَعْوَة...»[1].

تفصيل القول

تمثل موضوعات المبدأ والمعاد العمود الفقري لسـورة الروم الجليلـة، وفي هـذه الآية تتواصل هذه الموضوعـات التي بدأت منذ مطلع السورة، وتعود بنا هذه الآية إلى يوم القيامة، وتصوّر لقطة أليمة عن حال المجرمين في ذلك اليوم الرهيب:

١ - ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

ماذا تعني كلمة ﴿يُبۡلِسُ﴾؟

جاء فـي كتب اللغـة: أبلس الرجل إبلاسـاً: سـكت، وأبلس: يئس وندم وتحيّر. وقيل للذي يسـكت عنـد انقطاع حجته ولا يكون عنـده جواب: قـد أبلس[2]. فإبـلاس المجرم يعني أنه لا يسـتطيع أن

(١) بحار الأنوار، ج٧، ص١٠٣، ح١٦.
(٢) انظر: لسان العرب، ج٦، ص٣٠. و: المصباح المنير [أحمد الفيومي] عند كلمة (بَلَسَ).

يدافع عن نفسه ولا يحري جواباً، فإنْ قال: لم أفعل، شهد عليه اللَّه والملائكة والأرض وجوارحه وأعضائه، وإن أقرّ واعترف، قيل له: سحقاً لأصحاب السعير، ولذلك فإنَّ عقله يتوقف عن التفكير.

فالكلمة وموارد استعمالها تشير إلى أنَّ ﴿يُبۡلِسُ﴾ بمعنى الوصول إلى الصفر، فلا تصدر عن المجرم أيّ ردّة فعل، فلا يتكلّم ولا يتحرّك، لأنه آيس من أعماله.

وإنّ للمجرمين الحقّ في ذلك اليوم أن ييأسوا ويحزنوا ويتحيّروا، لأنّهم لم يحملوا معهم بضاعة صالحة إلى ساحة المحشر، كما أنهم ينظرون إلى ما حولهم؛ فلا يجدون ناصراً ولا شفيعاً ولا فرصة للعودة إلى الدنيا والتعويض عمّا قصّروا فيها.

وبعد أن يتحيّر المجرم ويسكت، إذا به يصرخ دفعةً واحدة بالذين اتّبعهم في دار الدنيا ليغيثوه، ولكنّه يعود إلى رشده بعد هنيئة ليجد أنْ لا أحد منهم يغيثونه، إذ هم في شغل شاغلٍ عنه، فلا يجيبونه، فلا يبقى لديه سوى الحسرة والحيرة: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ﴾[1]. إذ ذاك سيشهد المجرمون يوماً عصيباً.

قيام الساعة

٢ - ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾

ماذا تعني (تقوم) و(الساعة)؟ وهل للساعة والزمان قيام؟!

إنَّ مفردة اليوم والساعة تحكي زمانية واقعة الآخرة، وهناك معانٍ عدة لقيام الساعة.

(١) سورة الروم، آية: ١٣.

فكلمة (ساعة) تُطلق على جزء من الزمن، وقد عُبّر بالساعة عن القيامة، وحسب الآيات القرآنيّة، فإنَّ الساعة اسم للزمن الذي تُطلق فيه صيحة نهاية الحياة الدنيا حيث يموت الجميع ويُصعقون، وكذلك هي إسم للحظة الحشر التي يُنشر فيها الموتى ويُبعثون إلى يوم القيامة.

وقد ورد هذا المعنى في آيات عديدة، مثل: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾(١). ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾(٢). ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾(٣).

واستخدمت مفردة (الساعة) في القرآن بمعنى القيامة غالباً، وهذا هو المعنى المراد بها في هذه الآية.

إنّ سبب التعبير بالساعة عن يوم القيامة إمّا لكون القيامة تحدث فجأة وفي لحظة واحدة، أي في مدة زمنية قصيرة، وإمّا للسرعة التي ستجري في محاسبة الناس، إذ اللَّه تعالى سريع الحساب وهو سبحانه ﴿أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾(٤).

والأهمّ من ذلك، أنّ القيامة بحدّ ذاتها تقوم أيضاً: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي تبرز للعيان وتظهر قائمة، لا أنها توجد في ذلك اليوم. ولهذا يمكن تصوّر أنَّ القيامة موجودة في الوقت الحاضر، وستقوم أي تظهر في تلك المرحلة.

ولقد روي عن النبيّ المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أنّه رأى الجنّة والنار في سفره إلى المعراج، ولهذا جاء في حديث عن الإمام الرضا عليه السلام

(١) سورة القمر، آية: ١.
(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٧.
(٣) سورة الزخرف، آية: ٨٥.
(٤) سورة الأنعام، آية: ٦٢.

حين قال له أحد أصحابه: يا بن رسول اللَّه، فأخبرني عن الجنة والنار أهما اليوم مخلوقتان؟ فقال: «**نَعَمْ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّه قَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَرَأَى النَّارَ لَمَّا عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ**». فقلت له: إنَّ قوماً يقولون: إنهما اليوم مقدرتان غير مخلوقتين. فقال عليه السلام: «**مَا أُولَئِكَ مِنَّا وَلَا نَحْنُ مِنْهُمْ، مَنْ أَنْكَرَ خَلْقَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَقَدْ كَذَّبَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم وَكَذَّبَنَا وَلَيْسَ مِنْ وَلَايَتِنَا عَلَى شَيْءٍ وَخُلِّدَ فِي نَارِ جَهَنَّم**»(١).

إنّ العلّة في الإكثار من ذكر القيامة وتفاصيلها في كتاب ربّنا المجيد، هو - فضلاً عن دورها التربوي - أنّ النبيّ صلوات اللَّه عليه وآله كان كثيراً ما يُسأل عن القيامة: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾(٢).

فالآية المباركة أعلاه تشير إلى أنّ الناس يسألون النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنها لا تفصّل القول في طبيعة السؤال، ولكنّ التعبير عن القيامة بالساعة يوحي إلى أنّ السؤال ذاك كان عن موعد حدوث يوم القيامة، وقد أوحى اللَّه العظيم لرسوله المصطفى أن يرجع السائلين عن موعد القيامة إليه، فهو سبحانه الوحيد الذي يعلم بلحظة وقوعها. وهذا هو الجواب الوحيد الذي تطرحه آيات القرآن الخاصة بموعد القيامة.

وجملة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ..﴾ الختاميّة في الآية تزيد الإبهام والمجهولية في مسألة موعد القيامة، لتشير إلى أنّ الرسول - في هذه المسألة - كباقي الناس. وأنّ القيامة ليست من الأسرار التي أخفاها اللَّه تعالى عن الناس، وكشفها لرسوله الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) عيون أخبار الرضا، ج١، ص١٦٠.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٦٣.

وعلى أيّة حال؛ إنّ الإيمان بالقيامة من جملة الضرورات العقائدية، ويمكن إثبات أصل المعاد بالدليل النقلي والبرهان العقلي: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾[(١)]. إلاّ أنّ خصوصيّاتها وتفاصيلها، مثل: سعة الجنة، أو مراحل يوم القيامة وحقيقتها، وما شابه ذلك من التفاصيل لا تتّسع لها مساحة العقل البشري قبل أن يشاهدها.

بصائر وسنن

١- إبلاس المجرم يعني أنه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه ولا يحري جواباً، فإنْ قال: لم أفعل، شهد عليه اللَّه والملائكة والأرض وجوارحه وأعضاؤه، وإن أقرّ واعترف، قيل له: سحقاً لأصحاب السعير، ولذلك فإنَّ عقله يتوقف عن التفكير.

٢- للمجرمين الحقّ في يوم القيامة أن ييأسوا ويحزنوا ويتحيّروا، لأنّهم لم يحملوا معهم بضاعة صالحة إلى ساحة المحشر، كما أنهم ينظرون إلى ما حولهم؛ فلا يجدون ناصراً ولا شفيعاً ولا فرصة للعودة إلى الدنيا والتعويض عمّا قصّروا فيها.

(١) سورة الحج، آية: ٧.

لا شفعاء في القيامة

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ١٣﴾.

من الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لَا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ، والشَّفَاعَةُ لِلْأَنْبِيَاءِ والْأَوْصِيَاءِ والْمُؤْمِنِينَ والْمَلَائِكَةِ، وفِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَشْفَعُ مِثْلَ رَبِيعَةَ ومُضَرَ، وأَقَلُّ الْمُؤْمِنِينَ شَفَاعَةً مَنْ يَشْفَعُ لِثَلَاثِينَ إِنْسَاناً، والشَّفَاعَةُ لَا تَكُونُ لِأَهْلِ الشَّكِّ والشِّرْكِ، ولَا لِأَهْلِ الْكُفْرِ والْجُحُودِ، بَلْ يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيد»[(١)].

تفصيل القول

يُساق المجرمون إلى ساحة المحشر في يوم القيامة حيث لا

(١) بحار الأنوار، ج٨، ص٥٨، ح٧٥.

ناصرَ ولا معينَ لهم، ولا فرصةَ لهم في العودة إلى الدنيا أو استئناف العمل، وهم كانوا يظنّون أنّ الشركاء الذين اتخذوهم أرباباً من دون اللَّه تعالى سيشفعون لهم، وأنهم قادرون وعالمون كما الرب المتعال. وإنّ من الطبيعي أن يتشبّث المشرِك بما وبمن أشرك حين الضنك والضيق، سواء كان الشريك طاغوتاً أو مجتمعاً أو هوىً نفسانيّاً. ولكن ماذا يسع الشركاء أن يفعلوا آنذاك؟! إنهم سيفرّون ممن أشركهم مع اللَّه عزّ وجل من المجرمين، فلا يدافعون عنهم ولا يتحمّلون مسؤوليةً دونهم.

إنّ فطرة الانسان تكشف عن ضعفه وعجزه، وهو يدرك مدى حاجته إلى من يلجأ إليه ويستعين به في ساعة الحاجة، ولكنّ الشيطان يضلّه ويوجهه إلى التشبّت بالأصنام العاجزة بدلاً عن الركون إلى القدرة الإلهيّة، وفي يوم المحشر سيرى المشرك الجاهل مدى خسرانه من جهة ومدى الضعف الذي يضجّ منه ما أشرك به من دون اللَّه واعتمده في دار الدنيا من جهة أخرى. وهنالك سيتذكّر ما كان الأنبياء يرشدونه اليه، وأنهم كانوا يريدون نفعه، غير أنّه لم يصغ لهم.

حين كان الرسول الأكرم ﷺ يسأل المشركين عن عبادتهم للأصنام وتقديسهم للأوثان، كانوا يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[1]، ولكن حين تقوم القيامة ويحاول المجرمون العثور على شركائهم، فإنهم لا يجدون لهم أثراً.

إنّ الجهل والغفلة هما السبب في أن يتحدى المرء ربّه فيعصيه، وها هو الآن يقف في محشر القيامة يتوقّع من شركائه ومن

---

(١) سورة يونس، آية: ١٨.

الذين عبدهم وتبعهم أن يشفعوا له، فيكتشف على حين غرّة عجزهم المطلق وانعدام صلاحيّتهم في الشفاعة:

١ - ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَآؤُا۟﴾

هنالك تبلى السرائر، وتتكشّف الحقائق، فيكفر الشريك بشريكه، ويتبرّأ الواحد من الآخر:

٢ - ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

ولِمَ لا يكفرون بهم؟! فهم ليس يرون عجز الشركاء عن شفاعتهم فحسب، بل يرون تكذيبهم إياهم أيضاً، حيث يقول الشفعاء: ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[1]، وإنما كانوا يتّبعون أهواءهم، ويبرّرون انسياقهم لأنفسهم الأمّارة بالسوء بنا، ليتهرّبوا من الحقّ. بل إنّ تلك الأصنام وسائر المعبودات من دون اللّه سيشمّرون عن سواعد العداء لمن يتوقّع شفاعتهم. مضافاً إلى أنَّ الشركاء سيعمدون إلى فضح عابديهم في الدنيا: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[2]. ولكن أنّى لهم النفع وقد تأخّروا جداً في إدراك الحقيقة، وأنه لا إله إلا اللّه في السماوات والأرض وفي الدنيا والآخرة.

في معنى الشفاعة

جذر (الشفاعةِ) (الشفعُ) بمعنى (الزوج) ويرد أيضاً بمعنى الضميمة وانضمام شيءٍ الى شيءٍ آخر، ويُطلق على الوساطة والدعم والحماية من قبل شخص لآخر[3].

---

(١) سورة القصص، آية: ٦٣.
(٢) سورة الأحقاف، آية: ٦.
(٣) المفردات للراغب، ج١، ص٤٥٧ (شفع). و: المنجد في اللغة، (شَفَعَ).

وفـي العرف العـام تعني الشـفاعة أن يسـخّر شـخص منصبه ونفوذه لمصلحة شـخص آخـر، فيؤثّر في تغيير موقف سـلطة قاهرة بالنسـبة لمعاقبته ويجرّ له النفع والفائدة، وليس لهذه الشـفاعة ملاك معقول، وهي تتمّ بأيّة صورة كانت.

إلاّ أنّ هذا الشـكل من الشـفاعة لا يتفق مع مدرسة أهل البيت عليهم السلام. بـل إنّ الشـفاعة فـي نهجهم هـي الشـفاعة القرآنيّة التـي تُعدّ مدرسة تربوية لإصلاح الأفراد المذنبين وإعادتهم إلى ربّهم المتعال.

أمّـا الذيـن يذهبون إلى أنّ الاعتقاد بالشـفاعة يوجب تضعيف الإقبال على أداء الواجبات والأحكام الشرعيّة، فهم لم يدركوا معنى الشفاعة الحقّة. صحيح أنّ نظام العقوبة الإلهيّة يضمن تنفيذ الأحكام والقوانيـن؛ وبالنتيجة يصبّ في مصلحة التقدّم والتكامل الإنسـاني، وصحيح أنّ كلّ تفكير أو منهج يضعّف هذا الضمان يعارض الحكمة والسُـنّة الإلهيّـة، وهـو مرفـوض قطعاً. ولكـن من جهة أخـرى، فإن تيئيـس العبـاد المذنبين أمر حرام، بينما تشـجيعهم علـى الأمل باللّه تعالى والعودة إليه أمر مطلوب للغاية ومن السنن الإلهية.

إذن؛ فصحيح أنّ (الشـفاعة) بمعناها الشـركي توجب الجرأة علـى ارتكاب الذنـب، ولكنها بمعناها الصحيح تجري ضمن مسـار حفظ التعادل وإصلاح عباد اللّه تعالى.

إنّ عـدم التفكيـك بيـن المعنـى الصحيـح والمعنـى الخطـأ للشـفاعة تسـبّب في أن يتصوّر البعض أنّ الشـفاعة هـي نفس عملية التوسّـط والتذلّل لدى السـلاطين والحكام الجائرين لإنقاذ المجرم مـن العقوبة، فيقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[1] ثم يرتكبون كلّ

(١) سورة يونس، آية: ١٨.

سـوء، وفي المقابل هناك من ينكر الشـفاعة كلّ الإنـكار ويرفع لافتة ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾[1]. ويفسـرها بالتغاضـي عـن سـائر الآيـات القرآنية الاخرى.

إنّ الجهـل وانحـراف القلب دفعـا بالبعض إلـى اعتبار حقيقة الشـفاعة المؤثّرة في الإصلاح الاجتماعي والفكري؛ عقيدة شركيّة، وهـم لـم يفقهـوا أنّ الشـفاعة حاجة فطرية سـليمة، إنما المشـركون فهموها فهماً خاطئاً. إنّ القليل من التأملّ والتدبر يكشف لنا الفلسفة الاجتماعيّة والنفسيّة للشفاعة.

الشفاعة في مواجهة اليأس

وعموماً، فإنّ الايمان بأصل الشفاعة يمكن أن يمنح المجتمع الكثير من الفوائد، وأن يكون عاملاً لنجاة المؤمنين بها من الهلكة.

إن الشـفاعة تعـد عاملاً هامّـاً لمواجهـة روح اليـأس، فالذين يرتكبـون الجرائم والذنوب الكبيرة تراهـم يعانون تأنيب الضمير من جهة، ويغرقون – من جهة أخرى – في اليأس من العفو والمغفرة من قبـل اللّه سـبحانه، وحيث يجـدون طرق الأوبة مغلّقـة في وجوههم تجدهم غير مسـتعدّين لتغيير سـلوكهم. إنّهم ومع ما يرون من ظلمة مستقبلهم واليأس من الرحمة الالهية قد يقدمون على جرائم وخطايا أكبر، فيبرّرون لأنفسـهم حرية العمل الخاطئ بأنه لا نفع يعود عليهم مـن الالتـزام بالقوانيـن والأحكام، شـأنهم فـي ذلك شـأن المريض اليائـس مـن عافيته، فتجده يتجـاوز قيود الحمية الصحيّـة، لظنّه عدم الانتفاع بها.

(١) سورة البقرة، آية: ٤٨.

إنّ تأنيب الضمير الناشئ عن ارتكاب الذنوب والجرائم قد يؤدي الى الأمراض النفسيّة أو تحريك مشاعر الانتقام من المجتمع الذي يظن فيه السبب في تلويثه بالذنوب، وهكذا يصبح المذنب عنصراً خطيراً، بل ويتحوّل إلى مصدر ازعاج وتدمير للمجتمع.

أمّا الإيمان بالشفاعة؛ فإنه يفتح كوّة من النور في حياة الفرد المذنب، فيأمل الرحمة والمغفرة، مما يدفعه إلى ضبط نفسه والسيطرة على سلوكه، فيغيّرهما باتّجاه الأحسن وباتّجاه التعويض عمّا فاته، ولا يثير فيه مشاعر الثأر والانتقام، ويكرّس فيه الثقة والراحة النفسية، حتى يتحوّل إلى عنصر سالم وصالح.

وعلى هذا، فإنْ ذهبنا إلى أنّ الإيمان بالشفاعة بمعناها الإيجابي والصحيح بمثابة عامل بنّاء ومفيد وقادر على تغيير روح الفرد العاصي والمذنب إلى روح ايجابية صالحة، فإنّا لم نجانب الحقيقة بوجه من الوجوه. ولذا؛ نلاحظ أنّ كثيراً من القوانين الوضعية أيضاً، قد أولت فتح كوّة الشفاعة والعفو حتّى عن المحكومين بالسجن المؤبّد، تحاشياً لتسلّل اليأس إليهم؛ وتحويلهم الى مصادر الخطر والايذاء حتى داخل السجن، أو إصابتهم بالأمراض النفسية.

شروط الشفاعة

يجدر الذكر أنّ الشفاعة بالمعنى الصحيح ذات شروط عديدة، والذين يؤمنون بها ملزمون بتوفير هذه الشروط لكي تشملهم، كأنْ يتورّعوا عن الذنوب التي تتعارض مع الشفاعة (كالظلم)، وأنْ يهتموا بتغيير واقعهم بشكل عام وعميق ليبدؤوا حياةً جديدة تائبين عن ارتكاب المعاصي، أو يجعلوا أنفسهم على أبواب التوبة دوماً، وأنْ يتوقفوا عن تجاوز الحدود الإلهيّة، وأنْ يحيوا في أنفسهم الإيمان

باللّٰه ويوم القيامة، وأنْ يجعلوا لأحكام الربّ الكريم حرمةً واحتراماً متواصلاً في حياتهم.

ومـن جهة أخـرى؛ على المؤمنيـن بالشـفاعة أن يتّخذوا ممن يعتقـدون بشـفاعته أسـوة حسـنة، ويوطّـدوا العلاقـة معـه، فيجعلوا حياتهم شبيهة بحياة من له مقام الشفاعة ولو بدرجة ضعيفة حتى.

إذن؛ لا يبقى مجال للشـكّ بأنّ للشفاعة بالمعنى الصحيح هذا دوراً مؤثّراً في واقع المذنبين وإصلاح حالتهم.

ثـم إنّنـا لا نؤمن – فيما يتعلّق بدائرة الشـفاعة – بامكانية تغيير علم اللّٰه تعالى، أو أنّ شفاعة الشفيع ستكشف له سبحانه أمراً مجهولاً بالنسـبة له عن المشـفوع. ولا نؤمـن بمُبدِىءٍ في الكـون غيره تعالى يمكن له أن يسـكّن غضب اللّٰه تعالى تجـاه مجرم من المجرمين، أو يسـتقطب محبتـه له. كما لا نعتقـد بأنّ اللّٰه قد يحتـاج أحداً من خلقه فيقبـل شـفاعته لحاجـة منه إليه في شـخص مـن الأشـخاص، أو أنّه سـبحانه وتعالى يخشـى أحد الوسائط؛ فيقبل شـفاعته.. إنّ كلّ هذه أفكار شركية تنأى بنا عن أصل التوحيد ومعرفة اللّٰه سبحانه وتعالى، وتلقـي بنـا إلـى أوديـة الشـرك المظلمـة. وهذا كلّه تفسـير سـطحي وخاطـئ عن الشـفاعة، بينمـا الشـفاعة بالمعنـى الصحيح مـع توفّر خصوصيّاتهـا ومميّزاتها التي تمّت الإشـارة إليها بعيدة كل البُعد عن الأفكار الخاطئة التي ذكرناها.

فهـذا النوع من الشـفاعة لا يشـجّع على ارتـكاب الذنب أبداً، بل هو وسـيلة مجدية لترك الذنب. ولا يدعو إلى الترهل والتكاسـل، بـل يخلق روح الرجـاء والأمل، ويعبّئ طاقات الإنسـان لجبر ما فاته وإصـلاح مـا أفسـد. ولا علاقة لـه أبـداً بالمجتمعـات المتخلِّفة، بل

وسيلة تربويّة مؤثّرة لإصلاح ذات المجرمين والمذنبين والمعتدين.

إنّ هذه الشفاعة لا علاقة لها بالشرك، ليس هذا فحسب بل هي عين توحيد اللَّه والتوجه اليه، والإستعانة بصفاته بإذنه وبأمره سبحانه وتعالى.

أما أزمة المشركين؛ فكانت إيمانهم بشفاعة الأوثان والمعبودين بالباطل، وهي موجودات وصفها اللَّه تعالى بقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾[1]. فهم غير جديرين بأن يكونوا من ذوي مقام الشفاعة وعاجزون عن أن يفعلوا شيئاً لأنفسهم، ناهيك عن أن ينفعوا غيرهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[2]. ولهذا فهم ينزعجون منهم في يوم القيامة كلّ الانزعاج، حتى أنهم ليكفرون بهم: ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

وهكذا يكون القياس بين هذه الموجودات العاجزة الباطلة وبين اللَّه القادر المتعال والمحبوبين لديه والمأذونين من قبله في الشفاعة أمراً خاطئاً ونابعاً من الجهل.

بصائر وسنن

١ - إنّ الجهل والغفلة هما السبب في أن يتحدى المرء ربّه فيعصيه، وها هو الآن يقف في القيامة متوقّعاً من الذين عبدهم من دون اللَّه أن يشفعوا له، فيكتشف على حين غرّة عجزهم المطلق

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٤.

(٢) سورة يونس، آية: ١٨.

وانعدام صلاحيّتهم في الشفاعة.

٢- صحيح أنّ (الشفاعة) بمعناها الشركي توجب الجرأة على ارتـكاب الذنب، ولكنها بمعناها الصحيح تجري ضمن مسـار حفظ التعادل وإصلاح عباد اللّٰه تعالى.

٣- إنّ الإيمان بالشـفاعة بمعناها الإيجابـي والصحيح بمثابة عامـل بنّاء ومفيد وقـادر على تغيير روح الفرد العاصي والمذنب إلى روح ايجابية صالحة.

عند قيام الساعة يتفرق المشركون

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤﴾.

من الحديث

في تفسير القمي، قَالَ: «**إِذَا جَمَعَ اللَّـه الْخَلْقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَقُوا قِيَاماً عَلَى أَقْدَامِهِـمْ حَتَّى يُلْجِمَهُـمُ الْعَرَقُ، فَيُنَادُوا: يَا رَبِّ حَاسِبْنَا وَلَوْ إِلَى النَّارِ. قَالَ: فَيَبْعَثُ اللَّـه رِيَاحاً فَيَضْرِبُ بَيْنَهُـمْ، وَيُنَادِي مُنَادٍ: وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ. فَيَمِيزُ بَيْنَهُمْ، فَصَارَ الْمُجْرِمُونَ فِي النَّارِ، وَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ إِيمَانٌ صَارَ إِلَى الْجَنَّةِ**»(١).

تفصيل القول

إحدى مشاكلنا الكبيرة في الدنيا عدم الرؤية الصحيحة للحقّ والباطل. فالفاصلة بين الحُسن والقُبح ليست واضحة بدرجة كبيرة، والاختلاف بين الخير والشر ليست كبيرة - في الظاهر -. هذا هو

(١) بحار الأنوار، ج٧، ص١٠٣، ح١٤.

أساس الدنيا؛ وأهلها مثلها.

إنّنـا نلاحـظ في الدنيا أنّ البعـض إذا فعلوا سـوءاً، زاد اللّه في عطائـه لهـم وضاعـف نعمه عليهـم ليمتحنهـم: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(١). والمـدّ في الغيِّ والطغيان أمـر في غاية الخطورة. وقد ورد فـي المأثـور عن الإمام علي عليه السلام قولـه: «**يَا ابْـنَ آدَمَ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْه**»(٢). وهذه تسمّى بحالة الإملاء والإمهال. وعن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً: «**كَمْ مِنْ مُسْـتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَـانِ إِلَيْهِ، وكَمْ مِنْ مَغْرُورٍ بِالسَّـتْرِ عَلَيْهِ، وكَمْ مِنْ مَفْتُونٍ بِحُسْـنِ الْقَوْلِ فِيهِ، ومَا ابْتَلَى اللّه عَبْداً بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ، قَالَ اللّه عَزَّ وجَلَّ**: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾(٣)»(٤).

وعلـى عكس هذا البعض، هناك من يسـيء فيعاقَب من فوره، فعليـه أن يحمـد اللّه تعالى، لأنّه نبّهه ولـم يسـمح له أن يستشـري في الشرّ والسوء.

إنّ طبيعة الدنيا ضبابيّة، لا تسألوا: لـمَ؟ هكذا يجب أن تكون، ولا بـد أن يكون الحق والباطل معـاً؛ وقريبَين من بعضهما لكي يبذل الإنسان الطالب للحق قصارى جهده وسعيه للوصول الى الحق.

طريق معرفة الحقّ

لهـذا السـعي وبذل الجهـد مراحـل وأنـواع، إلّا أنّ أهمها هو الجهـد والسـعي فكريـاً لتمييـز الحقّ عـن الباطـل. ينبغـي مصارعة

(١) سورة البقرة، آية: ١٥.
(٢) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، قصار الحكم، رقم ٢٥، ص٤٧٢.
(٣) سورة آل عمران، آية: ١٧٨.
(٤) تحف العقول، ص٢٠٣.

الشيطان ومناجزته من الداخل، وطرد الوساوس الشيطانيّة عن روع الإنسان لتتحرّر روحه، ومع انطلاق الروح وانعتاقها تزول الشبهات وتتوفر طاقة الحركة باتّجاه الحق.

ومع النزوع إلى الإيمان والحقّ يثور شياطين الإنس، ويبدأ الصراع معهم. فالمرء إذا ما جاهد نفسه، لا بد له من مناجزة شياطين الإنس أيضاً، خصوصاً وأنّهم قريبون جداً من ابن آدم، يقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾[1]. فقد يكون ابن الرجل شيطانه وعدواً لدوداً له، وكذلك امرأته.. فهما قد يتكلّمان، ولكن عن لسان الشيطان الذي هو أعدى أعداء الإنسان، وقد ورد في الدعاء: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ صَاحِبِ سَوْءٍ فِي الْمَغِيبِ وَالْمَحْضَرِ... ومِنْ صَاحِبِ يُغْوِينِي**»[2]. وهذا الصاحب قد يكون ابناً أو زوجة أو غيرهما من الأقربين.

لقد كان الزبير بن العوام في أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام؛ حتى شبّ ابنه عبد اللّه، فأغواه، فيما أغوى العاص ابنه عمرو، وهذا الأخير أغواه ابنه.

كان عمرو بن العاص في فلسطين، فكتب إليه معاوية يستقدمه في أمرٍ عاجل، فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه: عبد اللّه بن عمرو، ومحمد بن عمرو، فقال لهما: ما تريان؟

فقال عبد اللّه: أرى أن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قُبِض وهو عنك راض، والخليفتان من بعده، وقُتِل عثمان وأنت عنه غائب، فَقِر في منزلك، فلست مجعولا خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية

(١) سورة التغابن، آية: ١٤.
(٢) بحار الأنوار، ج٩١، ص٢٤٠.

لمعاوية على دنيا قليلة، أوشكتما أن تهلكا، فتستويا في عقابها.

وقال محمد: أرى أنك شيخ قريش، وصاحب أمرها، وإن تصرم هذا الامر وأنت فيه غافل، تصاغر أمرك، فالحق بجماعة أهل الشام، وكن يداً من أيديها، طالباً بدم عثمان، فإنه سيقوم بذلك بنو أمية.

فقال عمرو: أما أنت يا عبد اللّه، فأمرتني بما هو خير لي في ديني، وأنت يا محمد فأمرتني بما هو خير لي في دنياي، وأنا ناظر[1]. ثم إنّه انطلق إلى مصر فيما بعد وقتل والي أمير المؤمنين عليه السلام؛ محمد بن أبي بكر رضوان اللّه عليه، واستولى على السلطة هناك.

لا تقل - دوماً - هذه زوجتي، أو ولدي، أو قريبي، فهم إذن خير مستشارين لي، إنّما عليك أن تبحث عن إنسان مؤمن طيب تستشيره في أمورك.

حقائق عن الآخرة

هذه هي الدنيا على أيّة حال، ولكنّ الآخرة شيءٌ آخر، إذ كلّ شيء فيها واضح محدّد:

١ - ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾[2].

والساعة - كما أشرنا سابقاً - هي برهة زمنية، دقيقة أو يوم أو غير ذلك، ولعلَّ المراد بها في هذه الآية: يوم تنتهي فيه الدنيا. ولهذا اليوم أسماء متعدّدة: القيامة، والبعث، والنشور، وكذلك الساعة.

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٢، ص٦٣. و: الإمامة والسياسة، لابن قتيبة، ج١، ص٨٧.
(٢) سورة الروم، آية: ١٤.

وعبارة: ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ تشير إلى أنَّ في يوم القيامة يحدث نوع انفصال وتفرّق بين الناس، مثال ذلك: تفرق الأخيار عن الأشرار. فالقيامة من جهة هي: ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾[١] وهي من جانب آخر: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾[٢]، إذ أنها تجمع الأبرار مع الأبرار، وتفصل بين الأبرار والفجّار، حتى بين الفجّار أنفسهم.

وتوحي كلمة ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ أنّ يوم القيامة يوم التفرّق والانفصال في العلاقات غير الإلهيّة. فلا يدافع مجرمٌ عن مجرمٍ كما كانا في الدنيا.

إنّ تفرّق وانفصال المجرمين والمشركين عن بعضهم البعض يصفه القرآن بقوله:

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[٣].

إنّ الحالة المزرية التي يواجهها المشركون في يوم القيامة من التفرّق والتلاعن يصفها النبي ابراهيم عليه السلام مخاطباً قومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[٤].

أما البُعد الآخر لهذا التفرّق في الخلق يوم القيامة؛ فهو التفرّق بين الصالحين والمجرمين، فواحدٌ إلى الجنّة وآخر إلى النار.

(١) سورة الشورى، آية: ٧.
(٢) سورة الصافات، آية: ٢١.
(٣) سورة عبس، آية: ٣٧.
(٤) سورة العنكبوت، آية: ٢٥.

وضرورة هذا التمايز في الحياة هي الحقيقة التي ساقها القرآن الكريم برهاناً على إثبات المعاد، حيث يقول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

بصائر وسنن

١- إنّ طبيعة الدنيا ضبابيّة، حيث يختلط الحق والباطل، ولا بد أن يكونا معاً وقريبين من بعضهما لكي يبذل الإنسان الطالب للحق قصارى جهده وسعيه للوصول الى الحق.

٢- يوم القيامة يوم التفرّق والانفصال في العلاقات غير الإلهيّة، فلا يدافع مجرمٌ عن مجرمٍ كما كانا في الدنيا.

(١) سورة الجاثية، آية: ٢١.

المؤمنون في روضةٍ يحبرون

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾.

من الحديث

روى أبو أمامة الباهلي عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا وَيَجْلِسُ عِنْدَ رَأْسِهِ وَعِنْدَ رِجْلَيْه ثِنْتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ تُغَنِّيَانِهِ بِأَحْسَنِ صَوْتٍ سَمِعَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، وَلَيْسَ بِمِزْمَارِ الشَّيْطَانِ، وَلَكِنْ بِتَمْجِيدِ اللَّه وَتَقْدِيسِهِ**»[1].

تفصيل القول

القيامة يوم التفرّق والانفصال كما ذكر ربّنا المتعال في الآية السابقة، وفي هذه الآية يبيّن كيفيّة هذا الانفصال.

(١) بحار الأنوار، ج٨، ص١٩٥-١٩٦.

وكلمة ﴿رَوۡضَةٖ﴾ تعني: البُستان المتناهي منظراً وطيباً[1].

كما أنّ الروضة تعني المكان المحفوف بالاشجار والأنهار، وتطلق على الحديقة الخضراء أيضاً. وقد وردت الكلمة بصيغة النكرة لتدلّ على عظمة وسعة النعمة، ولتشير إلى أنّ المؤمنين سيقيمون في أفضل وأروع الرياض النضرة، غارقين في النعم والسرور. إنّها رياض يستحيل وصفها لأهل الأرض على وجه الدقّة والتفصيل.

أما كلمة ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ فهي مشتقة من (الحِبر) وتعني - في اللغة -: الحُسْن، والسرور، والنعمة. وتُستعمل بمعنى الصلاح الذي يستحسنه الجميع. إذن:

١ - ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾

أي أنهم في رياضٍ يفرحون حتى ليتّضح أثر الفرح والسرور على وجوههم.

وقال بعضٌ: الحِبر، هو تمام النعمة وكمالها، فهم يُحبرون ويتنعمون في كلّ النعيم، إذ في الجنة ما تشتهي الأنفس[2].

وضع المؤمنين في القيامة

من خلال معنى ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ يُعلم أن للمؤمنين الصالحين علامات تجعلهم في غاية الجمال، ولعلّ المقصود هنا أنّ وجوههم مفعمة بالراحة، وأنّ الاطمئنان يرتسم على وجوههم. هذا فضلاً عن أنّ قلوبهم تفيض بالسرور الذي يملأ كلّ كيانهم.

(١) مجمع البيان للطبرسي، ج٨، ص٥٠.
(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور، ج٤، ص١٥٨.

ويبدو من الروايات أنَّ نغمات الجنة وألحانها التي تبعث السرور والبشاشة في نفوس أهل الجنة وتظهر آثارها على وجوههم، هي على نوعين: الأصوات الصادرة عن الطبيعة في الجنّة، كأصوات طيور الجنة، وخرير مياه أنهارها وشلّالاتها، وأصوات اصطكاك أوراق الأشجار، وهبوب النسيم ومروره بين جدائل الأشجار وأوراقها. أما النوع الآخر فهو غناء وموسيقى الحور وأهل الجنّة وألحانهم.

وحسب بعض الروايات فإنَّ (الحِبْر) هو السماع، ويعني السماع: الغناء الرائع الجميل، وهذا المعنى قد يكون أحد المصاديق للمعنى اللغوي للكلمة.

وورد في بعض الروايات أنه حين يهبّ النسيم تتضارب الأشجار وتتمايل، فتصدر نغمات لا يمكن أن توصف روعتها وجمالها، مما يضفي هدوءاً نفسياً وروحياً على أهل الجنّة، ففي الحديث الشريف: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَأْمُرُ اللَّهُ رِيَاحَهَا فَتَهُبُّ فَتَضْرِبُ تِلْكَ الشَّجَرَةُ بِأَصْوَاتٍ لَمْ يَسْمَعِ الْخَلَائِقُ مِثْلَهَا حُسْناً. ثُمَّ قَالَ: هَذَا عِوَضٌ لِمَنْ تَرَكَ السَّمَاعَ لِلْغِنَاءِ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَخَافَةِ اللَّهِ**»[1].

فكلمة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ فُسّرت بهذا لأنّ الانسان - فضلاً عن لذّة الطعام والنوم والجنس - يتوق للذّات أرقى، وهي اللذّات الروحية. فالأصوات بالغة الروعة التي تترنّم بالتسبيح والثناء على خالق الجنّة، تضفي لذة روحية على نعيم الجنة.

روي عن أبي الدرداء، قال: كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يذكّر الناس فذكر الجنة وما فيها من الأزواج والنعيم، وفي القوم أعرابي فجثا

(١) تفسير القمي، ج٢، ص١٧٠.

لركبتيه وقال: يا رسول اللّه هل في الجنة من سماع؟ قال: «**نَعَمْ يَا أَعْرَابِيُّ، إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَنَهراً حَافَتَاهُ أَبْكَارٌ مِنْ كُلِّ بَيْضَاءَ يَتَغَنَّيْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَعِ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهَا قَطُّ، فَذَلِكَ أَفْضَلُ نَعِيمِ الْجَنَّةِ**» قال الراوي: سألتُ أبا الدرداء: بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح(١).

والأحاديث بخصوص غناء وموسيقى الجنّة ولذّة أهلها بها كثيرة جدّاً. وعلاوة على ما مرّ، روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصف الجنة قوله: «**فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا ولَذَّاتِهَا وزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا، ولَذَهِلَتْ بِالْفِكْرِ فِي اصْطِفَافِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا**»(٢).

كما روي عن النبيّ المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال:

«**إِنَّ الْجَنَّةَ لَتُنَجَّدُ وتُزَيَّنُ مِنَ الْحَوْلِ إِلَى الْحَوْلِ لِدُخُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَإِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْهُ هَبَّتْ رِيحٌ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ يُقَالُ لَهَا: الْمُثِيرَةُ، تَصْفِقُ وَرَقَ أَشْجَارِ الْجِنَانِ وحَلَقَ الْمَصَارِيعِ فَيُسْمَعُ لِذَلِكَ طَنِينٌ لَمْ يَسْمَعِ السَّامِعُونَ أَحْسَنَ مِنْه...**»(٣).

وتحدثت روايات أخرى عن شجرة في الجنة لها أروع الموسيقى، وهي أصل الألحان الجميلة في الجنّة، وكما يُفهم من ظاهر الروايات أنَّ غناء الجنة سيكون ثواب من حرّم غناء الدنيا على نفسه، وعانى في الورع عنه.

وأشارت رواية أخرى إلى أنَّ النسيم المذكور يحمل معه من

(١) بحار الأنوار، ج٨، ص١٩٦.
(٢) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، الخطبة ١٦٥، ص٢٣٩.
(٣) الأمالي للشيخ المفيد، ص٢٣٠.

الراحة والاطمئنان إلى القلوب ما لا يوصف، ويزداد روعة إذا ما احتكّ بأشياء الجنّة.

وسُئل رسول اللّه ﷺ - في حديث طويل -: هل في الجنّة ريحٌ؟

قال: «**نَعَمْ يَا ابْنَ سَلَام، فِيهَا رِيحٌ وَاحِدَةٌ خُلِقَتْ مِنْ نُور، مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا الْحَيَاةُ وَاللَّذَّاتُ، يُقَالُ لَهَا: الْبَهَاءُ، فَإِذَا اشْتَاقَ أَهْلُ الْجَنَّةِ أَنْ يَزُورُوا رَبَّهُمْ هَبَّتْ تِلْكَ الرِّيحُ عَلَيْهِمُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقْ مِنْ حَرٍّ ولَا مِنْ بَرْدٍ، بَلْ خُلِقَتْ مِنْ نُورِ الْعَرْشِ، تَنْفُخُ فِي وُجُوهِهِمْ فَتُبْهِي وُجُوهُهُمْ وتَطَيَّبُ قُلُوبُهُمْ ويَزْدَادُوا نُوراً عَلَى نُورِهِمْ، وتَضْرِبُ أَبْوَابَ الْجِنَانِ، وتُجْرِي الْأَنْهَارُ، وتُسَبِّحُ الْأَشْجَارُ، وتُغَرِّدُ الْأَطْيَارُ، فَلَوْ أَنَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ قِيَامٌ يَسْمَعُونَ مَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ سُرُورٍ وطَرَبٍ لَمَاتَ الْخَلَائِقُ شَوْقاً إِلَى الْجَنَّة...**»[(١)].

وعن تلكم الشجرة، روى ياسر خادم الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «**مَنْ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الْغِنَاءِ فَإِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَأْمُرُ اللَّه عَزَّ وجَلَّ الرِّيَاحَ أَنْ تُحَرِّكَهَا فَيَسْمَعُ لَهَا صَوْتاً لَمْ يَسْمَعْ بِمِثْلِهِ، ومَنْ لَمْ يَتَنَزَّهْ عَنْهُ لَمْ يَسْمَعْهُ**»[(٢)].

وأخيراً؛ ينبغي أن نشير الى أنه لا توجد آية في القرآن تتطرق إلى غناء الجنّة بشكل مباشر، ولكن هناك من الآيات ما تشير الى ذلك بشكل غير مباشر، منها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(٣)].

---

(١) بحار الأنوار، ج٥٧، ص٢٥٥-٢٥٦.
(٢) الكافي، ج٦، ص٤٣٤.
(٣) سورة السجدة، آية: ١٧.

بصائر وسنن

١ – إنّ المؤمنين سيقيمون في الجنّة في أفضل وأروع الرياض النضرة، غارقين في النعم والسرور. إنّها رياض يستحيل وصفها لأهل الأرض على وجه الدقّة والتفصيل.

٢ – إنّ الانسان – فضلاً عن لذّة الطعام والنوم والجنس – يتوق للذّات أرقى، وهي اللذّات الروحية. فالأصوات بالغة الروعة التي تترنّم بالتسبيح والثناء على خالق الجنّة، تضفي لذة روحية على نعيم الجنة.

عاقبة الكفر والتكذيب

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ١٦﴾.

من الحديث

روي عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم أنَّه قال:

«أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ عِنْدَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: إِيمَانٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وغَزْوٌ لَا غُلُولَ فِيهِ، وحَجٌّ مَبْرُورٌ. وأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ: شَهِيدٌ، وعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَحْسَنَ عِبَادَةَ رَبِّهِ ونَصَحَ لِسَيِّدِهِ، ورَجُلٌ عَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ. وأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ: أَمِيرٌ مُتَسَلِّطٌ لَمْ يَعْدِلْ، وذُو ثَرْوَةٍ مِنَ الْمَالِ لَمْ يُعْطِ الْمَالَ حَقَّهُ، وفَقِيرٌ فَخُورٌ»[1].

تفصيل القول

تتحدث هذه الآية عن حال الكافرين المكذِّبين، بعد الحديث

(١) عيون أخبار الرضا، ج٢، ص٢٨، ح٢٠.

في الآية السابقة عن حال المؤمنين الصالحين.

ترى ماذا يعني الكافر؟!

(الكُفْر) لغةً يعني تغطية الشيء وستره. والزارع يُسمى كافراً لأنّه يغطي البذور ويخفيها تحت الأرض. ومن ينكر النعمة ويجحدها يقال له: كافر، لوجوب الشكر على النعمة، فإن لم يتمّ ذلك، أُخفيت النعمة وكُفِرت. والكفر باللّه العزيز يعني نفيه وعدم الإقرار به، وبالتالي تغطيته.(١)

الآية السابقة بيّنت أحوال أهل الجنّة، ووردت عبارة ﴿يُحْبَرُونَ﴾ للتعبير عن رضاهم المطلق فيها. وأما بخصوص أهل النار؛ فقد استخدمت هنا عبارة ﴿مُحْضَرُونَ﴾ دلالةً على مطلق الانزعاج وكراهية المقام فيها، إذ الإحضار يطلق في موارد عدم الرضا من جانب الإنسان.

والنقطة الأخرى فيما يتعلّق بأهل الجنّة، هي أنه وردت صفتان لهم، وهما (الإيمان) و(العمل الصالح) ولكن عن أهل النار لم يرد إلّا الكفر (إنكار المبدأ والمعاد والتكذيب بآيات اللّه تعالى) ولعل في هذا إشارة إلى أنّ الإيمان وحده لا يكفي لدخول الجنّة وإنما ينبغي أن يُقرن الايمان بالعمل الصالح أيضاً، ولكن دخول النار يكفي فيه الكفر، وإن لم يصاحبه ارتكاب ذنب، لأنّ الكفر بحد ذاته أكبر الذنوب.

الاعلان عن الايمان

هنا نقطة مهمة؛ وهي: أنّ على المؤمن أن يشهد بالتوحيد

(١) انظر: لسان العرب، ج٥، كلمة (كَفَرَ).

والنبوّة والولاية بكلّ وجوده. جاء في الكتاب الكريم: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ولماذا القول يا ترى؟ ولماذا الأذان يومياً عدة مرات؟

إنّ القول يعني الإعلان والإظهار، ويعني الحرب على من يحارب اللّه في ربوبيته، وفوق هذا؛ فإنَّ اللّه تعالى يقول: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾[1] فيجب رفض الطاغوت أولاً، ولو أدّى الرفض هذا إلى القتل، ولتقل ذلك في قلبك على أقل تقدير، وهذا أضعف الإيمان.

يجب علينا الدفاع عن الحقّ لكي لا نكون كافرين. فإنْ رأيت أحدهم يُظلم، وجب عليك الدفاع عنه، وهذا أحد الواجبات.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «أُقْعِدَ رَجُلٌ مِنَ الْأَحْبَارِ فِي قَبْرِهِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّا جَالِدُوكَ مِائَةَ جَلْدَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّه. فَقَالَ: لَا أُطِيقُهَا، فَلَمْ يَفْعَلُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى جَلْدَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالُوا: لَيْسَ مِنْهَا بُدٌّ. قَالَ: فِيمَا تَجْلِدُونِّيهَا؟ قَالُوا: نَجْلِدُكَ لِأَنَّكَ صَلَّيْتَ يَوْماً بِغَيْرِ وُضُوءٍ، ومَرَرْتَ عَلَى ضَعِيفٍ فَلَمْ تَنْصُرْهُ». قَالَ: «فَجَلَدُوهُ جَلْدَةً مِنْ عَذَابِ اللَّه تَعَالَى فَامْتَلَى قَبْرُهُ نَارا»[2].

وجاء في دعاء السجاد عليه السلام: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْ مَظْلُومٍ ظُلِمَ بِحَضْرَتِي فَلَمْ أَنْصُرْه**»[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَخْذُلُ أَخَاهُ وهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نُصْرَتِهِ إِلَّا خَذَلَهُ اللَّه فِي الدُّنْيَا والآخِرَة**»[4].

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٥٦.
(٢) علل الشرائع، ج١، ص٣٠٩.
(٣) الصحيفة السجادية، الدعاء ٣٨.
(٤) المحاسن، ج١، ص٩٩.

والمظلـوم أنواع، والدفـاع عنه أنواع أيضاً، نـوع منه؛ مواجهة الغيبة، فإنْ استمعت لغيبة ولـم تردّها، كنت متجاهلاً للحقّ، ومتقاعساً عن واجب الدفاع عن المظلوم.

إذن، فالكفـران يعني كتمان الحقيقة حينما يجب أن يصدع بها الإنسان، فلا يكفي أن يقول الشخص: إنّني مؤمن فحسب، بل الحقّ يجب أن يُقال ويُنشـر، ولا بـد أن نقول: لا نؤمن بالجبت والطاغوت ونؤمن باللّه.

١- ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾

هـؤلاء لـم يظهروا الإيمان، مـع أنّهم قـد لا يكونون جاحدين على سـبيل العمد والإصـرار، فهم ضعيفو الإيمـان، ولكنهم يُعدّون كفـاراً لأنّهم لم يعلنوا توحيدهم ولم يسـلّموا للحقّ تسـليماً محضاً. ثم:

٢- ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾

وقد قسّمنا التكذيب بآيات اللّه على ثلاثة أنحاء:

أوّلاً: التكذيب بآيات اللّه في الخلقة، والمكذّبون بها لا يدّعون عدم وجود الشمس مثلاً، وإنّما لا يلتفتون إلى أنّ الشمس دليل على الأحديّـة، وكذلك القمر والجبـل والبحر، و... فهم لا يعتقدون بأنّها آيات اللّه سبحانه وتعالى.

ثانيـاً: التكذيـب بالآيـات القرآنية، ولـو أنّنا كذّبنـا بآية واحدة مـن أصـل ما يزيد على سـتّة آلاف آية قرآنية، نكون قـد كذّبنا بالقرآن كلّه، فإنّ التبعيض في الإيمان أمر غير جائز، وإنّما المطلوب الإيمان بالقرآن وحدة واحدة.

ثالثاً: التكذيب بآيات اللّه الناطقة، أي: النبيّ وآل بيته الطاهرين صلوات اللّه عليه وعليهم أجمعين، والتكذيب بهذا النوع من الآيات كأن يقول القائل: لا أقبل هذا الإمام، أو لا أؤمن بأحاديثه، إذ الواجب الإيمان بهم جميعاً وبما صدر عنهم، كما يجب الخضوع المطلق لهم عليهم الصلاة والسلام.

إذن؛ فإنّ أحد أهمّ مصاديق الكفر والتكذيب بآيات اللّه تعالى؛ الكفر بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وبأهل بيته عليهم السلام، والتكذيب بهم والردّ عليهم، إذ الراد عليهم كالرادّ عليه عزّ وجلّ.

وهكذا التكذيب بيوم القيامة:

٣- ﴿وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾

فمن يكفر باللّه، ويكذب بالآيات وبالآخرة:

٤- ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾

أي أنّهم سيُساقون مجبرين إلى النار، فلا أحد يذهب برجله إلى جهنم، بل (محضرون) أي يُساقون قسراً، كسوق المجرمين إلى العقاب.

ثم - من جانب آخر - لم يقل اللّه: النار، بل قال: العذاب، والنار هو نوع من العذاب. والدخول إلى النار بحد ذاته فضيحة كبرى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾(١). ولذلك فإن المؤمن يدعو ربه ويقول: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾(٢).

(١) سورة آل عمران، آية: ١٩٢.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٩٤.

إنّ الآيـات تناولـت الفريقين؛ فريـق الجنّة وفريـق النار، فهل هناك حدٌّ وسط بين الجنة وبين النار؟

لا حدَّ وسطاً بين الجنّة والنار، ولا يظنّنّ أحد أنّه إنْ لم يكن من أهل الجنّة، فقد لا يُساق إلى جهنم، وأنه سيؤخذ إلى مكان يعيش فيه عيشةً حيوانيّة. كلا! فالأمر ليس كذلك، فإمّا الجنّة وإمّا النار.

قـال الإمام الهادي عليه السلام: «**وَأَعُوذُ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ والرَّدَى، مَنْ يَهْـدِهِ اللَّه فَقَدِ اهْتَدَى وسَـلَكَ الطَّرِيقَةَ الْمُثْلَى وغَنِـمَ الْغَنِيمَةَ الْعُظْمَى، ومَنْ يُضْلِلِ اللَّه فَقَدْ حَارَ عَنِ الْهُدَى وهَوَى إِلَى الرَّدَى**»[١].

إذن؛ فإمّا الغنيمة الكبرى (وهي الجنة وضيافة الرحمن)، وإمّا السقوط والخزي (وهو العذاب الأليم) ولا توجد منطقة وسطى بين المصيرين.

بصائر وسنن

فـي آيات الذِّكـر وردت صفتان لأهل الجنـة، وهما (الإيمان) و(العمل الصالح) ولكن عن أهل النار لم يرد إلّا الكفر (إنكار المبدأ والمعـاد والتكذيـب بآيات اللّه تعالـى) ولعل في هذا إشـارة إلى أنّ الإيمـان وحده لا يكفـي لدخول الجنّة وإنما ينبغـي أن يُقرن الايمان بالعمـل الصالـح أيضاً، ولكن دخـول النار يكفي فيـه الكفر، وإن لم يصاحبه ارتكاب ذنب، لأنّ الكفر بحد ذاته أكبر الذنوب.

(١) الكافي، ج٥، ص٣٧٢.

فسبحان اللّـه

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ١٨﴾.

من الحديث

جاء في حديث نبويّ شريف:

«**مَـنْ قَـرَأَ حِيـنَ يُصْبِـحُ:** ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ...﴾ **الْآيَـاتِ الثَّلَاثِ إِلَى** ﴿تُخۡرَجُونَ﴾ **أَدْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي يَوْمِهِ. وإِنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي أَدْرَكَ مَا فَاتَهُ فِي لَيْلَتِه**»[1].

تفصيل القول

بعد أن بيّن اللّه سبحانه وتعالى مسائل الخلقة والبعث وتقسيم العباد إلى طائفتين؛ أهل الجنّة وأهل النار، المتنعّم والمعذّب، أشـار إلـى أنّ المؤمنين وبأعمالهم الصالحة سيدخلون الجنّة، وأنّ الكفّار

(١) عوالي اللآلي العزيزية، ج١، ص١٨١.

المكذّبين بآيات اللّه سيُساقون إلى الجحيم.

ويُستنتج من الآيات السالفة أنّ ثمَّ تدبيراً إلهياً متقناً في دار الخلقة، وهو تدبير لا يمكن تصوّر ما هو أفضل وأروع منه، كما يُستنتج أيضاً أنّ البشر خلال وجودهم في الدنيا قد يرتكبون ذنوباً وخطايا في عقائدهم ويعصون ربّهم ويجعلون له شركاء وينكرون لقاءه في يوم الجزاء.

بعد تبيان هذه الحقائق، يوضّح ربّنا المتعال حقيقة أخرى؛ وهي استحقاق ذاته المقدسة للتسبيح والحمد. ويمكن لبيان هذه الحقيقة الهامة أن يكون درساً بليغاً للعباد كي يعرفوا أنّ إصلاح أفكارهم وأعمالهم وتوطيد العلاقة مع إلههم الواحد الأحد، يتيسَّر بتسبيحه ليلاً ونهاراً، وتمجيده على صنعه وتدبيره في السماوات والأرض في كلّ وقت من الأوقات.

الظاهر إن هذا الحمد والتسبيح المصرّح بهما في الآيتين أعلاه هما إنشاء من اللّه تعالى، وأنّهما صادرين عنه تعالى لذاته القدسية، ولم ينشئه للآخرين ليكون معناه: قولوا: سبحان اللّه، وقولوا: الحمد للّه.

وهاتان ليستا الآيتين الوحيدتين اللتين يذكر اللّه فيهما التسبيح والحمد لنفسه، بل تكرّر ذلك في كلامه المجيد، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ..﴾[1]. وقوله العزيز أيضاً: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[2].

(١) سورة الصافات، آية: ١٨٠.
(٢) سورة الفرقان، آية: ١.

ولعل ذكر الأوقات الأربعة في الآيتين كناية عن دوام التسبيح والحمد في كل الأوقات.

وفي تفسير آخر يمكن أن يكون هذا الحمد والتسبيح بمعنى الأمر، أي: (سبّحوه واحمدوا له) وهذا التفسير يبدو أكثر قرباً وأشدّ ظهوراً، حيث تكون الآيات الواردة في هذا السياق أمراً لجميع العباد لطرد آثار الشرك والذنب عن قلوبهم وأرواحهم وحتّى أبدانهم في كلّ صباح وليل، وفي كل ظهر ومساء، سواء كان حين الصلاة، أو مجرد ذكر اللّه تعالى.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**مَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «فَسُبْحانَ اللَّه حِينَ تُمْسُونَ وحِينَ تُصْبِحُونَ. ولَهُ الْحَمْد فِي السَّماواتِ والْأَرْضِ وعَشِيًّا وحِينَ تُظْهِرُونَ» لَمْ يَفُتْهُ خَيْرٌ يَكُونُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وصُرِفَ عَنْهُ جَمِيعُ شَرِّهَا. ومَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُصْبِحُ لَمْ يَفُتْهُ خَيْرٌ يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وصُرِفَ عَنْهُ جَمِيعُ شَرِّه**»[1].

معنى التسبيح وأبعاده

لفهم أبعاد التسبيح والعلّة في التأكيد الوارد في آيات القرآن عليه، أوضّح ما أذهب إليه بمقدّمة:

للوصول إلى الحقائق؛ لا بد من اتخاذ طريقة مناسبة، كما أنّ فهم كلّ حقيقة بحاجة إلى مسلك خاصٍّ به، ولقد خلق اللّه تعالى لنا أنواعاً متعدّدة من الحواسّ لبلوغ الحقائق. فبالعين يمكن النظر فقط ولا يمكن السماع بها، وبالأذن واللسان لا يتسنّى القيام بعمل حاسة أخرى. وطبعاً هي جميعاً تنتهي إلى حقيقة واحدة، وهي المعرفة

(١) الأمالي للصدوق، ص٥٧٨.

والتعرّف على الأشياء، ولكن حيث كانت الحقائق متعددّة ومتفاوتة؛ نجد اللَّه سبحانه قد جعل لنا حواس متعدّدة أيضاً، فصارت الحواسّ نوافذ تقرّبنا من الحقائق، إلّا أنّ كلّ نافذة تتناسب والحقيقة الخاصّة بها.

وعلى هذا التناسب قُسّمت العلوم إلى أنواع مختلفة. فكان منهج المعرفة في العلوم الطبيعية متفاوتاً مع العلوم الإنسانية، وافترق علم الطب عن علم النفس، واختلف علم الاجتماع عن علم الاقتصاد، وهكذا فإنَّ لكل علم موضوع، ولاكتساب المعرفة في حقل كل علم منهجه الخاص، ولذلك كان ضرورياً أن تدوّن مناهج خاصة لمعرفة العلوم.

ومن حقائق هذا العالم؛ ما تعرف بالمجرّدات، فما هو طريق الورود إلى عالم المجرّدات ومعرفتها؟ إنَّ حقائق مثل العلم والمشيئة والوجود غير قابلة للكشف والمعرفة بواسطة الأدوات المادّيّة، ولهذا؛ طرحت بحوث عن علم المعرفة وحقيقة العلم وما شاكل ذلك.

نحن نستطيع فهم العلم؛ فنقول: فلان عالم، ولكنّ العلم ليس كتفّاحة لكي نشير إليها ونحدّدها بالقول: هذه تفّاحة وهي هنا. إنّما نفهم العلم ونعرفه بآثاره. وحينما يُسأل المعصوم عليه السلام عن العاقل أو يتحدث عنه، يشير إليه بعلاماته فيقول - مثلاً - كما في الأحاديث الشريفة:

«الْعَاقِلَ مَنْ وَحَّدَ اللَّه وَعَمِلَ بِطَاعَتِهِ»(١).

(١) تحف العقول، ص٥٤، عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

«إِنَّ الْعَاقِلَ مَنْ أَطَاعَ اللَّه»[1].

«الْعَاقِلُ مَنْ كَانَ ذَلُولًا عِنْدَ إِجَابَةِ الْحَقِّ مُنْصِفاً بِقَوْلِه»[2].

«الْعَاقِلُ مَنْ يَمْلِكُ نَفْسَهُ إِذَا غَضِبَ وإِذَا رَغِبَ وإِذَا رَهِب»[3].

«إِنَّ الْعَاقِلَ مَنْ نَظَرَ فِي يَوْمِهِ لِغَدِه»[4].

أي: أنّنا نعرف العلم والعقل بالعلامات والآثار. كذلك هي المجرّدات، ولهذا قال تعالى:

١ - ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾

أي: أنّ اللّه منزّه عن تحديده بالمقاييس والأدوات المادية، ذلك لأنّ حقيقة الربّ المتعال غير قابلة للإدراك بالنسبة لمخلوقاته؛ وكلما نتحدث به عنه إنما هو من العلامات والآيات. وقد أورد اللّه هذا التسبيح مطلقاً، فصار الأمر متعلقاً بالكلّ؛ أفراداً وحالات وظروفاً وكيفيّات، لأنه تبارك اسمه فوق المجرّدات، وليس من مجرّد قادر على معرفة أو تعريف كلّ حقيقته سبحانه وتعالى، ومهما وصفت المجرّدات ربّها وحمدته، فإنّ عليها تسبيحه وتنزيهه عمّا وصفته به.

لمعرفة اللّه تعالى؛ ينبغي أن نسلك منهجاً يوصلنا إليه، وذلك بالعلائم والآيات والدلالات. ومن هذا المنهج التفكير في عالم الوجود. فكلّ شيء نظرنا إليه رأينا فيه النقص والحاجة، فنعي أنّ ثَمَّ كاملاً قد خلق الناقص وهو يسدّ حاجته، وأنّ النظم والحركة

---

(١) بحار الأنوار، ج١، ص١٦٠، عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.
(٢) مصباح الشريعة، ص١٠٣، عن الامام الصادق عليه السلام.
(٣) عيون الحِكَم والمواعظ، ص٦٢، عن أمير المؤمنين عليه السلام.
(٤)-عيون الحِكَم والمواعظ، ص١٥٣، عن أمير المؤمنين عليه السلام.

المنطقيّة في الموجودات هي من تدبير هذا الكامل. يقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[1].

ولِـم لا يكون كذلك، والجميع فانٍ وهو الباقي؟. أليس الكلّ سيفنى في نهاية العالم ولا يبقى سوى ذاته المقدّسة، وهم جميعاً محكومون بالفناء في كلّ لحظة، وبقاؤهم منوط بمشيئته، ولو أنّه أدار عنهم وجهه الكريم اللطيف، لانعدموا جميعاً؟. وهل هناك غيره يسأله أهل السماوات والأرض ويحتاجونه؟!

إنّ خلقه دائم مستمرّ وكذلك هي إجاباته وتلبياته حوائج السائلين. فهو المبدع أبداً سبحانه وتعالى عما يشركون. إنّه سبحانه يهب أقواماً قدرةً ذات يوم، وبعده يسلبها منهم، ويجعل الصحة والسلامة في أحدهم، ثم يجرّده منها، وهو الذي يطرد الهم والكرب عن القلوب؛ وهو نفسه يملأها بها في اليوم التالي، فهو إذن له خلق جديد طبقاً لحكمته البالغة وإبداعه القويم.

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أنه قال: «**فَإِنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْباً، ويُفَرِّجَ كَرْباً، ويَرْفَعَ قَوْماً، ويَضَعَ آخَرِين**»[2].

ونقرأ عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «**الْحَمْدُ للَّه الَّذِي لَا يَمُوتُ ولَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، لِأَنَّهُ كُلَّ يَوْم فِي شَأْنٍ مِنْ إِحْدَاثِ بَدِيع لَمْ يَكُنِ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارَكاً، ولَمْ يُولَدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكا**»[3].

(١) سورة الرحمن، آية: ٢٩.
(٢) الأمالي للطوسي، ص٥٢١.
(٣) الكافي، ج١، ص١٤١.

فحيث نريد أن نتحدّث عنه ونذكره، لا نجد كلاماً خيراً من أن نقول: سبحان اللَّه. والتسبيح يقول لنا: إنّ الطرق التي تسلكونها -أيها الناس- لمعرفة اللَّه لن توصلكم إلى الحقّ، لأنكم تريدون معرفته بالتشبيه بأنفسكم. هل تقيسونه بالجبل؟ هل تمثّلونه بالنور؟ هذا خطأ محض ولن تصلوا إلى هدفكم، عليكم أن تقولوا أولاً: (سبحان اللَّه)، وأن تقولوا أيضاً: إنّ الذي خلق الموجودات منزّه عمّا فيها من نواقص.. فالنور يتغيّر، والوجود المادّي يتغيّر، وكذلك هو العِلم، فهو أسمى من العِلم، ومن النور، ومن العقل، ومن الوجود برمّته.

التسبيح يعني التحدّث عن اللَّه تعالى بأسلوب صحيح، والاحتياط في الحكم عنه عز وجل.

يُروى أن السيد عبد العظيم عليه السلام، وهو عالِمٌ جليل من ذرّيّة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، جاء الى الإمام الهادي عليه السلام وقال: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّه، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ دِينِي فَإِنْ كَانَ مَرْضِيّاً أَثْبُتُ عَلَيْهِ حَتَّى أَلْقَى اللَّه عَزَّ وجَلَّ. فَقَالَ: «**هَاتِ يَا أَبَا الْقَاسِمِ**».

فَقُلْتُ: إِنِّي أَقُولُ: إِنَّ اللَّه تَبَارَكَ وتَعَالَى وَاحِدٌ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، خَارِجٌ مِنَ الْحَدَّيْنِ: حَدِّ التَّعْطِيلِ وحَدِّ التَّشْبِيهِ، وإِنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ ولَا صُورَةٍ ولَا عَرَضٍ ولَا جَوْهَرٍ، بَلْ هُوَ مُجَسِّمُ الْأَجْسَامِ، ومُصَوِّرُ الصُّوَرِ، وخَالِقُ الْأَعْرَاضِ والْجَوَاهِرِ، ورَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ومَالِكُهُ وجَاعِلُهُ ومُحْدِثُهُ، وإِنَّهُ حَكِيمٌ لَا يَفْعَلُ الْقَبِيحَ ولَا يُخِلُّ بِالْوَاجِبِ»[(١)].

إنّ هذا البيان - في واقعه- تفسير للتسبيح، إذ إنه ينزِّه اللَّه عن أيّ نقص، ويثبت له كلّ كمال، ولكنّه لم يتطرّق إلى حقيقة الربّ

(١) صفات الشيعة، ص٤٨.

وذاته، لأنّه مهما قال؛ كان اللَّه منزهاً عنه.

تارة تقول: رأيت فلاناً، أي أنّك رأيتَ شخصه.. وتارة تقول: رأيتُ آثاره، وهذا التعبير يثبت وجود الشخص، ولكن ما كان، ومَن كان، وكيف كان؟. فهذا ما لستَ مطّلعاً عليه. تارة نثبت الوجود وننفي العدم ونهيّئ المعرفة الإجمالية، ولكننا لا نعلم بالتفاصيل أو نعجز عن سبر غورها.. لم نعطّل المعرفة ولكننا حذرنا عن التشبيه.

هناك فئة من الناس يُسمون بـ: (المعطّلة) كانوا يقولون: ليس للَّه علمٌ ولا قدرة ولا اختيار. بينما حديث السيد عبد العظيم الحسني الذي تلوناه يرفض هذا الزعم، إذ اللَّه عز وجل له العلم والقدرة والإختيار وكل شيء آخر من صفات الكمال، ولكن ما عند اللَّه تعالى ليس شبيهاً بما هو عندنا فايماننا باللَّه هو أنه خارج من الحدّين: حدِّ التعطيل وحدِّ التشبيه.

وجاء في رواية عن حمزة ومحمد ابني حمران، قالا: اجتمعنا عند أبي عبد اللَّه عليه السلام في جماعة من أجلّة مواليه وفينا حمران بن أعين، فخضنا في المناظرة وحمران ساكت.

فقال له أبو عبد اللَّه عليه السلام: «**مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ يَا حُمْرَانُ**»؟

فقال: يا سيدي آليت على نفسي أني لا أتكلم في مجلس تكون فيه.

فقال أبو عبد اللَّه عليه السلام: «**إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَكَ فِي الْكَلَامِ فَتَكَلَّمْ**».

فقال حمران: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَمْ يَتَّخِذْ صاحِبَةً ولا وَلَداً، خَارِجٌ مِنَ الْحَدَّيْنِ: حَدِّ التَّعْطِيلِ وحَدِّ التَّشْبِيهِ،

وأَنَّ الْحَقَّ الْقَوْلُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، لَا جَبْرَ ولَا تَفْوِيض»[1].

إنّ هـذه النظـرة تقول: إنني أعتقد بـأنّ اللَّه تعالى عالـمٌ مريدٌ سـميع بصيـر، ولكـن كل ذلك لا يشـبه مـا عندنا مـن الإرادة والعلم والسمع والبصر، فلا هو معطَّل ولا هو شبيه بخلقه.

وبـإزاء (المعطِلـة) هنـاك (المشـبِّهه) الذين يتصـورون الرب المتعـال شـبيهاً بالمخلوقـات، له جسـم وجوارح وأعضاء كالبشـر، ويفـردون في كتبهم أبوابـاً لإثبات أن للّه تعالى يد ووجه وما شـاكل ذلك.

إذن؛ فالتسـبيح يعنـي تطهيـر العقيـدة مـن التعطيل والتشـبيه، والإيمـان باللّـه منزّهاً عما نقول نحن وندّعـي، وعن أي لون وصبغة بشريّة.

بصائر الآيتين

١- ينبغـي أن يكون الحمد والتسـبيح معاً، فنحمد اللَّه وننزّهه في آن واحد، وهذا ما نفعله في الركوع والسجود على الأقلّ، فنقول: سبحان ربي العظيم وبحمده، و: سبحان ربّي الأعلى وبحمده:

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾

٢- ولقـد حـدّد اللّـه تعالى أربعة أوقـات نذكره فيها؛ نسـبّحه ونحمده:

الأوّل: اللّيل ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾

أي حين تدخلون في الليل.

(١) معاني الأخبار، ص٢١٢.

الثاني: ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾

كذلك حين تدخلون في وقت الصباح وتبدؤون يومكم به.

وفـي الليـل صلاتان متقاربتـان، هما: صـلاة المغرب وصلاة العشـاء، ولذلـك لم يُذكـر الفصل هنـا، وإنّما الصلاتـان معاً: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾.

﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ فـي أولّ الصباح، ولقـد كان صبح الناس طلـوعَ الفجـر، وليس كما هو متعارف في الوقـت الحاضر؛ إذ بعض النـاس ينامـون إلى ارتفاع الشـمس!.. ولو كنتم تعيشـون في قرية أو صحـراء لعرفتم معنى الصباح، حيث السـماء بيضاء، والطيور تحلّق طلباً لرزقها، والنسـيم يهبّ، والطبيعة تسـتيقظ.. ذاك هو الصباح، ثم تشرق الشمس.

الثالث: ﴿وَعَشِيًّا﴾

هو العصر وصلاته.

الرابع: ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾

يعني؛ وقت صلاة الظهر.

٣- وهنا أستلهم نقطةً فقهية من الآية، وهي أنّ ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ تدل على أنّ صلاة المغرب ينبغي أن تؤدّى في أوّل وقتها. إنَّ صلوات النهار تقع نوافلها قبلها، بينما صلاة المغرب تقع نافلتها بعدها وذلك لكـي لا تتأخـر صلاة المغرب عـن اول الوقت. أما نافلة العشـاء فقد اختلف الفقهاء بشـأنها. وهـذه الصلوات ينبغي أداؤهـا لأول وقتها، ولكن للأسـف، نلاحظ أنّ صلاة المغـرب تؤدّى بعد وقتها الحقيقي بفتـرة. وقـد نُقِل عـن أحد الفقهـاء أنّ صـلاة الغفيلة قـد لا تُقبل من

البعض، لأنّها تؤدّى بعد وقتها المعيّن.

وكذلك الأمر بالنسبة لصلاة الصبح ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ حيث ينبغي أن تؤدّى لأوّل وقتها. وهناك آية أخرى تقول: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1]. وروي أنّ هذه الآية مخصوصة بصلاة الفجر، حيث جاء في الحديث عن إسحاق بن عمار، قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: أخبرني بأفضل المواقيت في صلاة الفجر. قال: «**مَعَ طُلُوعِ الْفَجْرِ، إِنَّ اللَّه عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ:** ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ **يَعْنِي صَلَاةَ الْفَجْرِ تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ ومَلَائِكَةُ النَّهَارِ، فَإِذَا صَلَّى الْعَبْدُ الصُّبْحَ مَعَ طُلُوعِ الْفَجْرِ أُثْبِتَتْ لَهُ مَرَّتَيْنِ، أَثْبَتَهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ ومَلَائِكَةُ النَّهَار**»[2].

وقد وقع الاختلاف في ركعتي نافلتها: فبعض الروايات تشير إلى لزوم اتّصالها بصلاة الليل، وعليه؛ ينبغي أداء صلاة الفجر في أوّل دخول الوقت، كما هو أداء صلاة الظهر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾. وطبعاً هناك نافلة الظهر التي تؤدّى قبل صلاة الظهر.

٤- في الآية الكريمة قال اللّه تعالى:

٢- ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾

لِمَ ذكر سبحانه اللّيل أوّلاً؟ لأنّ تسبيح اللّيل أهمّ من تسبيح النهار، حيث يكون المرء بعيداً شيئاً ما عن جاذبيّة الدنيا، فينطق بعبارات التسبيح في جو روحيٍّ أكثر استقراراً وهدوءاً. كما أنّ كلّ عبادة في اللّيل هي أفضل من العبادة في النهار. ثمّ إنّ أكثر الأوقات

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٨.
(٢) الكافي، ج٣، ص٢٨٣.

المهمـة هي الليل، كليلـة القدر وليلة النصف من شـعبان وليلة عرفة وليلـة الجمعة، حيث يصل المرء في الليل إلى منتهى أوجهِ الروحي، فيما النهار وقت العمل للدنيا.

٥- لم يقل اللّه تعالى: فسبِّحوا، بل قال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾. ترى ما الفرق بين أن يقول اللّه: (سبحان اللّه) وبين أن يقول: (سبِّحُوا)؟

حيـن يقـول: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ﴾ يعني: لسـتم أنتم فقط من يسبّح، وإنّما جميع الكواكب وحبات الرمل والصحاري وأوراق الشـجر، كلّها تسـبّح، فتكونـون معها وتنضمـون إليها في التسـبيح. وهذا التسـبيح موجود في كلّ مـكان. وقد ذكر البعض أنّ الحيوانات جميعـاً، كالديك الذي يصيح، يحدث لديها نوع تغيّر بتغيّر الأوقات، ولا ريـب أنّ لهـا صلاتهـا، فقـد قال اللّـه تعالـى: ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾[1].

وطبقاً لرأي الفيزيائيّين؛ فإن تغيّر الأوقات يلقي بظلاله وتأثيره علـى الأشـجار أيضـاً، ولذلـك؛ فـإنّ الفرق معـروف بين أن تُسـقى الأشـجار والأزهار في وقت الظهيرة أو أوّل الصباح، إذ يكون نموّها أفضل في أول النهار.

وإذا مـا أردت إجـراء اختبـار طبّـيّ، سـتجد نفسـك ملزمـاً بالخضوع للاختبار أوّل النهار، لأن خلايا البدن تتأثّر بتغيّر الوقت.

لذلـك ينبغي أن تسـبّح ربّك المتعال وتصلّـي وتدعو في أول الوقت.

أدّوا الصـلاة لأوّل وقتهـا، فإنَّ الأحاديث الشـريفة تؤكد على

(١) سورة النور، آية: ٤١.

ذلك بشكل كبير:

١- دخل رسول اللّه ﷺ المسجد وفيه ناس من أصحابه فقال: «**تَدْرُونَ مَا قَالَ رَبُّكُمْ**»؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: «**إِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ الْمَفْرُوضَاتِ، مَنْ صَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ وحَافَظَ عَلَيْهِنَّ لَقِيَنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ولَهُ عِنْدِي عَهْدٌ أُدْخِلُهُ بِهِ الْجَنَّةَ، ومَنْ لَمْ يُصَلِّهِنَّ لِوَقْتِهِنَّ ولَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهِنَّ فَذَاكَ إِلَيَّ، إِنْ شِئْتُ عَذَّبْتُهُ وإِنْ شِئْتُ غَفَرْتُ لَه**»[(١)].

٢- رويَ عن أبي سلام العبدي، قال: دخلتُ على أبي عبداللّه عليه السلام فقلتُ له: ما تقول في رجلٍ يؤخِّر العصر متعمداً؟ قال: «**يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَوْتُوراً أَهْلَهُ ومَالَهُ**». قلتُ: جُعِلتُ فداك، وإن كان من أهل الجنة؟ قال: «**وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**». **قلتُ: فما منزله في الجنة؟ قال: «مَوْتُورٌ أَهْلَهُ ومَالَهُ، يَتَضَيَّفُ أَهْلَهَا لَيْسَ لَهُ فِيهَا مَنْزِل**»[(٢)].

٣- روي عن أبي عبد اللّه الامام الصادق عليه السلام أنَّ رسول اللّه ﷺ قال: «**لا يَزَالُ الشَّيْطَانُ ذَعِراً مِنَ الْمُؤْمِنِ مَا حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، فَإِذَا ضَيَّعَهُنَّ تَجَرَّأَ عَلَيْهِ فَأَدْخَلَهُ فِي الْعَظَائِم**»[(٣)].

٤- روي عن الامام الكاظم عليه السلام أنه قال: «**الصَّلَوَاتُ الْمَفْرُوضَاتُ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا إِذَا أُقِيمَ حُدُودُهَا أَطْيَبُ رِيحاً مِنْ قَضِيبِ الْآسِ حِينَ يُؤْخَذُ مِنْ شَجَرِهِ فِي طِيبِهِ ورِيحِهِ وطَرَاوَتِهِ فَعَلَيْكُمْ بِالْوَقْتِ الْأَوَّلِ**»[(٤)].

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٢٠٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج٤، ص١٥٤.
(٣) الكافي، ج٣، ص٢٦٩.
(٤) تهذيب الأحكام، ج٢، ص٤٠.

بصائر وسنن

١ - إنّ اللّـه منـزّه عن تحديـده بالمقاييـس والأدوات المادية، ذلك لأنّ حقيقة الربّ المتعال غير قابلة للإدراك بالنسبة لمخلوقاته؛ وكلما نتحدث به عنه إنما هو من العلامات والآيات.

٢ - ينبغـي أن يكون الحمد والتسـبيح معاً، فنحمد اللّه وننزّهه في آن واحد، وهذا ما نفعله في الركوع والسجود على الأقلّ، فنقول: سبحان ربي العظيم وبحمده، و: سبحان ربّي الأعلى وبحمده.

٣- إنّ تسـبيح اللّيل أهمّ من تسـبيح النهار، حيث يكون المرء بعيداً شيئاً ما عن جاذبيّة الدنيا، فينطق بعبارات التسبيح في جو روحيٍّ أكثر استقراراً وهدوءاً.

كذلك تُخرَجون

﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١٩﴾.

من الحديث

سُئل الإمام الحسن بن علي بن محمد عليهم السلام عن الموت ما هو؟ فَقَالَ:

«هُوَ التَّصْدِيقُ بِمَا لَا يَكُونُ، حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام قَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا مَاتَ لَمْ يَكُنْ مَيِّتاً فَإِنَّ الْمَيِّتَ هُوَ الْكَافِرُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ» يَعْنِي الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ»[1].

تفصيل القول

الحياة أكبر آيةٍ للّه تعالى، والحياة تخرج وتبدأ من الموت،

(١) معاني الأخبار، ص٢٩١.

وإنَّ خير وسيلة للوصول إلى المعرفة هو النظر في هذا المسار والتحوّل العجيب.

وهذه الآية الكريمة تشير إلى حقيقة مهمّة يغفل عنها الإنسان. فاللَّه سبحانه قد جعل الحياة في الأرض في دائرة من الأشياء الميتة، فأخرجها من صميم الموت والعدم، وجعلها تنمو وتتجلّى:

١ - ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾

فالأرض ميّتة، والأوكسجين ميّت، والمواد الكيميائية ميّتة، وكلّ المواد الغذائية ميّتة قياساً بما ينبغي أن ينمو ويترعرع منها. ولكن اللَّه سبحانه يُخرج الحياة من وسط هذه الأموات، فالحياة موجودة في النطفة والبذرة ولكنها تنطلق من مجموعة الأموات وتشق طريق تكاملها.

إنَّ خروج الحيّ من الميّت أمر يحدث في كلّ عام، بل يمكن مشاهدته في جميع الأيام، فالأرض في فصل الشتاء تأخذ صبغة الأموات، إذ لا نبات ينمو ولا زهرة تتفتح، ولا وردة تزدهر، ولكن في فصل الربيع وباعتدال الهواء وبهطول المطر تربو الأرض وتهتزّ، فتنمو النباتات في كلّ مكان، وتبتسم الأزهار، وتتراقص الأوراق والأغصان، وهذه صورة من المعاد نراها ونلمسها في هذا العالم.

الخِلقة والمعاد

أمّا خروج الميّت من الحيّ فليس أمراً خافياً، إذ ترى الأشجار - مثلاً- تموت على سطح الأرض وتتبدّل إلى أخشاب يابسة، كذلك البشر والحيوانات تفقد حياتها وتتحول إلى جثث هامدة:

٢- ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾

وعـن «خـروج الحيّ مـن الميّت» قـال بعض المفسّـرين بأنه خـروج الإنسـان والحيـوان مـن النطفـة، وفسّـره بعض آخـر بولادة المؤمن من الكافر، وقال آخرون: هو يقظة النائم.

ولعـلّ كلّ واحـد من هـذه الأقوال لا يجسّـد المعنـى الكامل للآية الكريمة، ذلك لأنّ النطفة مادّة حيّة، ومسألة الإيمان والكفر من بطون الآية وليس ظاهرها، وموضوع النوم واليقظة له مسحة مجازيّة لأنّ الموت والحياة ليسـا حقيقيين فيهمـا. إنما ظاهر الآية هو أنّ اللّه تعالـى يخرج الموجودات الحيّة من الموجودات الميّتة على الدوام، ويبدّل الموجودات الميتة إلى موجودات حيّة:

٣- ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ﴾

هذا رغـم أنّ مسـلّمات العلـم المعاصر، وطبقـاً للاختبارات والتحاليل البشريّة والمشاهدات اليوميّة - حتى الآن على الأقل - لم تشاهد موارد خروج موجودات حيّة من موجودات ميّتة هامدة، وإنّما المشـهود هو خروج الأحياء من بيضة أو بذرة أو نطفة أو موجودات حيّـة أخرى. ولكنّ المسـلّم هو أنّه عندما كانـت كرتنا الأرضيّة قطعة مـن لهب ونار، لم يكـن فيها موجود حـيّ، ثمّ تولّـدت الموجودات الحيّة ضمن قفزة كبيرة، تمّ ذلك بشروط وظروف خاصّة لم يكتشفها العلـم حتّى الآن. إنَّ هذا الموضوع لم يصل اليه العلم البشـري حتى الآن ضمن الظروف الحالية للكرة الأرضيّة.

أمّـا مـا هـو محسـوس وقابـل لـلإدراك مـن ناحيتنـا هـو أنّ الموجـودات الميّتة تتحوّل باسـتمرار جزءاً من أجسـام الموجودات

الحيّـة، فترتـدي ثوب الحيـاة. إنّ الطعام الذي نتناولـه ليس موجوداً حيّـاً، ولكنّـه إذا أصبـح جزءاً مـن أبداننـا؛ يتحوّل إلى موجـود حيٍّ، وتضـاف خلايا جديدة إلى خلايانـا، كما يتبدّل الطفل الرضيع - عبر هذا الطريق - إلى شابٍّ قويٍّ.

وعلى الدوام يحدث في عالم الطبيعة خروج الحياة من صميم الموت، والموت من صميم الحياة، وبهذا الشـاهد والدليل كان اللّٰه تعالى، وهو خالق الطبيعة، قادراً على إحياء الأموات في عالم آخر.

البُعد المعنوي للآية

وللآيـة من وجهة النظر المعنويّة تفاسـير أخـرى، منها: ولادة المؤمن مـن كافر، والكافر من مؤمن، والعالـم من جاهل، والجاهل من عالم، والصالح من فاسـد، والفاسـد من صالح. كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات والأحاديث الشريفة.

والذين قالوا بأنّ المقصود من إخراج الحيّ من الميّت والميّت مـن الحي هو: إيـلاد المؤمن من صلب الأب الكافـر، وإيلاد الكافر من صلب الأب المؤمن، كان دليلهم هو أنّ اللّٰه تعالى سـمّى الإيمان حيـاة ونوراً؛ والكفر موتاً وظلمـة وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[1].

والمؤيِّـد لهذا الاحتمال هو أنّ الحياة الإيمانيّة مرتبة كاملة من الحياة، إذ اللّٰه تعالى يعطي أهل الإيمان علماً وقدرة وبصيرة خاصّة، والمؤمـن - تبعـاً لمعرفة اللّٰـه تعالى، والانقيـاد لـه، وأداء الوظائف

(١) سورة الأنعام، آية ١٢٢.

الدينيّـة، ضمـن مسـيرته فـي الحيـاة ببصيـرة - يعـي موازيـن الربح والخسـارة ويميّز نفعـه من ضرره، فهـو ممتزج بالسـعادة والتوفيق، ويتمتّـع بالنورانيّـة والصفـاء، فلا يتزلـزل بالحـوادث الواقعة. وهذه الحياة قياسـاً بمن يفقدها هـي أرقى من الحياة الظاهرية بالنسـبة الى الموت الظاهري.

ويمكـن أن يقال إنّ هذه المعاني مسـتقاة من بطون الآية، لأنّنا نعـرف أنّ لآيـات القرآن ظاهر وباطـن، ولكن المـوت والحياة لهما معنىً جامع وواسـع، والحياة الظاهرية مرتبـة دانية من هذه المعاني، فيمـا الحيـاة الواقعيّة هي فـي عالم المعنويـات. انظروا إلـى الرواية الـواردة عـن الإمـام الكاظـم عليه السلام فـي تفسـير قوله تعالـى: ﴿وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ حيـث يقول: «**لَيْسَ يُحْيِيهَا بِالْقَطْـرِ، ولكِنْ يَبْعَثُ اللَّه رِجَـالًا، فَيُحْيُونَ الْعَـدْلَ، فَتُحْيَـا الْأَرْضُ لإِحْيَاءِ الْعَـدْلِ، ولَإِقَامَةُ الْحَدِّ فِيهِ أَنْفَعُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْقَطْرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا**»(١).

واضـح أنّ الإمـام عليه السلام ينفي الحصـر، أي أنّ الآيـة لا ينبغي حصرهـا بالمطر، إذ الأهم من المطر وإحياء الأرض على المسـتوى المـادّي هو الإحيـاء المعنوي لـلأرض بالعدل بواسـطة رجـال اللَّه وأوليائه الصالحين.

وفـي حديث آخر عن الإمام الصـادق عليه السلام ورد التأكيد على أرجحيّـة الحيـاة المعنويّة على الحيـاة الماديّـة الظاهريّة. قال عليه السلام بخصـوص قولـه تعالـى: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾: «**مَـنْ أَخْرَجَهَـا مِنْ ضَـلَالٍ إِلى هُـدًى فَكَأَنَّما أَحْيَاهَـا، وَمَنْ**

---

(١) الكافي، ج٧، ص١٧٤.

أَخْرَجَهَا مِنْ هُدًى إِلى ضَلَالٍ فَقَدْ قَتَلَهَا»[1].

في خاتمة الآية، تحدّث اللَّه سبحانه عن الإحياء الآخر للإنسان في يوم القيامة، فقال:

٤ - ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾.

أي أنّ ما تمّ بيانه كان لتوضيح كيفية إحياء الموتى، ولتأكيد حقيقة أنّ اللَّه الذي أخرج الحيّ من المواد الميّتة في اليوم الأول للخلقة، ستكون العمليّة أيسر بمراتب كثيرة في يوم القيامة، إذ سيهب الموتى حياة جديدة.

من جانب آخر؛ قد تشير الآية إلى نكتة لطيفة؛ وهي أنّ للماء والمطر دوراً مهماً في الحياة، حيث يحيي الأرض بعد موتها بالمطر. فكما بدأت الحياة الأولى بالماء والمطر، وبدأت الأرض حياتها بنموّ النباتات: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾[2] ستبدأ الحياة الأخرى بالمطر أيضاً كما ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِذَا أَرَادَ اللَّه عَزَّ وجَلَّ أَنْ يَبْعَثَ الْخَلْقَ أَمْطَرَ السَّمَاءَ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَاجْتَمَعَتِ الْأَوْصَالُ ونَبَتَتِ اللُّحُوم**»[3].

بصائر وسنن

١ - الحياة أكبر آيةٍ للَّه تعالى، والحياة تخرج وتبدأ من الموت،

---

(١) الكافي، ج٢، ص٢١٠.
(٢) سورة نوح، آية١٧.
(٣) بحار الأنوار، ج٧، ص٣٣.

وإنَّ خير وسيلة للوصول إلى المعرفة هو النظر في هذا المسار والتحوّل العجيب.

٢- إنّ الحياة الإيمانيّة مرتبة كاملة من الحياة، إذ اللَّه تعالى يعطي أهل الإيمان علماً وقدرة وبصيرة خاصّة، والمؤمن يعي موازين الربح والخسارة ويميّز نفعه من ضرره، فهو ممتزج بالسعادة والتوفيق، ويتمتّع بالنورانيّة والصفاء، فلا يتزلزل بالحوادث الواقعة. وهذه الحياة قياساً بمن يفقدها هي أرقى من الحياة الظاهرية بالنسبة الى الموت الظاهري.

خلق الإنسان من تراب

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ٢٠﴾.

من الحديث

قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديثٍ:

«وَالْعَجَبُ مِنْ مَخْلُوقٍ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّه يَخْفَى عَلَى عِبَادِهِ، وهُوَ يَرَى أَثَرَ الصُّنْعِ فِي نَفْسِهِ بِتَرْكِيبٍ يَبْهَرُ عَقْلَهُ، وتَأْلِيفٍ يُبْطِلُ حُجَّتَه. ولَعَمْرِي لَوْ تَفَكَّرُوا فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الْعِظَامِ لَعَايَنُوا مِنْ أَمْرِ التَّرْكِيبِ الْبَيِّنِ، ولُطْفِ التَّدْبِيرِ الظَّاهِرِ، ووُجُودِ الْأَشْيَاءِ مَخْلُوقَةً بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ، ثُمَّ تَحَوُّلِهَا مِنْ طَبِيعَةٍ إِلَى طَبِيعَةٍ وصَنِيعَةٍ بَعْدَ صَنِيعَةٍ، مَا يَدُلُّهُمْ ذَلِكَ عَلَى الصَّانِعِ»[1].

تفصيل القول

من جملة آيات ودلائل وجود اللّٰه تعالى ووحدانيّته أنّه خلق

(١) بحار الأنوار، ج٣، ص١٥٢.

الناس من تراب. وهذا الخلق إمّا باعتبار أنّ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد خُلق من التراب مباشرة، فأطلقت الخلقة الترابيّة على ذرّيّته مجازاً، وإمّا باعتبار أنّ النطفة التي يُخلق منها الإنسان تتشكّل من الأغذية التي مصدرها التراب في نهاية الأمر:

١ - ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾

وبعد ذلك تشير الآية الى أنه رغم أن أبوي البشر كانا اثنين فقط، ولكنّ هؤلاء البشر قد تكاثروا وانتشروا بقدرة البارئ عزّ وجلّ الى هذا العدد الكبير الذي نشاهده:

٢ - ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾

وهذه الآية الشريفة مع أنّها تتضمّن استعراضاً لبعضٍ من قدرته تعالى، وفيها من الدروس التعليميّة والتربويّة الكثير، كأنّها في الوقت ذاته تسأل المشركين عمّا إذا كانت آلهتهم المزيفة لها القدرة على إنجاز مثل هذا العمل؟!

اللّه يتجلّى في القرآن

روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «**لَقَدْ تَجَلَّى اللّه لِخَلْقِهِ فِي كَلَامِهِ ولَكِنَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**».

إنّ الآيات (٢٠-٢٥) من هذه السورة المباركة تؤكّد معنى هذه الرواية، فهي تورد مصاديق من تجليات اللّه سبحانه وتشير إليها. أي: مع أنّ جميع الآيات القرآنيّة تجلٍّ للّه تعالى، ولكن بعض الآيات ترشد بشكل خاصٍّ إلى بعض الصور والنماذج من هذا التجلي. واللّه سبحانه قد كرّر الإشارة إلى آياته ست مرات بدءاً من الآية ٢٠ الى ٢٥ في عبارة: (ومن آياته).

حقائق عن الخلقة

يقول اللّه تعالى في هذه الآية:

٣- ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾

وهـذا يعنـي أنّ مَـن لا يلتفت جيـداً إلى هـذه الآيـات أو يكفر بها، فسـيكون مشـمولاً بحكم من يكذّب بآيات اللّه تعالى، والذي مرَّ الحديث عنه في الآية ١٦ من هذه السورة: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾. ثم قال سبحانه:

٤- ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾

حاول بعض المفسِّـرين تقدير كلمـة أب في هذه الآية، فجعل معنـى الآية: وخلـق أباكم من تراب. ولكن لا ضـرورة لذلك، إذ أنّنا إن لـم نفهم شـيئاً معيّناً من القـرآن المجيد، فمـن الأفضل أن نعترف بعجزنا عن الفهم، دون أن نضيف شـيئاً من عند أنفسنا. فاللّه سبحانه كان قـادراً علـى أن يقـول ذلك، أو يلمّح إليه علـى وجه الخصوص، فلمَ لم يفعل ذلك؟ ولِمَ قال: ﴿خَلَقَكُم﴾؟

ولكـن متى خلقنـا اللّه القدير مـن تراب؟ فنحن لم نـر تراباً!! وإنّمـا المعـروف، هو صلب الأب ورحـم الام وماء دافـق، كما قال سـبحانه في سورة الطارق: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ فاذا كان الأمر كذلك فما معنى الخلقة من تراب؟!

وفضـلاً عـن ذلك، مـا العلاقة بيننا وبيـن التراب الـذي خُلقنا منه؟ ينبغي أن نكتشف العلاقة.

الحقيقة هي أنّنا إذا أمعنّا النظر في هذه العلاقة، سـيُفتح أمامنا باب من أبواب المعارف الإلهيّة، وسـتحل الكثير من المسـائل إذا ما

عرفت العلاقة بين ابن آدم والتراب!

٥ - ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾

أي: صرتم من التراب بشراً تنتشرون في الأرض وتتوزّعون في بقاعها، وتسخرون ما فيها لحياتكم ومصالحكم.

الخَلق وعالَم الذر

إنّ اللَّه قد خلقنا جميعاً من تراب، وذلك عندما خلق آدم وخلق ذريته في عالم الذر. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

أي إنّ اللَّه قد أخذ منّا إقراراً بربوبيته، ولكن هل كنّا نعرف شيئاً حتى نقرَّ به؟ لقد ألهمنا الربّ الحكيم معرفته أوّلاً، فأنار مَنْ في صلب آدم عليه السلام بمعرفته، ثم أخذ منهم الإقرار بذلك.

وحين أخرج الجميع - في مشهد عام -من صلب آدم قال اللَّه جل جلاله لآدم - كما في الحديث المروي عن الامام الباقر عليه السلام -: «**انْظُرْ مَاذَا تَرَى**»؟

فَنَظَرَ آدَمُ إِلَى ذُرِّيَّتِهِ وَهُمْ ذَرٌّ قَدْ مَلَئُوا السَّمَاءَ، فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ مَا أَكْثَرَ ذُرِّيَّتِي ولِأَمْرٍ مَا خَلَقْتَهُمْ؟ فَمَا تُرِيدُ مِنْهُمْ بِأَخْذِكَ الْمِيثَاقَ عَلَيْهِمْ؟

قَالَ اللَّه عَزَّ وجَلَّ: «**يَعْبُدُونَنِي ولا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً، ويُؤْمِنُونَ**

(١) سورة الأعراف، آية ١٧٢-١٧٣.

بِرُسُلِي ويَتَّبِعُونَهُمْ» قَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ فَمَا لِي أَرَى بَعْضَ الذَّرِّ أَعْظَمَ مِنْ بَعْضٍ، وبَعْضَهُمْ لَهُ نُورٌ كَثِيرٌ، وبَعْضَهُمْ لَهُ نُورٌ قَلِيلٌ، وبَعْضَهُمْ لَيْسَ لَهُ نُورٌ؟

قَالَ اللَّه عَزَّ وجَلَّ: «**كَذَلِكَ خَلَقْتُهُمْ لِأَبْلُوَهُمْ فِي كُلِّ حَالاتِهِم**»[1].

إذن؛ ففي ذلك العالَم الذي خلق اللَّه فيه آدم عليه السلام، وخلق ذريته على صورة الذرّ قد خلقنا نحن أيضاً من تراب.

علاقة الإنسان بالتراب

السؤال المهمّ الآخر هنا هو: ما هي علاقتنا بالتراب؟

فإذا كان اللَّه قد خلقنا من تراب، فهذا يعني أنّ هناك علاقةٌ مّا بيننا وبين التراب، فما هي تلك؟.

إنّ علاقتنا بالتراب علاقة الوليد بأمّه وأصله، فالتراب أصلنا. فإذا ما تمت هذه العلاقة، كنّا مسؤولين تجاه التراب، فلا بد لنا من احترام هذا التراب الذي نمشي عليه، فنحافظ على نظافة البيئة وصلاحها، هذه المحافظة التي طالما شرعها الإسلام وأوصى بها، وردت في القرآن والروايات وعلى لسان الفقهاء إذ بحثوا موضوعها بإسهاب.

وطبقاً لتعاليم القرآن؛ لا يصح أن نتسبّب في فساد وتلويث البيئة. قال تعالى:

﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[2].

---

(١) علل الشرائع، ج١، ص١٠.
(٢) سورة الأعراف، آية٥٦.

وقال سبحانه في الآية ٤١ من هذه السورة: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾.

فالبشر قد أفسدوا الأرض، واعتدوا على الطبيعة، ولوّثوا البيئة، وليس لم يستفيدوا من نعم اللّه تعالى التي أودعها في الطبيعة فحسب، بل عملوا، باستهتارهم بالطبيعة وبالنعم الإلهية - على إفساد حياتهم وبيئتهم.

فإذا كان اللّه قد خلقنا من تراب، فهذا يعني أننا مسؤولون عن هذا التراب، فعلينا أن نعمل على إعمار الأرض بالنحو الذي لا يضرّ بها، واستثمار منابعها الطبيعيّة بالشكل الذي لا يؤدّي إلى الطغيان أو التخريب.

فإذا كان الإنسان يعيش على أرضٍ يستطيع إعمارها واستثمارها ولكنه أهمل ذلك فإن الأرض ربما تشكوه الى اللّه تعالى. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**اتَّقُوا اللَّه فِي عِبَادِهِ وبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ والْبَهَائِم**»[1].

والبقاع بمعنى قطع الأرض، الأرض التي ينبغي إعمارها وليس تخريبها، فلا يلوَّث ترابٌ أو ماءٌ أو هواءٌ.. وهذه مسؤوليّة كبيرة يتحملها البشر تجاه الأرض وكل أجزاء البيئة.

البشر والانتشار في الأرض

قال اللّه تعالى في خاتمة الآية:

٦ - ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾

ورود كلمة (بشر) مع (تنتشرون) في هذه الآية الكريمة ربما

(١) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، ص ٢٤٢، الخطبة ١٦٧.

يدل على أنّ اللَّه تعالى جعل في هذا البشـر خاصيّة الانتشـار، فالبشر ينتشـرون في الأرض لإعمارها واستثمارها في الاتجاه السليم: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1].

وفي هذا القسـم من الآية، وردت كلمـة (إذا) بعد كلمة (ثُمّ)، و(إذا) حـرف مفاجئـة، فالجملـة تعني أنّ اللَّه قـد خلقكم من تراب، وفجأةً ودفعة واحدة صرتم بشراً تنتشرون.

وجعل اللَّه في هذا البشر خاصّيّة الانتشار، كما جعل ذلك في النـور. ويلاحظ أنّ هنـاك من المخلوقات ما خُـصَّ بالإقامة في بقعة ومنطقة واحدة، فلا يستطيع التأقلم مع مختلف الظروف، إلاّ أنّ أولاد آدم عليه السلام لهـم القابليـة على العيش في مختلـف الأماكن والظروف البيئيّة. حتى لترى أحدهم يعيـش في القارّة الافريقية الحارق جوّها، وقد خلقه ربّه المتعال أسود البشرة ليقاوم الظروف الطبيعية الخاصة بهـذه القـارة وبقاعهـا، ومـع مـا يبدو مـن ضعف بدنـه، ولكنـه قادر علـى مقاومة الأمـراض والأوبئة التي يعجز نظيـره الأوروبي المفعم بالصحّة والحيويّة عن مقاومتها.

إنّ البشـر قادر على العيش فـي مختلف أرجاء المعمورة، وقد أثبت العلم الحديث أن جِلدة ابن آدم هي الأشـدّ مقاومة من مختلف الحيوانات، بما فيها الفيل ووحيد القرن.

وإنّ فلسـفة قابليّة الإنسـان المشـار إليها هي أنّه خُلق ليسـخِّر الأرض، وهو قد أنشـئ من الناحيـة البدنية والروحيّة والعقليّة بحيث يكون قادراً على التأقلم مع مختلف الظروف والأجواء بما يكتشـف ويصنع من أدوات، وما يطوِّر ما يلزمه من وسائل عيش.

(١) سورة هود، آية٦١.

لقد خُلِقَ الجميع من تراب، ولكنّ أحدهم خُلِقَ ذا بشرة بيضاء، والآخر ذا بشرة سوداء، والثالث ذا بشرة سمراء، وكلٌّ منها ضمن حسابات وتقديرات متقنة دقيقة، حتّى أن طول الإنسان وحجمه وغير ذلك؛ خاضع لقانون القدرة على التأقلم والحاجة.

ثمّ إنني استشفّ من هذه الآية الكريمة أنّ هذا الانتشار بحد ذاته هدف وقيمة، لا سيما وأنّ اللَّه تعالى لم يأمرنا بالبقاء في المكان الذي ولدنا فيه لنموت فيه، بل اللَّه قال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[(١)].

لضرورة التحرّك والمشاهدة والتخلص من الصعوبات والضغوط.

بصائر وسنن

١ - إنّ علاقتنا بالتراب علاقة الوليد بأمّه وأصله، فالتراب أصلنا. فإذا ما تمت هذه العلاقة، كنّا مسؤولين تجاه التراب، فلا بد لنا من احترام هذا التراب الذي نمشي عليه، فنحافظ على نظافة البيئة وصلاحها، هذه المحافظة - التي طالما شرعها الإسلام وأوصى بها - وردت في القرآن والروايات وعلى لسان الفقهاء إذ بحثوا موضوعها بإسهاب.

(١) سورة الروم، آية٤٢.

السكينة بين الزوجين

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

من الحديث

جاء في الحديث عن الامام الصادق عليه السلام عن خلق آدم وحواء:

«ثُمَّ ابْتَدَعَ لَهُ حَوَّاءَ – الى أن قال:– فَأَقْبَلَتْ تَتَحَرَّكُ، فَانْتَبَهَ لِتحَرُّكِهَا، فَلَمَّا انْتَبَهَ نُودِيَتْ أَنْ تَنَحَّيْ عَنْهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا نَظَرَ إِلَى خَلْقٍ حَسَنٍ يُشْبِهُ صُورَتَهُ غَيْرَ أَنَّهَا أُنْثَى، فَكَلَّمَهَا فَكَلَّمَتْهُ بِلُغَتِهِ، فَقَالَ لَهَا: مَنْ أَنْتِ؟ قَالَتْ: خَلْقٌ خَلَقَنِي اللَّه كَمَا تَرَى.

فَقَالَ آدَمُ عليه السلام عِنْدَ ذَلِكَ: يَا رَبِّ مَا هَذَا الْخَلْقُ الْحَسَنُ الَّذِي قَدْ آنَسَنِي قُرْبُهُ والنَّظَرُ إِلَيْهِ؟

فَقَالَ اللَّه تَبَارَكَ وتَعَالَى: يَا آدَمُ، هَذِهِ أَمَتِي حَوَّاءُ، أَ فَتُحِبُّ أَنْ

تَكُونَ مَعَكَ تُؤْنِسُكَ وتُحَدِّثُكَ وتَكُونَ تَبَعاً لِأَمْرِكَ؟

فَقَالَ: نَعَمْ يَا رَبِّ، ولَكَ عَلَيَّ بِذَلِكَ الْحَمْدُ والشُّكْرُ مَا بَقِيتُ.

فَقَالَ اللَّه عَزَّ وجَلَّ: فَاخْطُبْهَا إِلَيَّ، فَإِنَّهَا أَمَتِي، وقَدْ تَصْلُحُ لَكَ أَيْضاً زَوْجَةً لِلشَّهْوَةِ. وأَلْقَى اللَّه عَزَّ وجَلَّ عَلَيْهِ الشَّهْوَةَ وقَدْ عَلَّمَهُ قَبْلَ ذَلِكَ الْمَعْرِفَةَ بِكُلِّ شَيْءٍ.

فَقَالَ يَا رَبِّ فَإِنِّي أَخْطُبُهَا إِلَيْكَ فَمَا رِضَاكَ لِذَلِكَ؟

فَقَالَ عَزَّ وجَلَّ: رِضَايَ أَنْ تُعَلِّمَهَا مَعَالِمَ دِينِي.

فَقَالَ: ذَلِكَ لَكَ يَا رَبِّ عَلَيَّ إِنْ شِئْتَ ذَلِكَ لِي.

فَقَالَ عَزَّ وجَلَّ: وقَدْ شِئْتُ ذَلِكَ وقَدْ زَوَّجْتُكَهَا فَضُمَّهَا إِلَيْكَ...»[(١)].

تفصيل القول

العلاقة المتبادلة بين الرجل والمرأة

من آيات اللَّه الأخرى ذات العبرة؛ حاجة الإنسان إلى الجنس الآخر، والعلاقة المتبادلة فيما بين الرجل والمرأة، وهذه الحاجة ثنائية، وهي نابعة من أنّ الخالق تعالى اسمه قد جعل كلّ شيءٍ قائماً على أساس الزوجية، فعلّق سبحانه مسألة استمرار الحياة البشريّة على الاقتران بين الذكر والأنثى، ولكنّ هذا الاقتران ليس على سبيل القوّة والإجبار، وإنّما يتم بالرغبة والميل من قبل الطرفين. وهذا آية من آيات اللَّه تعالى:

(١) من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص٣٧٩ ح٤٣٣٦.

١ - ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾

فالرجل يبحث عن المرأة بشـوق بالغ، حتّى أنّه قد يرمي نفسه فـي بعض الأحيان في مـوارد الهلكة، وكذلك هو الشـأن في المرأة، ولـولا الغريـزة المجعولـة فيهمـا للـزواج والبحث عن السـكينة في القِـران بينهمـا لغضّا الطرف عن ذلك، لأنّ الزواج قرين مسـؤوليات جمّـة.. إذن؛ فاللّه تعالى قد قرن خلقة الإنسـان بالـزواج، وأودع في داخل الأفراد الرغبة إلى الزواج:

٢ - ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾

ولعلّ الرجل والمرأة لم يعرفا؛ أو لم يريا بعضهما إلّا لحظات معـدودة قبل الـزواج، ولكنّهما ما أن يتزوّجا حتـى يتعلّقا فيما بينهما ويصيران كأنهما روحان في بدن واحد!

الاتصال الروحي بين الزوجين

إنّ العلاقـة التـي جعلها اللّـه بين المرأة والرجـل هي أبعد من مجـرد مودّة ظاهرية مبتنية على أسـاس مادي أو مصالح مشـتركة أو خدمات يقدّمها طرف للطرف الآخر، فهو إتصال روحي.

وبعبـارة أخـرى؛ لعـل الصلة بين الـزوج وزوجه تأخـذ طابعاً شـهوانياً في بداية الأمر، ولكنّهـا لا تتوقّف عند هذا الحّد أبداً، بل إنّ مرور الزمان سـيكون كفيلاً بتبديلها إلى حبٍّ عميق مبنيٍّ على أسس الإيثـار والعطاء؛ حتى يبلغ أعلى مراتب التضحيـة والفداء، لأنّ هذه السُّنة هي من جعل اللّه:

٣- ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾

ترى ما الغاية من بيان هذه الحقائق والآيات؟

٤- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فالغاية -إذن- هي التفكّر، والتفكّر هو تحريك الذهن وانطلاقه من المعلومات الظاهريّة للتوصُّل الى معلومات جديدة، وحينما يتفكّر المرء في ظواهر الحياة يصل إلى عمق المعرفة وحكمة الحياة.

الأسرة وراء تكاثر البشر

نعلم أنّ البشر استطاع خلال قرون مديدة مواصلة حياته، والانتشار في أرجاء الأرض، ومقاومة المشاكل الكبرى والتفوّق عليها، فما السرّ في هذه القابليّة؟

في المقابل؛ كانت هناك موجودات حيّة انقرضت عبر التاريخ، كالديناصورات. وهناك موجودات حيّة أخرى قاومت ولم تنقرض، ولكنّ أعدادها تضاءلت إلى حدٍ بعيد وهي في خطر الانقراض. أمّا البشر فإنه ليس لم ينقرض فحسب، وإنّما هو في تكاثر وازدياد، وعدد البشرية الآن قارب المليارات الثمان نسمة يعيشون معاً في كل أرجاء الأرض، فكيف نما عدد الإنسان، بهذا الشكل؟!

بعد أن بيّن اللّه تعالى أصل الخلقة الإنسانية من التراب، وقال: ﴿إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾، أي أنّ البشر في حال ازدياد وتكاثر، أشار في هذه الآية إلى بيان العلّة؛ وهي: تأسيس الأسرة.

إن البشر من جملة الموجودات التي تعيش بشكل عائلي، ولكن بدرجة أعلى بين الموجودات العائلية الاجتماعية، بل إنّ أرقى ما يشكّل الأسرة هو الإنسان، ولكن لماذا؟

علاقات أسمى من المادة

لأنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد جعل العلاقة بين الزوجين أسمى من العلاقات المادية، فإذا تزوّج الرجل والمرأة ومات الرجل أو المرأة تذكّر الحيّ منهما الميّت وبقي وفياً له مدى الحياة - في معظم الحالات - ولم يفقد شعور المحبّة تجاه صاحبه:

٥ - ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾

وما من مخلوق آخر كالإنسان، وهذه العلاقة والجاذبية ليسا ماديّين، أمّا الموجودات الأخرى؛ فينتهي كلّ شيء بينها ما أن ينفصل الذكر عن الأنثى.

وبغضّ النظر عن القضايا الظاهريّة والمادّيّة، فإنّ العلاقة الزوجيّة ليست علاقة شهوانيّة فحسب، ولو كان الأمر كذلك لما أحبّ الرجال وتعلّقوا إلاّ بامرأة واحدة؛ هي الأجمل من بين النساء في العالَم.

بل كلّ زوج يظنّ في زوجه الجمال والكمال، وقد لا يكون هذا الأمر قبل الزواج ولكنه يحدث بعد الزواج مباشرة.

روي أنَّ رجلاً أتى النبيّ ﷺ فقال: يا نبيّ اللَّه لقد عجبتُ من أمر وإنَّه لعجب، إنّ الرجل ليتزوّج المرأة وما رآها وما رأتهُ قط حتى إذا ابتنى بها اصطحبا وما شيء أحبّ إليهما من الآخر. فقال رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[1].

إنَّ هذه هي حقيقة سر البقاء وتكاثر النسل البشري. والشيطان يعرف أنّ طريق الحياة السليمة هو تكوين الأسرة، وأنّ محور القيم

(١) الكشف والبيان عن تفسير القران، ج٧، ص٢٩٩.

الإلهية يكمن في أجواء الأسرة الطيّبة، ولهذا فهو يستهدف الأسرة ويبذل كلّ جهده لتدمير هذا المركز والمحور؛ الذي هو مهبط الرحمة والتآلف. وفي هذا المجال ينشط شياطين الجنِّ الخفيّة وشياطين الإنسِ الظاهرة.

يريدون تدمير الأسرة

إنّهم يثيرون الفوضى بهدف تدمير الأسرة، فتارة يدافعون عن المرأة، وأخرى عن الرجل، إلاّ أنّ هدفهم التفريق بين أعضاء الأسرة وأجزائها. ففي كلّ يوم - مثلاً - يُقتل أُناس أبرياء ويُعدم آخرون ويحدث ما يحدث في العالم، ولكنهم لا يهتمون لها اهتمامَهم بالدفاع والحديث عن امرأة ساقطة ممن يثرن الشهوات الرخيصة. إنّ الهدف ليس هو الدفاع، وإنّما الحيلولة دون تأسيس الأسرة الشريفة والحفاظ عليها، ولطالما أثاروا الأجواء للدفاع عن الشذوذ الجنسي وتشريع القوانين لنشره، فلماذا؟

لقد أسّسوا القنوات التلفزيونية الكثيرة ليزلزلوا مركز الأسرة ويبثّوا برامج وأفلام هي الغاية في تشويه الهيكل الأسري تحت مسمّيات الحرية وحقوق المرأة أو حقوق الرجل حتّى، وإنّهم في سبيل ذلك ينفقون الأموال الحرام الطائلة لتوسيع هذه الحرب الشيطانيّة.

وفضلاً عن قنوات التلفزة؛ هناك من شياطين الإنس الذين أمرنا اللَّه تعالى بالاستعاذة منهم والتحصن بقيمه السامية دونهم، اؤلئك الذين يوسوسون في صدور الناس من الجنة والناس، اؤلئك يوسوسون لأفراد البشر ومجتمعاتهم عبر طرق مختلفة، ويسعون جاهدين ليضلوهم عن سبيل اللَّه الحقّ.

والانترنت أحد تلكم الطرق، حيث يتواصل الشباب فيما بينهم عبر الانترنت من خلال شبكات التواصل الاجتماعي، فيتعارف الشباب بالشابّات بالتحاور بدءاً، ثم تتطوّر الأمور إلى الصوت والصورة، وهم لمّا يتمتّعوا بحصانة تربوّية، وأيّة حصانة تمنع هذا التواصل المشبوه، أو يمكنها أن تبيحه ضمن الأحكام الشرعية - إن تنزّلنا في القول - فهل يمكن لهذا التواصل أنّ يحلّ محلّ تأسيس الأسرة الطيّبة؟ وهل هذا هو السبيل الصواب؟ وهل من الحقّ أن يعمد الجيل الشاب إلى تلبية غرائزه الشهوية عبر هذا الطريق؟!

لقد جعل اللّه الشهوة في الإنسان كما الوقود بالنسبة إلى السيارة؛ لتوصلنا إلى نقطة محدّدة هي العلاقة الزوجية، وجعل الشهوة فينا لنؤسّس الأسرة ونصنع المجتمع، فيتكامل المرء بين أبناء جلدته ويقطع المسافة المعنوية باتجّاه الربّ الكريم، ولم تُجعل الشهوة في يوم من الأيام لتكون هدفاً بنفسها. إنَّ هذا طريق خاطئ وضعه الشيطان أمام الشباب لتحريفهم عن سواء السبيل.

المودّة والرحمة في العلاقة الزوجيّة

قال سبحانه وتعالى:

٦- ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾

فما هي المودة؟ وما هي الرحمة؟

قال البعض: المودَّة تأتي أولاً في العلاقة الزوجية، ثم تتبعها الرحمة. أي أنّ من يتزوّج يودّ زوجته في البدء، ثمّ تظهر فيه الرحمة بعد ذلك.. إذن؛ فالمودّة أقرب ما تكون إلى الجانب المادّي، بينما الرحمة ذات بُعد معنوي. وهذا ليس ما نذهب إليه طبعاً، لماذا؟

لأنَّ اللَّـه سـبحانه يقول في الآية الثالثة والعشـرين من سـورة (الشورى) والتي اسمها في الاصل: سورة (المودّة): ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ وواضـح أنّ العلاقـة المطلوبة مع أهل بيت النبي صلوات اللَّه عليه وعليهم ليست علاقة مادّيّة.

وعليـه؛ فـإنّ المودَّة ليسـت قائمة على أسـاس المـادة البحتة والشـهوة الجنسـية.. إذن لماذا أوردت الآية صفتي المودّة والرحمة معاً؟

يبـدو لي أنّ المـودّة علاقة متبادلـة بين طرفيـن، بينما الرحمة تتحقق من طرف واحد، كيف؟

إن كان الذيـن نحبّهم؛ يحبوننا أيضاً، فهي المودّة، فيُقال: (يودّ بعضهـم بعضـاً) ونقـرأ في الآية ٧٣ من سـورة النسـاء: ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ﴾ مما يشير إلى أنّ المودّة حالة ثنائيّة.

المـودّة - حسـب هذه النظـرة - تعني حبّـاً متبـادلاً بين المرء وزوجـه، ولكن ثَمَّة حالة أعلـى منها؛ وهي الرحمة. افترضوا إنّ أحد الزوجين كان سيّئاً، فحدا سلوكه السيّء إلى زوال المودّة فيما بينهما، ولكـنّ الرحمـة من جانب الطرف الآخر تحول دون إنفسـاخ العلاقة الزوجية.

إنّ الرحمـة أسـمى مـن المـودّة، ويمكن أن تكـون من جانب واحـد، فيكـون معنى النـصّ القرآني: أنّ اللَّه تعالى قـد جعل العلاقة الزوجيّـة مفعمـة باللطف والعمق والرصانـة، بحيث حتى لو لم تكن بينهما مودّة فإن الرحمة تصونها من التزلزل.

يعـادل هـذا المعنى مـا ورد فـي قوله تعالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ

﴿بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[1]. فالعدل يعني الحقّ وايتاء كلّ ذي حقٍّ حقَّه، ولكنّ الإحسان أعلى مرتبة من العدل وأبعد، إذ يضيف المرء خيراً حين يردّ حقاً، ويبدو أن المودّة كالعدل، حيث يتم تبادلها بين الطرفين، فيما الرحمة تأخذ دور الإحسان، حيث يضيف طرفٌ المزيد من التفاعل الإيجابي تجاه الطرف الآخر.

هل الرجل أفضل من المرأة في الخلقة؟

جاءت في هذه الآية الكريمة:

٧- ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾

فماذا يعني ذلك؟

قيل: إنّ أمّنا حواء قد خُلِقت من طينة آدم عليه السلام، وعلى وجه الدّقّة، قد خُلقت من أحد أضلاعه. هذا أمر لا نعترض عليه، ولكن هل أنّ ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ لا تعني إلّا هذا المعنى؟ أم أنّ هناك ما هو أبعد منه؟ يبدو الأمر الثاني هو الأصحّ.

الجدير ذكره هنا، هو أنّه رغم أنّ الخطاب القرآني ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ و﴿أَنفُسِكُمۡ﴾ ورد بصيغة المذكّر، ولكن لا يعني هذا أنّ الخطاب مختصٌّ بالرجال دون النساء.

فاللّغة العربيّة تؤنّث وتذكّر، ولكنّ الخطاب إذا كان للمذكَّر والمؤنّث، فإنّه يصاغ -حسب قاعدة التغليب- بهيئة المذكّر، فالشمس -مثلاً- لفظه مؤنّث، والقمر لفظه مذكّر، ولكنهما إذا اجتمعا في الخطاب؛ كان التعبير مذكّراً، فيقال: (قمران) وليس (شمسان) و: إن الشمس والقمر منيران، وليس: منيرتان.

(١) سورة النحل، آية ٩٠.

وفـي القرآن آيـات ظاهرها الخطاب إلى الرجـال، ولكنها في الحقيقـة تعمّ الرجال والنسـاء، وهـذه هي القاعدة في اللّغـة العربيّة. فحيـن تقول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ﴾[1]. فإنّ لفظة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تشمل المرأة والرجل على وجه التساوي.

إذن؛ حيـن تقول الآية الكريمة: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم﴾ فإنّها تعني أنّ اللَّه تعالى قد خلق المرأة للرجل؛ والرجل للمرأة على حدٍّ سـواء، إذ لا يصـحّ تصوّر وجـود أحدهما منفرداً فـي الدنيا، فلا يظنّـنّ أحدٌ مـن الرجال أنّ الخلقـة ذات بُعْدٍ واحـد، وأنّ الرجال هم مركز ومحور الخليقة.

يقول سـبحانه في الآية ١٠ من سـورة لقمـان: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ أي: أنّ الكرامـة والإحتـرام لكلا الزوجين وليس لأحدهما فقط.

ولو أنّ الرجل خُلق محتاجاً للمرأة دون أن تحتاج المرأة إليه، لكان الرجل ذليلاً، وكذلك العكس، لأنّ أحد أسباب الذلّة؛ الحاجة، ولكـنّ كليهمـا محتاج إلى الآخـر، واللَّه لم يخلق أحـداً ذليلاً، فكان الطرفان على مستوىً واحد.

فـ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ يعني أنكما على حدٍّ سـواء، وقد أوضـح اللَّـه تعالى هـذا المعنـى بقوله فـي الآية ١٩٥ من سـورة آل عمـران: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ فـلا فرقَ بيـن الجانبين، ولا يصحّ تصور وجـود الفرق بحالٍ من الأحوال.

---

(١) سورة التحريم، آية٦.

وإنْ أمعنّـا النظر، وجدنا أنه لا فـرق فيزيولوجياً، أي في (علم وظائف الأعضـاء) بين المرأة والرجل، وإنّمـا الخالق المتعال جعل بعض التفاوت في جوارح أو جوانح الرجل والمرأة لمقاصد خاصّة، مـع العلـم أنّ الطبّ الحديث توصل إلى إمكانية تغيير جنسـية المرأة إلـى رجـل وبالعكـس، ممـا يعنـي أنّ كل ما عنـد المـرأة موجود في الرجل، وكل ما في الرجل موجود في المرأة.

الخطاب موجّه للجنسين

لقد مررنا على التفاسـير المختلفة لنرى: ماذا قال المفسّـرون عن ضمير المذكّر في قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾؟ ومـا المقصود من الآية؟ فانتهينا إلى أنّ المفسّـرين لـم يتعرّضوا إلى هذه المسـألة، والذي يبدو لنا أنّ خطاب الآية موجّه إلى عموم البشر سـواء الرجـل أو المـرأة، كما لو قـال اللّٰه: يـا أيّها النـاس، أو: يا أيّها الإنسـان، أو: يا أيها الذين آمنوا، فإنّ الخطاب موجّه للجنسين، إذ لا فرق بين الرجل والمرأة..

كان البعض في سالف الدهر يظنّ بأنّ المرأة ليست بشراً، وإنّما هـي مخلوقة بصورة بشـر لتخـدم الرجل الذي هو البشـر الحقيقي!! وبهذا الظنّ الباطل كانت تُباع النسـاء وتُشـترى وتُسـتخدم وتُستعبَد، وهناك - للأسـف - حتى الآن من يتمسّـك بهذا الظـنّ المقيت. كما هـو الحـال في بعـض مناطـق الهنـد؛ أو كمـا كان بعض الآسـيويين يسـارعون إلى إنزال أشـد العقوبة العاجلة بالمرأة لدى صدور أبسط الأخطاء عنها، حتّى ليصل الأمر إلى القتل. أمّا بعض العرب؛ فكانوا يئدون الإناث؛ تخلّصاً ممّا يظنّونه من العار فيهن.

أمّا الإسلام الحقّ؛ فقد حارب هذه الظواهر الشيطانيّة الباطلة،

وقـد أبطلهـا الربّ المتعال في آيـاتٍ عدّة، ولهذا قـال في الآية ١٩٥ من سـورة آل عمران: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي: أنّني أنا الخالق لا أفرق بين الذكر والأنثى.

ما المقصود بالأزواج؟

وقال في الآية مورد التفسير والبحث:

٨- ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾

والأزواج كلمـة جمـعٍ للزوج، فهـل تعني الكلمـة: الرجل أو المرأة؟

تُطلق كلمة (زوج) عليهما معاً، وإنّ كلمة زوجة التي تُستخدم للمرأة في لغة المحاورة تُعتبر كلمة خاطئة عند اغلب اللغويين. وإنّما الأصحّ أن نشمل الرجل والمرأة بلفظ (زوج) وقد قال سبحانه: ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾(١). فأطلق هذه الكلمة على الطرفين، وكلمة ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ تثنيـة تعم الذكر والأنثـى، بل في كل الآيات القرآنية التي تتحدث عن الرجل والمرأة في العلاقة الأسرية والزوجية استُخدِمت كلمة (زوج) للتعبير عن الذكر والأنثى.

وفسَّرَ البعض كلمة ﴿أَزْوَاجًا﴾ بأنها تعني الزوجات، وهو خطأ. إذ الأزواج جمـع زوج وليس جمع زوجـة، وجمع الزوجة زوجات. وعليه؛ فإنّ ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ليس خطاباً للرجال فقط، وإنّمـا هو موجّه للرجل والمرأة بالتسـاوي. إنَّ الأصل في القرآن هو عدم التمييز يين الذكر والأنثى.

وقد يتسـاءل أحدهم قائلاً: إذن لِمَ قال سـبحانه: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ

(١) سورة النجم، آية ٤٥.

﴿إِلَيۡهَا﴾؟ ولِمَ كان الضمير المستعمل هنا مؤنّثاً؟

يبـدو أنّ الضمير في ﴿إِلَيۡهَا﴾ لا يعـود إلى المرأة، لماذا؟ لأنه إذا كان مرجـع الضمير المـرأة، كان الصحيح أن يؤتى بضمير الجمع المؤنـث (إليهن) ليتناسـب مع كلمة (أزواج) وهـي جمع، ذلك لأنّه إذا كانـت ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ تخاطب الرجال، فهل يسـكن الرجال كلهم الى إمرأة واحدة؟

إذن، فالصحيـح أن الضمير فـي ﴿إِلَيۡهَا﴾ يعود للازواج (وهو جمـع مكسَّـر يُشـار إليه بضميـر المؤنث فـي قواعد اللغـة) والكلمة تشمل الرجل والمرأة.

إذن؛ لا وجـه لجعل البحـث بخصوص المرأة لتكون وسـيلة السـكينة والاستقرار للرجل، لأنّ القرآن ساوا بينهما، فكل واحدٍ من الزوجين يسكن للآخر.

الآية تعم الرجل والمرأة

وهكـذا فـإنَّ ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ تعمّ الذكر والأنثـى، أي أنّنا خلقنا جنسـين فـي الظاهـر، وذلـك لحكمـة، وهـي أنّ كلّ شـخص يؤدّي وظيفتـه، وليـس التفاوت فـي الخلقة عائـداً إلى أن يسـتعبد أحدُهم الآخـرَ، وأن يطغـى الرجـل علـى المرأة كمـا كان ولا يزال مشـهوداً فـي كثير من بقـاع الأرض. وإنّ نظرة المرأة إلـى الرجل والرجل إلى المرأة لا تصحّ أن تكون نظرة إلى الغير، بل على الاثنين أن ينظرا إلى الآخر على أنّهما نفس واحدة، ولهما أن يعيشا بشكل يذوب أحدهما فـي الآخر. فإذا كانت هـذه النظرة منهما هي أسـاس العلاقة لم تبرز مشكلة أبداً بين الزوجين.

ولـو كانت لديّ تفّاحـة واحدة ولديـك مثلها، ثمّ إنّـي قدّمتُ تفاحتـي لك، وأنت قدمـتَ تفاحتك لـي، لأكلنا التفّاحتيـن معاً ولم ينقصنـا شـيء، وإنما العلاقـة بيننا قد توطّـدت. وهذه النظـرة ينبغي أن تكـون نموذجاً اجتماعياً، وبالأخص بالنسـبة إلى التعامل بالمحبة والمودّة والرحمة بين الزوجين.

فإذا حكمت الأسـرة والتكتّـلات الاجتماعية هذه الصورة من التعامل، ضمن الجميع الثباتَ والاسـتقرار، وصـارت الحياة لديهم ترجمة حيّة للإيثار وليس الاسـتثمار، بمعنى أن يبذل كل شـخص ما لديه لغيره أيضاً وليس لنفسه فقط.

والقـرآن المجيـد يعتبـر المؤمـن كائنـاً ذا إيثـار لمجتمعـه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1]، ومـن ثمـرات الإيثـار الجمعي في المجتمع الايماني قوله سبحانه:

٩- ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾

لتكريس النفع المثالي، وذلك:

١٠- ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾

وللعلاقـة الزوجيّـة أبعـاد جمّـة، أحدهـا: السـكينة والراحـة النفسية.

التأكيد على السكينة في الأسرة

مـع أنّ للمودّة والرحمة بين الأزواج آثار عديدة، فلماذا أشـار اللّه تعالى لهذه الفائدة المميّزة (السكينة) بالذات؟

(١) سورة الحشر، الآية:٩.

نرى لهذا الاهتمام الخاص دليلين:

١- إذا كان ثَـمّ نقـص وخلل في حياة الإنسـان، فإنّ السـكينة لا تتوفّـر، وإنّما السـكينة تتأتّى حين ينعدم النقـص والخلل بالكامل، فإنـك لا تنـام إنْ آلمـك ضـرس واحد في فيـك رغم أنه جزء بسـيط فى الجسـم. كذلك السكون والسـكينة فإنهما كالعافية والصحّة، فلا يقال: فلان معافى إذا عانى ألماً ولو بسيطاً.

إذن؛ ﴿لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ تعنـي: لتعيشـوا بواسـطة المحبّـة والمـودّة والتفاهـم كلّ الراحة، وليس أن يسـتولي القلق على الرجل بمجـرد مغادرتـه بيتـه، أو أن يسـتولي عـدم الثقة على المـرأة لبعض تصرّفـات الرجل. فإذا ما شـاعت هذه الثقافة السـلبية في المجتمع، رأيته كيانـاً مضطرباً يعاني الأزمة تلو الأزمة. فيما الاطمئنان والراحة يعمّان بتأثير المحبّة المتبادلة بين الرجل والمرأة حين يتبادلان الثقة.

٢- الاطمئنان والسـكينة والهدوء، أفضل النعم الإلهية. فإنك يمكـن أن تكـون مريضـاً أو فقيراً أو سـجيناً ومع ذلك تكـون مرتاح الذهـن، مطمئـن البـال. بينمـا بالعكس يمكـن أن تكون غنيـاً متنعِّماً بالإقامـة فـي قصـر بهيج، ومع ذلـك تكون مضطـرب البـال. فأيّهما الأفضل إليك؟

إنّنا نطلب لأنفسـنا الهدوء والراحة والسعادة، ولكن ما الفائدة فـي المال والمسـكن والمرأة والولـد ما لم تضفِ هـذه الأمور علينا السكينة ولم تسعدنا؟! ما النفع من الأسماء والعناوين والأعداد؟

للأسـف! نجد كثيراً مـن الناس يلهثون فـي أول حياتهم وراء المـال ليضمن لهم عيشـاً رغـداً، ولكنّ النتيجة تأتي معكوسـة، حتّى يجد المرء نفسه ضحية للمال. وتشير الأبحاث الميدانية إلى أنّ كثيراً

مـن الأفـراد يصابون بمـوت الفجأة – السـكتة القلبيّـة أو الدماغية – لـدى تكالبهم على بلوغ الحياة المادّيّة، إذ يتجشّـمون العناء الشـديد ويضحّون بأنفسهم للمسار المنحرف.

إنّ اللَّـه تعالـى يحذّر عباده فـي هذه الآية مـن أن ينحرفوا عن إدراك وفهـم الحيـاة الطيّبـة التـي رسـمها سـبحانه لهم، فـإن أردت الاقتران بزوجة، فعليك اختيارها من أسـرة رصينة أصيلة تنشـر فيك السـكينة والهـدوء، ولا يكن هدفك مـن عقد الزواج مـالاً أو جمالاً مجـرّداً، كذلك على المـرأة أن تعي الأهداف القرآنيّـة من هذا العقد المقدّس.

بعد بيان هذه الحقيقة المصيرية؛ يقول سبحانه:

١١ - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فاللَّـه سـبحانه وتعالـى قد جعـل آياتٍ فـي هذه الخلقـة بهذه الخصوصيّات فيما يتعلّق بالرجل والمرأة.

لماذا قال اللَّه تعالى (آيات) ولم يقل (آية)؟

ربما لو أننا دققنا النظر في الحياة الزوجية التي رسـم خطوطها البـاري عزَّ وجـل، لوجدنا من الآيـات ما لا يُحصـى عددها في هذه العلاقة المشتركة التي تشكل الأساس الوطيد للكيان الإجتماعي.

بصائر وسنن

١ - إنّ العلاقـة التي جعلهـا اللَّه بين المـرأة والرجل هي أبعد من مجرد مودّة ظاهرية مبتنية على أسـاس مادي أو مصالح مشـتركة

أو خدمات يقدّمها طرف للطرف الآخر، فهو إتصال روحي.

٢- إنّ محور القيم الإلهية يكمن في أجواء الأسرة الطيبة، ولهذا فإنَّ الشيطان يستهدف الأسرة ويبذل كلّ جهده لتدمير هذا المركز والمحور؛ الذي هو مهبط الرحمة والتآلف.

٣- إنّ المودّة علاقة متبادلة بين طرفين، بينما الرحمة تتحقق من طرف واحد، بينما الرحمة أسمى من المودّة، ويمكن أن تكون من جانب واحد.

٤- القرآن ينظر الى الرجل والمرأة على حدٍّ سواء دون تفضيل أحدهما على الآخر، وجعل السكينة فى كلٍّ واحدٍ منها للآخر.

٥- نجد كثيراً من الناس يلهثون في أول حياتهم وراء المال ليضمن لهم عيشاً رغداً، ولكنّ النتيجة تأتي معكوسة، حتّى يجد المرء نفسه ضحية للمال.

اختلاف اللغات والألوان

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

من الحديث

قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ ولَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، ولَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ولَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، قَالَ اللَّه تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾»[1].

تفصيل القول

من الموضوعات المهمّة التي غالباً ما تكون محطّ سؤال وشبهة في شتّى الأبعاد؛ ما يتعلّق بالاختلاف الموجود والمشهود

(١) معدن الجواهر، ص٢١.

في أفراد البشـر، علماً أنّ كلّ أفراد البشـر يشـتركون في خصوصيات واحـدة من حيث النظرة العامة. إنّ أفراد البشـر يختلفـون فيما بينهم من جهة اللون والشـكل واللسان، فما معنى هذا الاختلاف؟ وَلِمَ لمْ يكن الناس جميعاً شكلاً واحداً؟

هـذه الآية تؤكـد أنّ الاختلاف والتفاوت الموجود بين البشـر ليـس فقط لا يثير إشـكالاً، بل إنما هو آية ودلالـة بحدّ ذاته تقرّبنا الى اللّه تعالى أكثر فأكثر، وتزيدنا معرفةً به.

معنى اللسان واختلافه

ما معنى اللسان؟ وما معنى اللّون؟ وما هي اللّغة؟

اعتبـر البعـض اللسـان بأنّه العضو الـذي في الفـم، وإنما نعبّر بـه عن اللّغة، فهو من قبيل الكناية، وسـبب هـذا التعبير والإطلاق أنّ الإنسان يتكلم باللّسان، وأنّ اللغّة تتشكّل بواسطة هذا اللسان.

ويبدو أنّ أصل معنى اللّسـان هو اللّغـة، وأنّ قطعة اللّحم التي في الفم تسمّى لساناً، بدليل أنّ اللّغة تُنطق وتُؤدّى بوسيلته.

إذا كان هذا معنى اللسان، فماذا يعني الاختلاف؟

قيل في معنى الاختلاف هو أنّ كلّ شـخص لدى تكلّمه يمتاز بلحن ونمط خاص ونبرة خاصة في لسانه، ولهذا تجد أنّ من يتحدّث إليـك عبر الهاتـف تتعرّف إلى صوتـه ولو بعد عشـرين عاماً، وذلك بسبب نبرة صوته.

وقـال آخرون: إنّ اللسـان هو اللّغـة، والاختلاف هو اختلاف اللّغة بين الأفراد.

ومن ناحيتنا نرى أنّ اللّغة التي نزلت مع البشر من السماء هي اللّغة العربيّة، فهي لغة من اللّه سبحانه وتعالى، وهي لغة دقيقة خاصّة بالحقائق، ثمّ تطوّرت المفردات بعد الحقائق وركّبت، وهنالك بدأت بحوث علم اللّغة تطرح بين الناس، ثمّ إنّ اللّهجات تكوّنت بعد نزول العربيّة، وتغيّرت وتطورت بمرور الزمان، وحصل فيها التفاوت حتى تكونت لغات أخرى.

وهناك نظرة أخرى تقول: إنّ البشر كانوا يعيشون في مناطق عدّة من الأرض، فكانت احتياجاتهم اليوميّة قد حدتْ بهم إلى استعمال الإشارة، ثمّ شيئاً فشيئاً استعانوا بالأصوات والنبرات حتّى تكونت المفردات والجمل، وهكذا تكونت اللغات المختلفة. ولكننا نرى أنّ هذا المبنى والاساس يجانب الصواب.

وعلى أيّة حال؛ فإنّ المقصود باللسان إما الجارحة والعضو الموجود في الفم، أو نبرة ولحن التحدّث، أو اللّغة.

ويمكن أن يأخذ الحديث منحى أعلى مستوىً، فيقال:

إنّ اللّغة - في الحقيقة - عاكسة لفكر الإنسان، فما يخطر في الذهن يفيض على اللسان، أي: يتجلّى ويظهر في اللّغة، بمعنى أنه بوسيلة اللغة يُتوصّل إلى ما هو أبعد وأعلى من اللّغة. والأعلى والأبعد من اللغة هو الذهن والفكر ونوع التفكير.. بهذه النظرة؛ يكون ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ يشمل كلّ الأبعاد وعلى جميع المستويات، مما هو أعمّ من الاختلاف في النبرة، واختلاف اللهجات، واختلاف الأذهان الذي هو أهم من اللّغة. بهذه النظرة يكون اللسان عاكساً وترجماناً للذهن.

التفاوت العقليّ

يقفز إلى الذهن سؤال: أو ليس العقل هبة من اللَّـه؟ فلِمَ لم يهب اللَّه الجميع عقلاً متساوياً؟

بلى؛ إنّ العقل عطاء من الربّ الكريم، ولكنّ أدوات العقل تختلف وتتفاوت تبعاً لظروف الحياة المتفاوتة؛ بدءاً ممّا قبل الولادة الى مراحل النمو العقلي المختلفة.

فأن يكون العقل عطاءً من اللَّه تعالى لا يعني أن يصبح عقل الجميع بدرجة واحدة، لا سيما وأنّ أحاديث الرسول الأعظم وأهل بيته عليه وعليهم السلام شاهدة على ما ندّعيه، فقد ورد فيها وصف البعض بأنه (أعقل الناس)[1].

إنّ عطاء اللَّـه تعالى هو العقل؛ ولكن يتجلّى هذا العقل في مراتب ودرجات مختلفة بما يبذله المرء من جهد في الحياة، وبما يواجه من تحديات. تماماً كما لو أنّ جماعة جمعوا عقولهم إلى بعض لتوصّلوا إلى نتائج أرقى، وعلى هذا الأساس فإنَّ قابليّات العقل والذهن متفاوتة.

تفاوت الألوان

البحث الثاني في الآية الكريمة هو: اختلاف الألوان، فما المقصود من هذا الإختلاف؟ إنّه الإختلاف المشهود من بياض وسواد وسمرة وحمرة.

(١) الكافي للكليني، ج١، ص١٦: «تَوَاضَعْ لِلْحَقِّ تَكُنْ أَعْقَلَ النَّاس»، مستدرك الوسائل، ج٩، ص١٣: «أَعْقَلُ النَّاسِ أَشَدُّهُمْ مُدَارَاةً لِلنَّاس»، عيون الحكم والمواعظ، ص١١٢: «أَعْقَلُ النَّاسِ أَطْوَعُهُمْ للَّه سُبْحَانَه».

ولكن! ما الحكمة في اختلاف الألوان؟

أقول: حين نرغب برسم لوحة ما، نبدأ بتناول الفرشاة واختيار الألوان إستناداً الى الذوق أو التقليد، إلّا أنّ اللَّه تعالى لا تلزمه هذه القاعدة الفنيّة، وهو لدى اختياره للون معيّن للإنسان أو الفاكهة أو الشجرة أو الأرض أو الحشرة، يقصد حكمة معينة وحساباً محدداً وقدراً خطّط له بنفسه. فكان لكلِّ لون خصوصية ودلالة.

قال أحدهم: أعاني من مرض السكّر، فقال له الطبيب: لا تأكل الفواكه ذات اللون الأصفر، حتى التفاح تناول الأحمر منه ودع عنك الأصفر، مما يدل أنَّ اللون له دوره وتأثيره.

ولو أنّ لون الجبال كان أحمر، أو الأرض كانت زرقاء، لتعرّض البشر إلى أزمة في رؤية ونظر العين. إنّ الألوان ترتبط بأشياء مختلفة؛ بالمشاعر والعواطف والأخلاق.. وهناك بحوث دقيقة كثيرة بهذا الصدد.

خلق السماوات والأرض واختلاف الناس

إنّ الآية الشريفة تقول:

١ - ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾

فإلى جانب آيات اللَّه تعالى في خلق السماوات والأرض أشارت الآية الى الإختلاف الواسع بين الناس في الألوان والألسن، ويبدو أنَّ هناك علاقة بين خلق السماوات والأرض وبين إختلاف الألوان والألسن، وقد نجد هذه العلاقة في أحد تجلياته في أنَّ لون البشرة في المناطق الأستوائية - مثلا - أسمر، وكلما ابتعدنا عن خط الأستواء قلّت السُمرة، حتى تتحول الألوان من الأسمر الى الأبيض

فالأصفر. وهذا الاختلاف يسهل التعارف ويفرض الإعتراف المتبادل الذي هو أساس تنظيم الحياة البشرية.

وتشير الآية الى نوعين من الاختلاف بين الناس، هما الاختلاف في اللّسان وفي اللّون، إلاّ أنّ ذلك ورد من باب المصداق والنموذج؛ باعتبارهما الأكثر بروزاً، وهذا يتضمن نوع إرشاد إلى أشكال الاختلاف الكثيرة بين الناس، وهو بمثابة باب يفتح لدراسة واسعة في هذا المجال. فالناس مختلفون أيضاً في طريقة التفكير، والذوق، والنظرة إلى الأشياء والأمور.

حكمة الاختلاف

ويمكن لأحدهم أن يسأل عن السبب في كلّ هذا الإختلاف المجعول من قبل اللّه سبحانه.

ينبغي البحث عن السبب في حكمة الإختلاف هذا، إذ لو لم يجعل الإختلاف لانتفى التكامل، فبالإختلاف يكمّل الناس بعضهم بعضاً، فمثلا: جماعة من التلاميذ يتعلّمون في المدرسة، ثمّ إنهم يكملون دراستهم ويتخرّجون؛ فيشكّلون فرقاً وطبقات عديدة، منهم من يواصل درسه، ومنهم من يتجّه إلى مزاولة مهنة ما. في الشريحة الأولى، تتعدد أشكال واتّجاهات مواصلة الدراسة والتخصّص، ومن يمارس عملاً سيختار نوع العمل أيضاً؛ فيتفاوتون ويتعدّدون ويختلفون في اختياراتهم، وما هذا كلّه إلّا سدٌّ للحاجة الاجتماعية والمعيشية، ولو كانت الطبائع والأذواق واحدة لا غير، ولو كانت العقول في مستوىً واحد، لأصيب المجتمع بالشلل.

لقد زعم استالين، بأنّ هذا النوع من التفكير والطريقة خاطئ، ويجب أن نحشر جميع الأفراد على صعيدٍ واحد ليكونوا كلهم

سواء، فقتل حوالي عشرين مليوناً منهم في السجون والمنافي ليكون الناس بلون واحد وشاكلة واحدة، بدءاً من ارتداء الملابس، ومروراً بالعمل، وانتهاءً بطريقة التفكير والتطلّع. كان يريد للناس جميعاً أن يصبغوا أنفسهم باللون الذي كان يظنّه صحيحاً. ولكنه بعد سنوات زال وهوى، وجاء بعده مَن اعترف بخطأ هذا التفكير، فاضمحلّ الاتّحاد السوفياتي وعاد الناس إلى حقيقة: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾.

آيات اللَّه في الاختلاف

وفي هذه السُنّة الإلهية التي بيّنتها الآية الكريمة تكمن آيات كثيرة:

٢- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾

ومن تلك الآيات أنَّ هذا الإختلاف الواسع بين البشر يؤكد على أنّ الحرية أصل أصيل، ولطالما أقرّه اللَّه تعالى والأنبياء والأوصياء سلام اللَّه عليهم أمام أنظار الناس وعقولهم.

لقد كان بمقدور الأنبياء أن يحملوا الناس على الاهتداء قسراً، ولكنّ اللَّه تعالى أبى ذلك، لأنّه أراد امتحان البشر، واستخراج ما في بواطنهم وقلوبهم لتبدو حقائقهم ومصائرهم، وبالتالي لتتمّ الحجة عليهم غداً في ساحة المحشر والحساب الأخروي. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[1].

وفي الآية التالية من سورة هود يتحدث اللَّه تعالى عن بعض المختلفين وأنّ منهم من يستحقّ رحمة اللَّه، ومنهم من سيحشر إلى

(١) سورة هود، آية ١١٨.

جهنم: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾(١).

إذن، فالبشر في اختلاف دائم لكي يُمتحن بذلك.

ويقول سبحانه في آية أخرى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(٢).

فالتفاوت والإختلاف هادف ومخطّط له. فاللّه سبحانه كان قادراً على خلق الناس أمّة واحدة، كما كان قادراً على أن يخلق الأشجار كلها ذات لون واحد من الفاكهة، ولكنّه جعل الأشجار مختلفة، وكذلك جعل الجبال والصخور، وكذلك شأن البشر.

ويبدو أنّ الموقف الحق تجاه هذا الاختلاف ينبغي أن يكون ضمن الإطار الإلهي، باعتباره خير طريق للتقدم الاجتماعي. فالحرّيّة هي دعوة جميع الأديان الالهيّة، ولكنّها ليست بمعنى أن نقول للناس: أنتم أحرار في أن تكونوا من أهل الجنة أم من أهل النار. إنّما الحقّ أن يُبَشَّر الناس بالنعيم ويُحذَّروا من الجحيم، ثمّ يُتركوا أحراراً يختارون ما يشاؤون، وليجرّبوا بأنفسهم حريّتهم في الانتخاب، وهذه الحرّية في الاختيار، أو لنقل: السماح لهم بحرّية الاختيار بحدِّ ذاته يجسِّد

(١) سورة هود، آية ١١٩.
(٢) سورة المائدة، آية ٤٨.

الامتحـان الإلهـي الذي مـن أجله خُلق النـاس، إذ لا يمكـن أن يقاد المرء إلى الجنة أو يساق إلى النار بالجبر والإكراه.

وجذوة القول؛ هـي أنّه انطلاقاً من قاعدة ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ فـإنّ اللغـات، والأذواق، والطبائـع، والأفـكار، وطـرق التفكيـر، والإنطباعـات، والألـوان، والعواطـف، خُلِقـت مختلفـة، وليـس كل ذلـك إلّا لتفعيل التدافـع ثم التكامل بين النـاس. وأنماط الاختلاف ومصاديقه يجسِّـد جماليّة الخلقة؛ كلّ منه حسب ما يمثّل من دور.

وينبغـي أن نتعلّم بـأنّ الآخرين متفاوتـون ومختلفون عنّا، فلا نسـتاء من غيرنا المختلفيـن عنّا ولا من آرائهم، لأنّنـا نعلم باختلاف ظروفهم وبيئتهم والعوامل التي اسست وكوّنت لهم مناهج تفكيرهم وقناعاتهـم. هذا ولنعلم بأنَّ حدود اللّه تعالى وسـننه لا تتبدّل، وهذا أصل أصيل ثابت.

بصائر وسنن

١ - إنّ الاختـلاف والتفاوت الموجود بين البشـر ليس فقط لا يثير إشكالاً، بل إنما هو آية ودلالة بحدّ ذاته تقرّبنا الى اللّه تعالى أكثر فأكثر، وتزيدنا معرفةً به.

٢ - ينبغي البحث عن السـبب في حكمة الإختلاف ، إذ لو لم يجعل الإختلاف لانتفى التكامل، فبالإختلاف يكمّل الناس بعضهم بعضاً.

٣- كان بمقدور الأنبياء أن يحملوا الناس على الاهتداء قسراً، ولكنّ اللَّه تعالى أبى ذلك، لأنّه أراد امتحان البشر، واستخراج ما في بواطنهم وقلوبهم لتبدو حقائقهم ومصائرهم، وبالتالي لتتمّ الحجة عليهم غداً في ساحة المحشر والحساب الأخروي.

آية المنام

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

من الحديث

قال الامام علي عليه السلام في حديث الاربعمأة:

«لَا يَنَامُ الْمُسْلِمُ وهُوَ جُنُبٌ، ولَا يَنَامُ إِلَّا عَلَى طَهُورٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ فَلْيَتَيَمَّمْ بِالصَّعِيدِ، فَإِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تُرْفَعُ إِلَى اللّه تَبَارَكَ وتَعَالَى فَيَقْبَلُهَا ويُبَارِكُ عَلَيْهَا، فَإِنْ كَانَ أَجَلُهَا قَدْ حَضَرَ جَعَلَهَا فِي كُنُوزِ رَحْمَتِهِ وإِنْ لَمْ يَكُنْ أَجَلُهَا قَدْ حَضَرَ بَعَثَ بِهَا مَعَ أُمَنَائِهِ مِنْ مَلَائِكَتِهِ فَيَرُدُّونَهَا فِي جَسَدِهَا»[١].

تفصيل القول

تتناول هذه الآية من سورة الروم المباركة آيتين أخرتين من

(١) الخصال، ج٢، ص٦١٣.

آيات اللَّه الكبرى.

الآيـة الأولـى هي آيـة النوم باعتبارهـا ظاهرة مهمـة في طبيعة الخلقـة ونمـوذج بارز مـن نماذج النظـام الحكيم، والآيـة الثانية هي إبتغاء الناس فضل اللَّه ورزقه من خلال السبل التي وضعها اللَّه له:

١ - ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾

فمـن خـلال هاتيـن الآيتين - الـى جانب سـائر الآيـات التي ذُكرت والتي ستُذكَر - يزداد الإنسان معرفة بربه المتعال.

النّوم يدلّنا على ربّنا

ما هو النوم؟ ماذا يحدث حين ننام؟

النوم سـرٌّ قيلت فيه جملة مـن النظريات حتّى الآن، ولكنها لم تجزم بمعرفته ولم تدرك ماهيّته بشكل حتمي، كما أنّ هذه النظريات وأصحابها وغيرهم لم يصلوا إلى معرفة حقيقة الموت.

فالنـوم والموت شـبيهان، وقد ورد في الحديث الشـريف عن رسـول اللَّـه ﷺ أنه قال: «**وَالَّـذِي بَعَثَنِي بِالْحَـقِّ نَبِيّـاً، لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُون**»[(١)].

فهـذا الحديث يشـبِّه المـوت بالنوم، والبعث بالاسـتيقاظ من النوم. ولكن يبقى السؤال: ما حقيقة هذين الأمرين؟.

يبـدو - ولا نظريـة قطعيـة ودقيقـة في البيـن - أن اللَّـه تعالى قـد جعـل في دمـاغ الإنسـان خلايـا خاصّة بالمـوت، وهي أشـبه ما تكـون بالقطعة التلقائيـة - الأوتوماتيكية - التـي توضع في الأجهزة

(١) اعتقادات الامامية، ص٦٤.

الكهربائية فتضمن عملية تنظيم مستوى الطاقة في الجهاز، كذلك في الدماغ أيضاً يمكن أن تؤدّي خلايا الموت هذه الوظيفة، فإذا جاء أجل الإنسان أو تعرض لمشاكل عديدة تقوم خلايا الموت بإطفاء الدماغ، وإذا أطفئ الدماغ وتعطّل، يتعطّل كلّ ما في البدن لأنّ كل البدن وحياته يرتبط بالدماغ.

وفي النوم يحدث مثل ذلك ولكن بدرجة محدودة، فالانطفاء والتعطّل نوعان: مؤقّت ودائم. فإذا كان العطل دائمياً؛ كان موتاً، وإن كان مؤقّتاً؛ كان نوماً، فإذا خفّض الدماغ طاقة البدن، استولت عليه حالة من السكون وغَطّ في النوم.

ترى ما هذا الذي صنعه اللَّه في خلقه للإنسان؟ وماذا يحدث لو أنّنا عملنا عملاً شاقاً طيلة عشر ساعات ثم عجزنا عن النوم وأخذ قسطٍ من الراحة عن طريقه؟ البعض قد يُصاب بحالة أرق فتسوء حاله.

نعمة النوم

إنّ النوم نعمة من نعم اللَّه لراحة الإنسان وتجديد طاقاته وقواه، وهذه النعمة آية على قدرة وربوبيّة اللَّه سبحانه. وعليه؛ كان حريّاً بنا أن نبدي كلّ الشكر لربّنا المتعال على أن أنامنا في مضجع أمنه وأمانه. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام بعد صلاة الصبح قائلاً في دعائه المعروف بدعاء الصباح: «**يَا مَنْ أَرْقَدَنِي فِي مِهَادِ أَمْنِهِ وأَمَانِهِ، وأَيْقَظَنِي إِلَى مَا مَنَحَنِي بِهِ مِنْ مِنَنِهِ وإِحْسَانِه**»(١).

في الآية الكريمة ذُكر نومان:

---

(١) بحار الأنوار، ج٩١، ص٢٤٣.

٢- ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾

إذن، فاللّه تعالى قد جعل في الإنسان قدرة تمكّنه من النوم في الليل والنهار، ولو أنّه عجز عن النوم في النهار، لتعرض إلى مشكلة صحيّة أو نفسيّة أو سلوكيّة، إذ قد يشغلنا شاغل عن نوم الليل لِعلّة أو مهمة ضرورية والنوم في النهار نعمة ثانية.

وهنا نشير إلى أنّه مع كلّ البحوث التي قام بها العلماء حول النوم وخصائصه، غير أنّه لم تتّضح أسراره وحقائقه بعد، ولا يزال البحث قائماً بين العلماء المختصّين عن طبيعة ما يجري في دماغ وبدن الإنسان ليضطر في لحظة مفاجئة إلى تعطّل قسم من الدماغ والبدن والخلود الى النوم، وما هو هذا التحوّل الذي يحصل في الروح والبدن؟!

اعتبر البعض أن العامل الأصلي للنوم عامل فيزيائي، وقالوا بأنّ انتقال الدم من الدماغ إلى أجزاء البدن الأخرى هو السبب في هذه الظاهرة، ولإثبات قولهم هذا، قاموا بإجراء تجربة (السرير - الميزان) الذي يحدّد عملية انتقال الدم من الدماغ إلى سائر أعضاء الجسم.

وعدّ آخرون السبب في النوم أنه (عامل كيميائي) وقالوا بأنّ الجهد الذي يبذله المرء يؤدي إلى إفراز مواد سامّة خاصّة من شأنها تعطيل بعض الدماغ؛ فينام المرء، وحينما تُطرَد تلك السموم وتفقد مفعولها يستيقظ من النوم.

وقال جمع آخر بأنّ العامل العصبي هو الدافع للنوم، وأنّ ثَمّ نظاماً عصبياً خاصاً في الدماغ يؤدي دور الوقود للسيّارة، فيتعطّل النظام عند التعب مؤقّتاً.

ولكـن تبقى جملة من النقـاط المبهمة والأسـئلة المحيطة بهذه الأقوال؛ لم تجد إجابات مناسبة ، ولا يزال النوم في دائرة من الغموض.

ومـن عجائـب النـوم أنّ العلمـاء أماطـوا اللّثـام عـن سـرٍّ من أسـراره، وذلك أنَّ في الدماغ خلية تبقى فاعلة عند النوم، ولا تنسـى أبـداً مـا يوصيها الإنسـان قبيل نومـه، كأن يرغب في الاسـتيقاظ في ساعة معيّنة.

فـالأم المرضـع - مثلاً - تنـام مجهدة وإلى قربها ينـام رضيعها، ولكنها بنداء واحد منه تقفز من نومها لترضعه، ولكنها في الوقت نفسـه قـد تبقى هامدة ولو صيح بأعلى الصيحـات الأخرى، وما ذاك إلّا لأنّها وطّنت نفسها على أن لا تهمل رضيعها وأن تشبعه من لبنها متى ما شعر بالجوع.. تعينها في ذلك تلك الخلية الخاصة، ولطالما جرّبنا الاستيقاظ في ساعة محدّدة إذا ما نوينا السفر - مثلاً - أو القيام بمهمة ضرورية.

وحيـث إنّ النوم من الظواهر الروحيّـة، وإنّ الروح فيها الكثير من الأسـرار، فليس عجيباً أن تبقى المسـألة غير واضحة حتّى الآن، ولكنّنا مهما سبرنا غورها تعرّفنا إلى عظمة هذه الآية الربانيّة، وبالتالي ازددنا معرفة بالخالق الحكيم.

الابتغاء من فضل اللَّه

تنتقل الآية الكريمة إلى الحديث عن آية أخرى، فتقول:

٣- ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾

فما يعني هذا؟

المقصـود هو أنّ الإنسـان في حال اليقظة عليه السـعي لطلب الرزق لنفسـه ولمن هو مسـؤول عنـه. وأينما تحدّث اللَّـه تعالى عن

طلب الرزق جاء بتعبير مشابه لتعبير هذا المقطع من الآية الكريمة. فقال سبحانه في سورة العنكبوت، آية ١٧: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ وقال في سورة البقرة، آية ١٩٨: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وقال في سورة الجمعة، آية ١٠: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، فوردت هذه التعابير في موارد حثِّ الإنسان على طلب الرزق.

فلماذا عبّر اللَّه تعالى هنا بهذه الصورة بالذات؟

لعلّ المعنيَّ بهذا التعبير هو أنّنا حين نطلب الرزق، لا بد لنا من التوكّل على اللَّه تبارك وتعالى، فنطلب منه أن يرشدنا إلى طريق الرزق الحلال ومحلّه.

ورد في تعقيبات صلاة العشاء عن المعصوم عليه السلام:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِمَوْضِعِ رِزْقِي، وأَنَا أَطْلُبُهُ بِخَطَرَاتٍ تَخْطُرُ عَلَى قَلْبِي، فَأَجُولُ فِي طَلَبِهِ الْبُلْدَانَ، فَأَنَا فِيمَا أَنَا طَالِبٌ كَالْحَيْرَانِ، لَا أَدْرِي أَفِي سَهْلٍ هُوَ، أَمْ فِي جَبَلٍ، أَمْ فِي أَرْضٍ، أَمْ فِي سَمَاءٍ، أَمْ فِي بَحْرٍ، وعَلَى يَدَيْ مَنْ، ومِنْ قِبَلِ مَنْ، وقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ عِلْمَهُ عِنْدَكَ، وأَسْبَابَهُ بِيَدِكَ، وأَنْتَ الَّذِي تَقْسِمُهُ بِلُطْفِكَ، وتُسَبِّبُهُ بِرَحْمَتِكَ»[١].

ابتغاء الرزق والتوكل على اللَّه

إنّ التحرّك في طلب الرزق بالتوكّل على اللَّه سبحانه سببٌ لبلوغ الرزق الحلال بكلّ اطمئنان، فالمتوكّل بعيد عن الاضطراب والقلق فضلاً عن اكتسابه للرزق الحلال الطيب.

---

(١) عدة الداعي، ص٦٢.

البعض يقصدون اكتساب الرزق بجهد جهيد، ولكن لأنّهم لا يتوكّلون على اللَّه تعالى، تجدهم يرتكبون الحرام ويخالفون الأخلاق، وهم في ذلك يتحمّلون المشاكل الروحية والنفسيّة لدى كسب الرزق وبطرق غير مشروعة. إنّهم سيضيّعون الآخرة، ناهيك عن عدم شعورهم بالراحة في الدنيا، فما لم يكن طلب الرزق من اللَّه، تكون الحياة جهنّميّة. ولو لم يكن لطلب الرزق معيار، كان سبباً في الدمار.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَرْبَعَةٌ لَا تَدْخُلُ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ بَيْتاً إِلا خَرِبَ ولَمْ يَعْمُرْ: الْخِيَانَةُ، والسَّرِقَةُ، وشُرْبُ الْخَمْرِ، والزِّنَا**»[1]. فمن أراد الرزق عبر هذه الممارسات أو غيرها من الوسائل المحرمة الأخرى، فإنّه لن يعرف طريق السعادة أبداً.

ولكنْ لماذا يَمُنّ اللَّه تعالى علينا بأنه يرزقنا، وأنّ علينا ابتغاء الرزق من فضله وكرمه؟

إنّ اللَّه تبارك اسمه قد وهب البشر وجميع الكائنات الحيّة طاقة وإرادة كافيتين ليقصدوا أرزاقهم بهما. إنكم تنهضون من النوم وفيكم القوة الجسميّة والمعنوية والإرادة، فتطلبون طعامكم وشرابكم، وترون لدى ذلك أنّ الظروف قد مُهِّدَتْ لكم، ومن دون ذلك، كان طلب الرزق عسيراً. فالتمهيد نعمة إلهية بحدِّ ذاته.

ويحب ابن آدم أن يعمل ويأكل من كدّه، وإنّ ألذّ الطعام إليه ما اكتسبه بنفسه أو اصطاده من البحر أو الجوّ أو البرّ بيده، لأنّه هو الذي يقوم بذلك، وهذه نعمة وهبنا اللَّه الرزّاق إيّاها، حتى أنّ أغنياء الناس تراهم يقصدون الصيد بأنفسهم ليثبتوا أنّهم قادرون على طلب الرزق بأنفسهم.

(١) الخصال، ج١، ص٢٣٠.

آيات اللّه في ابتغاء الرزق

ومنـذ أن كان البشـر يعيش في الغابات والجبـال، وحتّى اليوم حيث الوسـائل متاحة ومتوفّرة، فإنّ اللّه تعالى وهب الإنسـان القدرة علـى تسـخير الأرض، والبحر، والجبال ليسـتثمرها مـن أجل رزقه. وكل هذه نِعَمٌ إلهية.

ليسـت هذه النعم وهـذا الرزق من فضل اللّه تعالى فحسـب، وإنّمـا القـدرة على الاسـتفادة والالتذاذ بما يقع تحـت اليد هي نعمة أسـمى وأرقـى. قال عبيد بـن زرارة: «أَكَلْـتُ مَعَ أَبِي عَبْـدِ اللّه عليه السلام طَعَامـاً فَمَـا أُحْصِي كَمْ مَرَّةً قَـالَ: **الْحَمْدُ للّه الَّذِي جَعَلَنِي أَشْـتَهِيه**»[1] ثـم قال في حديـثٍ آخر: «**النِّعْمَـةُ فِي الْعَافِيَـةِ أَفْضَلُ مِـنَ النِّعْمَةِ عَلَى الْقُدْرَة**»[2].

لقد أعطى اللّه تعالى البعض كثيراً من النعم، ولكنهم يفتقرون إلى شـهوة الطعام لمرض أو مشـكلة ما. من هنا؛ كان لا بد للأصحاء الآمنين أن يتوجهوا إلى ربّهم بكثير الحمد والشكر.

إذن، فـإنّ القـدرة على النـوم في الليـل والنهـار، والقوة على طلب الرزق من آيات اللّه العزيز ودلائله:

٤ - ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾

إنّ هـذه آيـات عدّة، وليسـت آية واحـدة، لِمَ ليسـت واحدة؟ لأنّ الصحّـة آية، والأمن آية، والقـدرة آية، والرغبة آية، والالتذاذ آية، وهكذا في وجود كلّ شيء آية، ولكن أين الأذن التي تسمع وتعي؟!

(١) المحاسن، ج١، ص٤٣٧.
(٢) المحاسن، ج١، ص٤٠٦.

٥- ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾.

فمن المهمّ جداً الاستماع لآيات اللّه ونعمه والاستفادة منها للتقدم والسعادة.

فالبشر يختلفون عن بقيّة الأحياء، إذ أنَّ كل حيوان لدى ولادته يكتسب تجاربه الخاصة بشكل غريزي. ولعلّ جميع الحيوانات خاضعة لهذه القاعدة. أمّا البشر بأجيالهم المتعاقبة تتكرس وتتكاثر تجاربهم ويتعلمون الجديد، لأنّ فيهم القدرة على السماع والتعلّم واختزال التجارب والاستفادة من الآخرين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾.

وعليه؛ فمهما ضاعفنا قوانا العقلية والسمعية، تضاعفت لدينا المعرفة. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْعِلْمُ عِلْمَانِ: مَطْبُوعٌ ومَسْمُوعٌ، ولَا يَنْفَعُ الْمَسْمُوعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطْبُوع**»[١].

والمطبوع هو جملة القواعد والأصول الأولية المودعة في جوهر الإنسان لدى خلقته الأولى. وكلّ العلوم المسموعة التي ينتهلها المرء خلال حياته رهينة بهذه الأصول الأوّليّة، فمن كان فاقداً لها، لم تكن العلوم المسموعة مفيدة له[٢].

(١) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، ص٥٣٥، الحكمة ٣٣٨.

(٢) ليس خافياً على أحد أنّ (الموجودات الحيّة) بحاجة إلى الاستراحة لتجديد طاقتها وتوفير الاستعداد اللّازم لاستدامة العمل والنشاط، حتّى أقوى الناس ليسوا مستثنين عن هذه القاعدة، وليس من عامل أكبر دوراً في تحقّق الاستراحة من النوم، إذ أنّ الأنشطة الجسمية وقسماً مهمّاً من النشاط الفكري والدماغي يتعطّل خلال النوم، إلاّ بعض أجهزة الجسم: كالقلب والرئتين وجزء من النشاط الدماغي، وذلك لإدامة الحياة.
وإنّ هذه الهبة الإلهيّة الكبيرة سبب لتجديد جسم الإنسان وروحه قواهما،

بصائر وسنن

١- إنّ النـوم نعمة من نعم اللَّه لراحة الإنسـان وتجديد طاقاته وقواه، وهذه النعمة آية على قدرة وربوبيّة اللَّه سبحانه. وعليه؛ ينبغي أن نبدي كلّ الشكر لربّنا المتعال على أن أنامنا في مضجع أمنه وأمانه.

٢- على الإنسـان في حال اليقظة السـعي لطلب الرزق لنفسه

فيجد المرء بعد النوم نشاطاً جديداً، فلو لم يكن ثَمَّ نوم لذبلت الروح وتهاوى الجسد، ولأسرعت الشيخوخة والانكسار إلى وجوده، ولهذا كان النوم أنجع آليات اكتساب الراحة والسلامة وطول العمر ودوام النشاط والشباب.

إنّ تحمّل الإنسان للأرق ضئيل جدّاً، ولا يتجاوز بضع أيّام.. وهكذا كان المنع من النوم أصعب أنواع التعذيب الذي يمارسه الجلاّدون في سجون الطواغيت.

واللَّه تعالى جعل - في هذه الآية الكريمة - النوم قبل ابتغاء فضله؛ لأنّه الأساس فيه، فيصعب طلب الرزق والمرء يعاني أرقاً وقلّة نوم.

والمسألة الجديرة بمزيد الدّقّة والملاحظة أنّ في البدن قدرة على تغيير برنامج النوم. فمع أنّ الأصل في أنّ النوم في الليل والسعي إلى الرزق في النهار، ولكنّ القاعدة ليست حتميّة وأبديّة في هذا الإطار، فالإنسان قادر على تغيير توقيت النوم طبقاً لما يعدّه ضرورياً، ولكنّ النوم الليلي هو الأنسب لجسم الإنسان، تبعاً لما في الليل من هدوء وظلام.

ومن المهم في النوم أيضاً، أنّه مع ساعاته، ينبغي أن يكون عميقاً. وبمدى العمق - وإن كان قليلاً - تتحقق الراحة والقدرة على تجديد الطاقة.

وحيث لا يتحقّق النوم العميق، فإنّ (النعاس) وهو النوم الخفيف نعمة إلهيّة أيضاً، كما قال سبحانه في سورة الأنفال، آية١١: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً﴾ فيما يتعلّق بمجاهدي بدر.

وعلى أيّة حال؛ فإنّ نعمة النوم والراحة والاطمئنان الناتجين عنه، وكذلك ما يتبعه من توفّر النشاط والقوة الجسميّة والروحيّة، تعدّ من النعم الربانيّة غير القابلة للوصف.

ولمن هو مسؤول عنه، وحين نطلب الرزق، لا بد لنا من التوكّل على اللَّـه تبارك وتعالى، فنطلب منه أن يرشـدنا إلـى طريق الرزق الحلال ومحلّه.

يُحيي الأرض بعد موتها

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

من الحديث

جاء في وصية الامام الكاظم عليه السلام لهشام: «**يَا هِشَامُ، قَدْ جَعَلَ اللَّـه جَلَّ وَعَزَّ دَلِيلًا عَلَى مَعْرِفَتِهِ بِأَنَّ لَهُمْ مُدَبِّراً فَقَالَ:**... ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾»(1).

تفصيل القول

آيات اللّه في الآفاق

عاد مرة أخرى - في هذه الآية الكريمة - إلى آيات الآفاق

(1) بحار الأنوار، ج1، ص133.

فيما يخصّ الرعد والبرق والمطر وإحياء الأرض بعد موتها، وتطلب الآية من ذوي العقول أن يفعّلوا عقولهم ويفكّروا في هذه الآيات.

إنّ المخاطر الناشئة عن البرق - والتي تتجسّد في بعض الأحيان بالصاعقة التي تحرق كلّ شيءٍ تمسّه وتحوّله إلى رماد - تسبِّب خوفاً في النفوس، ولكنّ هذا العامل نفسه يبعث الأمل والرجاء في النفوس أيضاً، لأنّه علامة على نزول المطر، إذ ما أن يرى الناس البرقَ في السماء حتى يتوقّعوا هطول المطر، وتحسّن وضع الطقس والأنواء الجوية، وضمان وضع زراعيٍّ وغذائيٍّ ومائيٍّ أفضل:

١ - ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

فما هو البرق؟!

كيف يحدث الرعد والبرق؟

كما أنّ كل ما في الدنيا خُلِق من زوجين اثنين: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(١). كذلك الغيوم زوجان أيضاً؛ فالشحنة الكهربائية فيها تتألف من سالب وموجب، فإذا اصطدما معاً تحدث عملية تفريغ وإخلاء فيها، فيحدث البرق، كما لو أن سلكين من الكهرباء يتقاربان فتنقدح منهما شرارة ونور، فإنْ ظهرت شرارة صغيرة من رأس سلكين ظهر منهما صوت خفيف، بينما الغيوم العظيمة تصدر صوتاً عالياً مهيباً بسبب الحجم الهائل للشحنة الكهربائية التي فيها فيسمّى رعداً.

والخطر المخيف يتحقق حين تكون قطعة الغيم ذات الشحنة

(١) سورة الذاريات، آية ٤٩.

الموجبة قريبة من الأرض، والأرض دائماً ما تحتوي على شحنة سالبة، ولذا يحدث الانقداح بين الغيم والأرض، فتسمّى صاعقة. والخطر الذي يسميه القرآن الكريم: خوفاً يكمن في أن تتحرّك الشحنة الكهربائية باتّجاه الأرض وتصطدم بنقطة معيّنة، يمكن أن تكون قمّة جبل أو شجرة أو إنسان حتّى، فتقع شحنة مهيبة في تلك النقطة، فيتبدّل كلّ شيء إلى رماد في برهة قصيرة جداً.

وقد أثبتت الاكتشافات العلمية أنّ لعامل الخطر هذا فوائد وبركات جمّة. ففي سابق الدهور لم يكن الناس يعرفون كيف يحدث البرق، ولكنّهم عرفوا بالتجربة أنّ الزراعة تصاب بالعطل ما لم يحدث الرعد والبرق، فكانوا يرغبون ازدياد حدوث هذه الظاهرة في جوّ السماء!

بركات الرعد والبرق

ومن بركات وفوائد البرق نشير الى ما يلي:

١- **توفير المياه الزراعية**: فالبرق ينتج درجة حرارة عالية، تصل في بعض الأحيان إلى (١٥) الف درجة سانتيغراد، وهذه الحرارة تحرق كمّيات كبيرة من الهواء، فتؤدي إلى خفض في ضغط الهواء، ولدى الضغط المنخفض تمطر الغيوم، ولذلك نرى في الغالب هطول المطر بغزارة بعد حدوث ظاهرة الرعد والبرق.

٢- **محاربة الآفات الزراعيّة**: حين ظهور البرق بما يحمل من درجة حرارة عالية جداً، يضاف إلى قطرات المطر كمّيّات إضافية من الأوكسجين، فيكون الماء الهاطل ثقيلاً مشحوناً بالأوكسجين، وهذا التركيب له خاصية القضاء على الميكروبات والآفات، إذ تقضي تلكم القطرات على بيوض الآفات وأمراض التربة والأغصان وغير ذلك.

٣- تقوية التربة: فالبرق يسبِّب إحتراق المواد العالقة وكذلك إنتاج اسيد الكاربون، وحين تتناثر قطرات المطر على التربة ينتج نوع من السماد تتغذّى عليه النباتات.

وهكذا نجد في هذه الظاهرة المخيفة بركات عديدة، وهذه البركات ليست سوى جزءٍ من الأسرار التي كُشفت، وهي في الوقت ذاته تمثّل جانباً من جوانب معرفة الربّ العظيم.

من خلال ما ذُكِر من فوائد البرق يتّضح معنى كلمة ﴿وَطَمَعًا﴾ الواردة في الآية:

٢- ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

خوفاً من الصاعقة المدمِّرة، وطمعاً في الفوائد والبركات الجمّة الناجمة عن البرق وغزارة الأمطار.

آية المطر

وتواصل الآية الكريمة إيضاح هذه الحقيقة فتصرّح قائلة:

٣- ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾

فبعد حدوث ظاهرة البرق ينزّل اللّه الماء:

٤- ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾

أي: بعد أن غطّت الأرض في سبات فكانت يابسة تُشمّ منها رائحة الموت، فتعود إليها الحياة وتظهر عليها بصورة ظهور النباتات أو الاستعداد لتقبّل الزراعة، وإنّ الأرض لتنهض لاستقبال ماء السماء.

ولقد كان المفسّرون القدماء يظنّون أنّ للمياه العذبة مصدرين: واحد في السماء وآخر في الأرض، ولكنهم كانوا يبدون عجبهم

للنصّ القرآني الذي لا يتحدّث عن الماء إلاّ ويعزوه إلى السماء، إلّا أنّ البشريّة قد علمت فيما بعد أن ماء الأرض يعود مصدره إلى السماء أيضاً، وأن مصدر المياه الجوفية هو المطر، إذ ينحدر ماء المطر إلى ما تحت الأرض وتتكون الأحواض والمخازن المائية العظيمة داخل الجبال ومجاري الآبار والبحيرات غير البادية للعيان في المغارات. وقد ورد في دعاء الجوشن الكبير: «**يَا مَنْ فِي الْجِبَالِ خَزَائِنُه**..».

وكمثل فإنَّ ماء زمزم أحد خزائن اللَّه تعالى، وهو يقع في جوف الأرض، وقد كشف الباحثون أنّ الأمطار التي تهطل على جبال الطائف تنحدر إلى مجارٍ تقع في أسفلها تحت الأرض وتتجه صوب مكّة إلى حيث بئر زمزم. وهذا من عمل الهندسة الإلهيّة العجيبة! لا سيما لو أنّ جميع آبار مكّة أصيبت بالجفاف، ما كان لبئر زمزم أن يجفّ، لأنّ منابعه تأتي من مسافات بعيدة جداً.

ومن هنا؛ يُعلم أن جميع المياه الكائنة تحت سطح الأرض تعود إلى مصدرها السماوي، كما أنّ المياه المالحة تعود إلى تركيبة مياه المطر مع المواد المعدنية وأملاح الأرض:

﴿فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾

فكيف تُحيا الأرض؟!

إنّ العناصر والمواد التي جعلها اللَّه تبارك اسمه في الأرض مستعدة للإحياء، ولكنّها نائمة: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ ولكنّها تحيا حين ينزل عليها ماء المطر: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[1].

(١) سورة الحج، آية٥.

الخصوصيّة الأخرى لماء المطر هي التنظيف والتطهير، وهذه الخاصيّـة هي التـي تحيي الهـواء والموجودات الأخـرى الموجودة فـي الجـو، وتقلّل نسـبة الملوحـة والتلـوّث فـي الأرض، وقد عمد بعض اليابانيين مؤخراً إلى غسـل ثيابهم بمـاء المطر بعد أن يجمعوه فـي أوانٍ خاصّة، لأنّهم اكتشـفوا فيه قابليّة على حلّ ذرّات الأوسـاخ وقتل الميكروبات، مما يقلل اسـتخدامهم لمسـاحيق الغسـيل بنسبة (٣٠٪).. إنّ هـذه بعـض خـواصّ مـاء المطـر التـي يعـي العاقلـون حقيقتها:

٥- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

صفوة القول

جميـع ما تقدّم إنّما هو ليسـتيقظ الإنسـان ويتعـرّف على ربه. فالبـرق خلقـه اللَّه تعالى وجعلـه آية وعلامـة، لأنّه سـبحانه يريد أن يتجلّـى لعبـاده فيعرفـوه. وإنَّ نعمـة المعرفـة أكبـر مـن نعمـة الماء. والأصل في ذلك كلّه أن نصل إلى مقام القرب من ربّنا.

وفـي هذه الآية من سـورة الروم يريد اللَّه تعالى أن يسـتعرض آياتـه لخلقه، ولذا قـال: ﴿يُرِيكُمُ﴾، يريكم البرق خوفـاً، ثم طمعاً، ويريكـم الأرض الميتة، ثـم حياتها من جديد، يريكـم كل ذلك لكي تروا اللَّه تعالى من خلالها، وفي كل ذلك آياتٌ لقوم يعقلون.

العقلاء وحدهم يتعرفون إلى ما يريد اللَّه، وإلى أنّ الوجود بما فيه قائم على الدقّة اللامتناهية ولا يمكن أن يكون معلول الصُدفة.

إنّ الذيـن يعـون الغاية من وجود الآيات فـي الآفاق والأنفس هم الذين يتفكّرون ويسمعون ويعقلون، كما ورد في الآيات السالفة.

وبالنتيجة، ينبغي للمرء أن يتحلّى بالعقل ليتمكّن من رؤية آيات اللَّه، ولا ريب أنّ غير العاقل غير جدير بتلمّس ورؤية هذه الآيات أو التعامل معها بتعقُّل.

عن خاتمة الآيات ٢١- ٢٤

أمامنا طرق مختلفة للوصول إلى حقيقة الآيات القرآنيّة المنيرة. وإحدى هذه الطرق: التدبر في خواتيم الآيات الشريفة، فاللازم على قارئ الآيات أن يتلو خاتمة كلّ آية ويتدبّر فيها.

ففي الآيات (٢٠-٢٥) من سورة الروم، نتلو بعض الآيات الإلهيّة:

الآية الأولى: قدرة اللَّه المشار إليها في الآية (٢٠) وهي خلق البشر من تراب وانتشارهم في الأرض.

وآية أخرى جاءت في الآية (٢١) وهي نعمة الأسرة وتأسيسها.

وآية اختلاف الألسن والألوان في الآية (٢٢).

ثم خلقة الليل والنهار ودورهما في حياة البشر، والنوم في الليل والنهار والسعي في طلب الرزق في الآية (٢٣).

وفي الآية (٢٤) كان الحديث عن آية الغيوم، والبرق، وإحياء الأرض بعد موتها، والدعوة إلى التعقل.

وفي الآية (٢٥) سيكون الحديث عن آية إقامة السماوات والأرض بأمر اللَّه والبعث في يوم القيامة.

ومع أن بدايات الآيات ٢٠-٢٥ كان الحديث فيها عن الآيات الإلهيّة لمعرفة الربّ الخالق، إلاّ أنّ خواتيم الآيات (٢١-٢٤)

تناولت مسألة خاصة عن الآيات أشار إليها الباري عز وجل.

ما هي رسالة هذه الخواتيم؟

كانت خواتيم الآيات كالتالي:

١- في الآية ٢١: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٢- في الآية ٢٢: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾.

٣- في الآية ٢٣: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

٤- في الآية ٢٤: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فماذا تعني هذه الخواتيم؟

أوّلاً: ينبغي لنا الالتفات إلى أربع مفردات جاءت في هذه الخواتيم: التفكر والعلم والسمع والعقل، وهي أربعة طرق للمعرفة، أي: أننا أيَّ الطرق اخترنا، تمكنّا من معرفة اللّه تعالى.

ثانياً: كل واحد من هذه الطرق له علاقة بالآية التي ذكرها الربّ المتعال.

فدرك آية المودة والرحمة بين الزوجين بحاجة إلى تفكّر، وليس النظرة السطحية التي لا تثمر شيئاً.

وآية الخلقة واختلاف الألسن والألوان يعيها أهل العلم والمعرفة، بمعنى لزوم اتخاذ العلم والمعرفة وسيلة أولى لإدراك حقيقتها.

وكذلك الأمر في مختلف الآيات، حيث التناسب واضح ومشهود في كلّ آية بين مقدمتها وموضوعها ونتيجتها.

إنّ كلّ آيـة قرآنيـة بمثابة قـرآن كامل، فكلّ آية بمثابـة كتاب كامل خاص بإدراك حقيقة من الحقائق، ولو أنّ إنساناً تناول آية بالتلاوة والتدبر والتحقيق بشكل كامل وعميق، لكفته للوصول إلى هدفه المعرفي.

العمل الجمعي لكسب المعرفة

فـي خاتمة آيات ثلاث من هذه الآيـات الأربع؛ تكررت كلمة (قـوم) وفـي الأخرى جـاءت كلمـة (للعالمين) بصيغـة الجمع، فما السبب؟

كلمـة (قوم) مأخوذة مـن (قيام)، (قوم) تُطلـق على مجموعة إنسانية يلبي أفرادها حاجات بعضهم البعض.

فالمقصود هـو - إذن - التأكيد على مدى أهمية التعاون حين التفكير والاستماع والتعقّل والتعلّم. فالتشاور والتحاور له دور هام جداً في التوصّل إلى الحقائق، وعلى هذا الأسـاس يتمّ تشـكيل فرقٍ معرفيّة يتساعد أعضاؤها فيما بينهم ويتحاورون للتوصل الى الكمال العلمي والمعرفي. قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾[1].

الوصيّـة فـي البـدء إذن - في هذه الآيـة - بالتفكيـر والتحاور الجمعي، فإن لـم يتسنَّ ذلك، فليكن فرديّاً على الأقلّ.

التفكر وعلاقته بالعلم والاستماع والعقل

ولكـنّ السـؤال الجدير بالاهتمـام فـي تفعيل هـذه المفاهيم الأربعـة التـى وردت في خواتيم الآيات الأربـع، هو عن العلاقة فيما بينها والبحوث الأخرى المرتبطة بها.

(١) سورة سبأ، آية٤٦.

١ - حقيقة الفكر والتفكّر

أساس كلمة الفكر يعني تحريك الذهن للتوصل الى نتيجة مطلوبة. فقد يكون الماء راكداً، وقد يكون جارياً، كذلك هو فكر الإنسان، وكل ما أعطاه اللَّه تعالى للإنسان من قوى ذهنية وعقلية، فقد تبقى بلا حراك وتحوّل وفي مستوىً واحد، ولكنّ البعض يحركون ويثيرون ما أعطاهم ربهم، فإذا كان ذلك العقل الذي وهبه اللَّه للانسان ذا حركة ونشاط، حصل فيه الفكر والتفكّر، وإلّا فإنّه يبقى موجوداً راكداً، والحال هو لزوم إثارة هذه القوة المعطاءة. ألا ترى أنّ الأرض لا تخرج نباتاً حتى تثار؟ ألا ترى أنّ التغيير التاريخي والحضاري لا يحصل ما لم تحدث ثورة شاملة؟!

فالفكر - إذن - هو: إثارة وتحريك القوة التي يقع فيها وبسببها الإدراك والفهم.

ترى ما معنى تحريك هذه القوة التي هي محل الفكر؟ سيتّضح الموضوع بمثال: إن كنتَ حاضراً في مجلسٍ مّا، وكنتَ فيه في السنة الماضية أيضاً، وقد كنتَ تحفظ عنه صورة في ذهنك، وفي الوقت الحاضر تستطيع إلتقاط صورة ذهنية أخرى له، فيشهد ذهنك حركةً مّا بين المعلومات السابقة والحالية، فتقيس بين الصورتين ثم تستنتج أمراً مّا. يقال لهذه الحركة: إثارة، حيث تقاس معلومات الأمس بمعلومات اليوم، وتوضع الصورتان أمام بعض، ويتم الإستنتاج منهما، أي أننا نحرّك المعلومات، ونسأل عن سبب هذا وذاك، وعن العلاقات بينهما، ثم نصل الى نتيجة معينة، هذا هو أصل الفكر.

٢ - البنية التحتيّة للتفكير

وكذلك جعل اللَّه سبحانه وتعالى في نفوسنا بنية تحتيّة

للتفكيـر. فذهـن الإنسـان، قد جُعلـت فيه فـي البدء مسـائل من قبل الخالـق المتعـال. فمثـلاً معادلـة (٢+٢=٤) قائمـة علـى اصـول فكريـة ثابتـة. وهناك مثلها أصول أساسـية أخرى، كاسـتحالة التضاد والتناقـض، وقضيّـة القبـح والحسـن، وإدانـة الإعتداء علـى اليتيم، وحُسْـن العطف والحنان.. وهـذه وأمثالها تعد من الأصـول الأوّليّة والبديهيّـة التـي وضعهـا اللَّه تبارك وتعالى في شـخصيّة كلّ انسـان، ولهذا؛ كان الإنسان – أينما حلّ وارتحل – يصادق عليها، فهي حجّة اللَّه عليه.

وأمثـال هـذه الأصـول البديهيّـة والأساسـية فـي فهـم البشـر والمنحوتة في الذهن الإنسـاني، كثيرة جداً، كحب الجمال، وكراهة القُبـح، والإحسـاس بالجـوع أو العطـش، والشـعور بالحاجـة إلـى الجنـس الآخر. والأهمّ من ذلك؛ تشـخيص ما يسـدّ الحاجة، وعدم الخطأ في التطبيق بسـبب توفّر هذه الأصول التي تشكل البنية التحتيّة للتفكير.

ممّـا تقـدم، ننتهي إلى أنَّ التفكير والتفكُّر فـي أمرٍ مّا أو معلومةٍ مّـا لا بد أن يقترن بمراجعة المعلومات السـابقة والأصول الأساسـية المودعـة من قبل اللَّه عز وجل في الإنسـان، ثـم عرض ذلك الأمر أو المعلومة عليها للمقايسة والإستنتاج، ومن هذا الترتيب يتبيّن للإنسان مدى صحة أو خطأ ذلك الأمر أو تلك المعلومة، وهذا هو التفكير.

وحسـب التعبيـر الفلسـفي يقـال لهـذه العملية: الرجـوع إلى الأوّليّـات والبديهيّات. وفي هذه العمليـة يكون الأقدر على مراجعة عقلـه الأوّلـي الذي أودعه اللَّه تعالى فيه واسـتنباط امـور جديدة هو الأعقل.

كيف نعرف العاقل

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَخْتَبِرَ عَقْلَ الرَّجُلِ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ فَحَدِّثْهُ فِي خِلَالِ حَدِيثِكَ بِمَا لَا يَكُونُ، فَإِنْ أَنْكَرَهُ فَهُوَ عَاقِلٌ، وَإِنْ صَدَّقَهُ فَهُوَ أَحْمَق**»[1].

إذن؛ إذا أردنا أن نعرف مدى عقل أحدهم، فلنطرح عليه مسألة محالة فإن أنكرها؛ فهو عاقل، وإن قبلها، فهو يعاني مشكلةً عقليّة!

إنّ من أهمّ وظائف الأنبياء والأئمة سلام اللّه عليهم هي تنمية عقول الناس. قال أمير المؤمنين عليه السلام في بيان الهدف من بعث الأنبياء والرسل: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُول**»[2]. أي: ليكتشف الناس عظمة الكنوز الفكريّة والذهنيّة التي أودعها الخالق المتعال فيهم، بعد أن يستيقظوا من سبات الجهل والغفلة ويفعّلوا عقولهم.

إذن؛ فأوّل شيء نحتاجه هو أنّ ما نسمع أو نرى أو نقرأ، لا بد من عرضه على العقل، لنعرف مدى صحته أو خطأه، وهذا هو التفكّر.

آيات لقوم يتفكرون

بهذا التحليل نعود إلى خاتمة الآية (٢١)، حيث قال سبحانه بعد بيان الآية في جعل المودّة والرحمة بين الزوجين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

---

(١) الإختصاص، ص٢٤٥.

(٢) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، الخطبة ١، ص٤٣.

وبناءً على ما تقدّم، فقد بيَّن اللّه سبحانه أنّ فهم الحقيقة هو شأن الذين يتفكّرون ويفعّلون قوتهم العقليّة، ويستثمرون البديهيّات والمعلومات الفطرية، هؤلاء فقط من يرى بأنَّ الحيوانات وجميع الموجودات قائمة على أساس الزوجيّة وهي - كما الإنسان - تتوالد؛ ولكنّها تفتقر إلى المودّة والرحمة فيما بينها. مع الأخذ بنظر الاعتبار وجود حالة التجاذب فيما بينها، إذ يمكن وصفها بنوع باهت من المودّة. إلّا أنّ المودّة لدى الانسان شيءٌ آخر، فالمودّة بين الزوجين بمثابة حبّ الظاهر، فيما الرحمة تعني مرتبة أسمى من الحب.

وما الفرق بين وجود المودّة والرحمة أو عدمهما؟

إنَّ وجودهما سبب لتكاثر البشر وانتشارهم في الأرض، وانطلاقاً من هذه المودة والرحمة يبذل الوالدان كل جهدٍ لإضفاء الحنان والرعاية لصغارهم بدرجة عالية لا توجد عند سائر الأحياء، ولا يتوقّف هذا حتى في سنّي الشيخوخة.

وبهذه الرحمة والمودّة صار البشر سادة الأرض، وصارت البشريّة وعاء القيم الإلهيّة والتقدّم والنموّ الحضاري، ولو أنّنا حذفنا الأسرة من المجتمع، لم يبق لنا شيء، وإنّما ينبغي الدفاع المستميت عن الأسرة وحرمتها واحترامها.

ما تقدّم قسم ضئيل من أهمية الآيات الإلهيّة ولزوم التفكير في آفاقها.

وبايجاز: كانت الخاتمة في الآية عن التفكّر، ثم العلم في الآية التالية، باعتبار التفكر أساس العلم وأرضيته، ثم الاستماع، لأنّ الإنسان بعد مرحلتي التفكّر والعلم يتهيّأ لاستماع وقبول الحق، كما قال سبحانه: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ

أَحْسَنَهُۥٓ﴾(١).

وآخر فصول الخطاب في خواتيم هذه الآيات كان العقل، لأنّ من يستمعون القول يصلون إلى مرحلة العقل الكامل في نهاية المطاف.

بصائر وسنن

١- إنّ المخاطر الناشئة عن البرق - والتي تتجسّد في بعض الأحيان بالصاعقة التي تحرق كلّ شيءٍ تمسّه وتحوّله إلى رماد - تسبِّب خوفاً في النفوس، ولكنّ هذا العامل نفسه يبعث الأمل والرجاء في النفوس أيضاً، لأنّه علامة على نزول المطر.

٢- بعد حدوث ظاهرة البرق ينزّل اللّه الماء على الأرض التى غطّت في سبات وأصبحت يابسة تُشمّ منها رائحة الموت، فتعود إليها الحياة وتبدو عليها بصورة ظهور النباتات أو الاستعداد لتقبّل الزراعة، وإنّ الأرض لتنهض لاستقبال ماء السماء.

٣- إنّ الذين يعون الغاية من وجود الآيات في الآفاق والأنفس هم الذين يتفكّرون ويسمعون ويعقلون، وبالنتيجة ينبغي للمرء أن يتحلّى بالعقل ليتمكّن من رؤية آيات اللّه، ولا ريب أنّ غير العاقل غير جدير بتلمّس ورؤية هذه الآيات أو التعامل معها بتعقُّل.

(١) سورة الزمر، آية١٧- ١٨.

تقوم السماء والأرض بأمره

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

من الحديث

قال أمير المؤمنين عليه السلام في إحدى الخطب المرويّة في نهج البلاغة:

«حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، والْأَمْرُ مَقَادِيرَهُ، وأُلْحِقَ آخِرُ الْخَلْقِ بِأَوَّلِهِ، وجَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا يُرِيدُهُ مِنْ تَجْدِيدِ خَلْقِهِ، أَمَادَ السَّمَاءَ وفَطَرَهَا، وأَرَجَّ الْأَرْضَ وأَرْجَفَهَا، وقَلَعَ جِبَالَهَا ونَسَفَهَا، ودَكَّ بَعْضُهَا بَعْضاً مِنْ هَيْبَةِ جَلَالَتِهِ ومَخُوفِ سَطْوَتِهِ، وأَخْرَجَ مَنْ فِيهَا، فَجَدَّدَهُمْ بَعْدَ إِخْلَاقِهِمْ، وجَمَعَهُمْ بَعْدَ تَفَرُّقِهِمْ، ثُمَّ مَيَّزَهُمْ لِمَا يُرِيدُهُ مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ عَنْ خَفَايَا الْأَعْمَالِ وخَبَايَا الْأَفْعَالِ، وجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ: أَنْعَمَ عَلَى هَؤُلَاءِ وانْتَقَمَ مِنْ هَؤُلَاءِ.

فَأَمَّا أَهْلُ الطَّاعَةِ فَأَثَابَهُمْ بِجِوَارِهِ وخَلَّدَهُمْ فِي دَارِهِ، حَيْثُ لَا يَظْعَنُ النُّزَّالُ، ولَا تَتَغَيَّرُ بِهِمُ الْحَالُ، ولَا تَنُوبُهُمُ الْأَفْزَاعُ، ولَا تَنَالُهُمُ

الْأَسْقَامُ، ولَا تَعْرِضُ لَهُمُ الْأَخْطَارُ، ولَا تُشْخِصُهُمُ الْأَسْفَارُ.

وأَمَّـا أَهْلُ الْمَعْصِيَةِ فَأَنْزَلَهُمْ شَـرَّ دَار، وغَلَّ الْأَيْـدِيَ إِلَى الْأَعْنَاقِ، وقَرَنَ النَّوَاصِيَ بِالْأَقْدَام، وأَلْبَسَهُمْ سَرَابِيلَ الْقَطِرَانِ ومُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، فِي عَذَابٍ قَدِ اشْـتَدَّ حَرُّهُ، وبَابٍ قَدْ أُطْبِقَ عَلَى أَهْلِهِ، فِي نَارٍ لَهَا كَلَبٌ ولَجَبٌ ولَهَبٌ سَـاطِعٌ وقَصِيفٌ هَائِلٌ، لَا يَظْعَنُ مُقِيمُهَا، ولَا يُفَادَى أَسِـيرُهَا، ولَا تُفْصَمُ كُبُولُهَا، لَا مُدَّةَ لِلدَّارِ فَتَفْنَى، ولَا أَجَلَ لِلْقَوْمِ فَيُقْضَى»[١].

تفصيل القول

التفكّر في آيات اللّه

الآيـات السـالفة (٢١-٢٤) إضافة الى هـذه الآية بدأت بقوله تعالـى ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾، أيّ أنّ هـذه العبـارة تكـررت سـت مـرات، وتكرار التعبير هذا يدلّ على مدى ارتباط الآيات ببعضها.

وهذه المجموعة من آيات سـورة الروم بدأت بقوله سـبحانه: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ فـي الآية ٢٠، أي أنها بدأت بخلقة البشـر. فلِمَ هذه البداية بالذات؟ لأنّ البشـر حسّـاس بالنسـبة لنفسه، ويعدّها محـور الدنيا، وقـد عدّه القـرآن كذلك، فحين يتحدث عن الشـمس والقمـر يقـول تعالـى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾[٢]. كمـا يقـول سـبحانه عـن بنـي آدم: ﴿وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٣]، ولهذا بدأ الحديث بخلقة الإنسان.

إذن؛ فأوّل آية في هذه المجموعة كانت عن خلقة ابن آدم ﴿أَنْ

(١) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، الخطبة١٠٩، ص١٦١- ١٦٢.
(٢) سورة إبراهيم، الآية:٣٣.
(٣) سورة الاسراء، الآية:٧٠.

﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾.

وفي الآية ٢١ تحدث عن خلق الزوج للإنسان: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ وفي هذه الآية أُعلم الإنسان بأنّ كلّ شخصين يشكلان زوجاً واحداً، وهذا النوع من الخلقة علامة على قدرة الربّ العظيم؛ وهو باب لمعرفته سبحانه.

وفي الآية ٢٢ بحث عن خلقة السماوات والأرض: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وكان لهذه السماوات والأرض من التأثير على الإنسان، حتى صار الاختلاف في اللسان واللون ﴿وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ وقد بُيّنت هذه الحقيقة في سورة الحجرات بالنحو التالي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾[1].

فتحدّث اللّه بدءاً عن خلقة الإنسان، وعن التكاثر والانتشار البشري في الأرض، ثم عن جعل الأزواج، وبعد ذلك عن خلق السماوات والأرض واختلاف الألسن والألوان[2].

وتواصل الآيات التطرّق إلى مسائل أخرى من حياة البشر والنعم الموهوبة لهم، مثل نعمة النوم والراحة في الليل؛ لينهض الإنسان مفعماً بالنشاط والقدرة والهمّة في طلب الرزق، فيقول في

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.

(٢) المسألة البالغة الأهمّيّة إلفات النظر إلى نماذج أخرى من الاختلاف، لنعلم أنّ أفراداً آخرين قد خُلقوا أيضاً، وهم ليسوا سواءً في الأخلاق والتوجهات والفكر، وهذا الاختلاف بطبيعة الحال هادف ويعود إلى هدف مشترك ينبغي تحقيقه، وهذا الهدف هو سدّ حاجات أفراد المجتمع. إذ منهم البزّاز والعطار والطبيب والمعلّم وغيرهم ممّن يتوقّع منهم السعي إلى إستمرار الحياة الاجتماعيّة.

الآية ٢٣: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾.

ثـم حاجة الإنسـان إلى توفيـر الإمكانات والوسـائل الخاصّة بطلـب الـرزق، حيث تحدثـت الآية ٢٤ عـن الغيوم والرعـد والبرق والمطر وإحياء الأرض؛ باعتبارها دلائل قدرة الربّ.

فكل هذه جُعلت (من آياته) سـبحانه، وحثَّت الآياتُ الكريمةُ الإنسان على: التفكّر، والعِلم، والسماع، والتعقل.

فالإنسـان يجـب أن يفكّـر أوّلاً، ثـمّ يوسّـع مـن أفقـه العلمي ليختـزل مـن المعلومـات والمعطيـات العلمية مـا يسـدّ حاجاته، ثمّ يسـتمع من الآخرين ويستلهم آراءهم ونظرياتهم، وأخيراً يبدأ بمهمّة التعقّل في كل ذلك حتى ينتهي إلى استنتاج الحقيقة.

والجديـر بالذكـر إنَّ تسلسـل ذكـر آيات اللَّـه تعالـى في هذه المجموعة، وكذلك خواتيمها قد بُحثت وعُرضت بشـكل دقيق جداً مما يدعو الإنسـان إلى التدبَّر في السـياق الذي تسلسـلت عبره آيات الذكر الحكيم.

قيام السماء والارض

وهكذا يستمر السياق في عرض آيات اللَّه حتى يصل إلى قوله تعالى:

١ - ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾

فالسماء والأرض تقومان بأمر اللَّه تعالى.

فما معنى القيام هنا؟

ولماذا ورد ذكر السماء قبل الأرض؟

وما علاقة هذه المسائل بالبعث والحشر، حيث لا بد أن يقوم الإنسان من الأرض في يوم القيامة:

٢- ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾

ما معنى كلّ ذلك؟

إذا قرأتم الآية قد تتجاوزونها سراعاً ولعلّكم تبدون إعجابكم بها، أو تظنّون بأنّكم قد وعيتموها! ولكنّكم إذا أمعنتم النظر جيداً، رأيتم أنّها تعجّ بمجموعة من التساؤلات.

لا ندّعي أنّ القرآن لا يُفهم، بل نعتبره قابلاً للفهم، إلّا أنّنا نشبّهه بالبحر، فإذا غرفتم منه غرفة، فلستم قد أخذتموه كلّه، وحين استفدتم منه شيئاً، فإنّه يبقى واسعاً وعميقاً، ولهذا فإنّ القرآن الكريم مهما قُرِأ بقي جديداً ولا يكلّ قارئه، لماذا؟

لأنّ قراءته والاستفادة منها لا تنتهي، إذ يبقى جديداً بمعانيه ومفاهيمه التي يمكن أن تُستخرج في كلّ حين.

في هذه الآية يقول ربّنا الكريم:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾

أي أنّ ما سيستعرضه بعد هاتين الكلمتين ليس كلّ آيات الربّ الجليل، وإنّما هي بعض آياته. هذا مضافاً إلى الإشارة إلى أنّ القارئ لهذه الآية يجب أن يعلم بأنَّ هذه الآية المذكورة في كلامه تعالى هي من جملة ما يمكن أن يتّخذ طريقاً ونهجاً لمعرفة اللّه تبارك اسمه.

ولعلّنا كثيراً ما نُسأل عن كيفيّة معرفتنا للّه. فنجيب بأنّنا نعرف ربّنا بعد أن نخرجه عن حدّي التعطيل والتشبيه، فلا نقول بعدمه

من جهة فنعطِّله، ولا نقول بوجوده شبيهاً بخلقه، فهو موجود ليس كما نحن. هو له العلم ولكن ليس كعلمنا، وهو (أحد) ولكن ليس بمفهوم عدّ الأعداد، إذ (الأحد) بمعنى الفريد الذي لا نظير له: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[1]. وعليه؛ إذا سُئلنا عن كيفية معرفة الربّ، فالجواب هو: عبر النظر في آياته في الآفاق والأنفس، ومراعاة الحدّ الفاصل بين التعطيل والتشبيه. وإحدى آياته والدلائل عليه سبحانه:

﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾

وكلمة (تقوم) مأخوذة من القيام، وهو يعني أنّ السماء والأرض قائمتان وموجودتان، ولكن هذا الوجود بدءاً واستمراراً إنما هو بأمر اللَّه تعالى.

بلى؛ هناك من هو قائم بذاته؛ وهو اللَّه الخالق الغنّي عن غيره، ولكنّ جميع الأشياء قائمات به؛ لأنها مخلوقة؛ فهي محتاجة إليه سبحانه بوجودها وبقائها وبنظمها وحتى بنهايتها. فهو المدبِّر؛ وهي المدبَّرة بلطفه.

من وجهة نظر الحكمة الإلهيّة يقال: إنّ اللَّه تعالى قد خلق الإنسان ومنحه الوجود، ولكن ليس بمعنى أنّه لم يعد بحاجة إلى خالقه، بل إنَّ وجوده - لحظة بلحظة - متوقّف على عطاء ربّه... وكذلك هو وجود السماء والأرض؛ فلا يمكن تصوّر استقلال وجودهما - ولو للحظة واحدة - عن أمر ربّهما وإرادته وعطائه، وهما - لا ريب - تنعدمان بالمرة إذا سحب منهما أمره وعطاءَه وجرّدهما من إرادته.

(١) سورة الإخلاص، آية ٤.

استمرار اللطف الالهي

إنّ لطف اللَّه تعالى كثير عميم، والوجود مستمر بهذا اللّطف: ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾، وحين توفّر النعمة؛ يغفل المرء عنها، ولكن يبقى العطاء مستمرّاً لاستمرار الحياة فيه، كما المصباح المتوقّف في إضاءته على تدفّق القوة الكهربائية إليه من محطات الطاقة، كذلك هو الأمر بالنسبة لنا ولكل المخلوقات، فنحن نحتاج الى الفيض الإلهي لحظة بلحظة حتى يستمر وجودنا، فكل الوجود في الحقيقة هو فيض إلهي متدفق ومستمر. وهذه الألفاظ غير كافية لإيضاح هذه الحقائق العظيمة، إلّا أن يكون المرء عارفاً في داخل ذاته، حتى يصل إلى حيث يعي الحقائق.

إذن؛ فوجود السماء والأرض متوقّف على أمر اللَّه ولطفه وفيضه المتواصل، وهذا ما عبَّرت عنه الآية الكريمة: ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾.

وجاء التعبير عن قيام السماء والأرض هنا بصيغة المضارع (تقوم) التي تُدل على الحال والمستقبل، أي أنها قائمة بأمر اللَّه في أصل الوجود وحال الحياة ومستقبلها.

وما يقال عن أصل وجود السماء والأرض، يقال أيضاً عن النظام الحاكم فيهما، فهناك جاذبيّة خاصّة بين السماء والأرض قد جعلها اللَّه تعالى بأمره ليواصلا وجودهما، ولا ريب أنهما ينهاران وينعدمان إذا انقطع الأمر الإلهي عنهما. ففي يوم القيامة يتغير هذا الأمر في بعض المجالات فتتغيّر أشياء كثيرة: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾[1]. وقال القرآن في آية أخرى:

(١) سورة المزمل، آية١٤.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾(١). أي: كالقطن المتناثر الذي لا قوة فيه، لأنّ اللّه تعالى سيعدم جاذبية الأرض فتصبح الجبال كما يصفها القرآن.

إنّ قيام السماء والأرض بأمره سبحانه وبما جعله من القوانين فيهما بمشيئته، هو من الآيات الإلهية. ومعلوم أنّ المعارف والاكتشافات مستمرة، وهي تكشف كل يوم عن أنّ القرآن تحدّث عن أشياء لم نكن نعرف منها شيئاً.

السماء آية كبرى

في قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ جاء ذكر السماء أولاً، لماذا؟ لأن الأرض في الفضاء، والسماء – في حقيقتها – فضاء واسع جداً يحوي الأرض وسائر الأجرام الفلكيّة: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٢). أي أن السماء ساحة الحركة والدوران.

ولعلكم تظنّون أنّ شمساً في هذا الفضاء قد تصدم شمساً أخرى، وظنكم هذا كقولكم إنّ سمكة تسبح في المحيط الهادي قد تصطدم بسمكة تسبح في المحيط الأطلسي. إنّ هذا الفضاء السماوي الرحب يتمتّع بالسعة والعظمة ودقّة النظم ما لا يمكن تصوّره، وإنّ الذرّات والأجرام تتحرك كلٌّ منها في إطارها المرسوم؛ ولا تتجاوزه بحال من الأحوال إلّا بأمر خالقها العظيم، والأرض جرم من الأجرام تتحرك بأنواع الحركة في هذا الفضاء المستمرّ في اتّساعه اللامتناهي بأمر اللّه وقوانينه.

---

(١) سورة القارعة، آية٥.

(٢) سورة الأنبياء، آية٣٣.

وقال سبحانه في هذه الآية: ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾، فماذا يعني؟

يمكن تقسيم نظام الكائنات إلى قسمين: نظام السُّنن، ونظام الأمر، والنظام المقصود في هذه الآية هو النظام الأمري، وهو ذاته الذي جاء في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: كلّ شيء بيده سبحانه، وهو الحافظ والناظم لكلّ شيء، وأمره نافذ - كلمح البصر أو هو أقرب - في كلّ شيءٍ، فيتحقّق قيامه أو ينعدم بأمره تعالى.

دعوة البعث والنشور

ثمّ الآية تقول بعد تبيين بعض آيات القدرة الربّانيّة العظيمة:

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾

وقد تناول المفسرون كلمة ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بالبحث، وما إذا كان معناها: تخرجون من الأرض.

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ جارٌ ومجرور متعلّق بما بعده، وهو محذوف ويُستلهَم من ﴿تَخْرُجُونَ﴾ أي: دعوة من الأرض خارجين منها، ويمكن أن يكون المتعلّق ﴿دَعْوَةً﴾.

ماذا يعني ﴿دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟

إنّ اللّه الذي تقوم السماء والأرض بأمره، ووجودهما بأمره، وكذلك ما فيهما من نظم، هو الذي يأمركم - أيّها الناس - فتخرجون من الأرض.

حينما يكون البحث عن البعث والنشور، يتعجّب المشركون ويقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(1). كان المشركون

(1) سورة الرعد، آية٥.

الجهلة يواجهون النبيّ ﷺ ويضربون له مثلاً مستهزئين: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾(١).

ويردّ عليهم اللَّه تعالى باستعراض بعض مصاديق قدرته وجبروته ليفهمهم أنّ تعجّبهم خطأ وليس في محلّه. فهو الربّ المتعال الذي يتعلّق شروق الشمس وغروبها وكل حركات الوجود بإرادته، وهو المتحكّم على الإطلاق بذرّات الوجود: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾(٢). فهذا الإله هو الذي يأمركم - وأنتم نيام في قبوركم - ويدعوكم الى الخروج من الأرض فتخرجون.

قدرة اللَّه على إعادة الخلق

فلِمَ هذا التعجّب؟! فقد خلق الشمس والقمر والجبال. فهل يعجزه أن يخلق عبداً بسيطاً؟! كونوا على يقين ثابت بأنّه القادر على ذلك.

افترضوا أنكم تشيّدون بيتاً واسعاً من طبقات عدّة، فتقولون للمهندس: هل تقدر على ذلك؟ فيقترح عليكم - لإثبات قدرته وقابليته - أن تنظروا أعماله ومشاريعه السابقة. كذلك اللَّه تعالى يقول للبشر: لِمَ تعترضون وتذهبون إلى عدم إمكانيّة تحقّق ذلك؟ انظروا مَن بنى السماء؟ وبأيّ قوّة هي الأرض واقفة محفوظة؟ وبيد مَن نظام الأجرام السماويّة؟ فهل هو عاجز عن أن يبعثكم من القبور ويعيدكم إلى الحياة مرّة أخرى؟!

---

(١) سورة يس، آية٧٨.
(٢) سورة النمل، آية٨٨.

وماذا تعني، كلمة ﴿دَعۡوَةٗ﴾؟

لدينا في اللغة العربية أنواع عديدة من المفاعيل المطلقة، وهذه الكلمة مفعول مطلق عددي، أي: أنّه سبحانه وتعالى ﴿دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ أي: دعوة واحدة وبكلمة واحدة. وفي آية أخرى تحدث سبحانه عن هذا الموضوع بعبارة ثانية: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾[1]. فهي نفخة واحدة وليس أكثر.

هي كلمة واحدة ونفخة واحدة في الصور، فيخرج مليارات البشر دفعة واحدة من قبورهم. حتّى أنّه ليحدث ازدحام عجيب رهيب. وعن تفسير الآية الثامنة من سورة القمر المباركة القائلة: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَعَثَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى النَّاسَ مِنْ حُفَرِهِمْ، عُزْلًا بُهْماً جُرْداً مُرْداً فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يَسُوقُهُمُ النُّورُ وتَجْمَعُهُمُ الظُّلْمَةُ، حَتَّى يَقِفُوا عَلَى عَقَبَةِ الْمَحْشَرِ، فَيَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ويَزْدَحِمُونَ دُونَهَا، فَيُمْنَعُونَ مِنَ الْمُضِيِّ، فَتَشْتَدُّ أَنْفَاسُهُمْ، ويَكْثُرُ عَرَقُهُمْ، وتَضِيقُ بِهِمْ أُمُورُهُمْ، ويَشْتَدُّ ضَجِيجُهُمْ، وتَرْتَفِعُ أَصْوَاتُهُمْ، قَالَ: وهُوَ أَوَّلُ هَوْلٍ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[2].

ومعنى ﴿دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أيضاً: أنّ هذه الحادثة تقع ولمّا تخرجون من الأرض بعد، كما قال سبحانه: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾[3].

---

(١) سورة الزمر، آية٦٨.

(٢) الكافي، ج١، ص١٠٤.

(٣) سورة طه، آية٥٥.

في الآية مورد البحث، وردت كلمة (إذا) مرّتين: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فالـ (إذا) الأولى شـرطية، والـ (إذا) الثانية فجائيّة، بمعنى وقوع الحادث دفعةً واحدة وفجأة.

النشور بعد معاناة القبر

ثـم كلمة ﴿تَخْرُجُونَ﴾ فعل معلوم، أي إنكم تخرجون من تلقاء أنفسكم ولا تجدون بُدًّا من الخروج بمجرّد تلقّيكم الدعوة من الربّ القادر الجبّار، مع ملاحظة طول المكث في القبور وما عاناه الإنسان فيه من المشاكل الكبرى. والاستعجال في الخروج هذا قد يعزى إلى هذه المعاناة، والتعب الرهيب، والرغبة العارمة في الخلاص من كل ذلك، وإن كان يؤدّي بهم الى جهنّم.

ولكي لا نتعرّض لتلكم المصائب، علينا السـعي أن نجعل من قبرنـا روضة من ريـاض الجنّة، وليس حفرة من حفـر النيران[1]، ولا ننتظـر ذلك اليـوم الذي نقـول فيه متحسّـرين: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2].

اذن، فقولـه سـبحانه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ يعنـي أنكـم النائمـون فـي هـذه الأرض سـتخرجون منها بأنفسكم؛ إذ القبر موضع صعب عسير، ومن جهة أخرى؛ فقد انقضى وقت الإبتلاء، وحلّ موعد الطاعة المطلقة.

إنَّ من يدرك هذه الحقيقة جيّداً هو إمامنا أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد جاء في الحديث عن هلال بن مسـلم، عن جدّه، قال: «شَـهِدْتُ

(١) انظر: الكافي، ج٣، ص٢٤٢.
(٢) سورة المنافقون، آية١٠.

عَلِـيَّ بْـنَ أَبِي طَالِـبٍ عليه السلام أُتِيَ بِمَـالٍ عِنْدَ الْمَسَـاءِ، فَقَالَ: «**اقْسِـمُوا هَـذَا الْمَالَ**». فَقَالُوا: قَدْ أَمْسَـيْنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِيـنَ فَأَخِّرْهُ إِلَى غَدٍ. فَقَالَ لَهُـمْ: «**تَتَقَبَّلُـونَ أَنِّي أَعِيشُ إِلَى غَدٍ**»؟ قَالُوا: ومَـا ذَا بِأَيْدِينَا؟ قَالَ: «**فَلَا تُؤَخِّرُوهُ حَتَّى تَقْسِـمُوهُ**». قَالَ الراوي: فَأُتِيَ بِشَمْعٍ فَقَسَمُوا ذَلِكَ الْمَالَ مِنْ غَنَائِمِهِم»[(١)].

وجـاء في الروايـات: «**أَنَّ عَلِيّـاً عليه السلام كَانَ يَكْنُسُ بَيْـتَ الْمَالِ كُلَّ يَـوْمِ جُمُعَةٍ، ثُمَّ يَنْضِحُـهُ بِالْمَاءِ، ثُمَّ يُصَلِّي فِيـهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولُ: تَشْهَدَانِ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[(٢)].

كما نقل عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**كَانَ خَلِيلِي رَسُولُ اللَّـه صلى الله عليه وآله وسلم لَا يَحْبِسُ شَـيْئاً لِغَـدٍ، وكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَفْعَـلُ ذَلِكَ، وقَدْ رَأَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ رَأْياً أَنْ دَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وأَخَّرَ الْمَالَ مِنْ سَـنَةٍ إِلَى سَنَةٍ، وأَمَّا أَنَا فَأَصْنَعُ كَمَا صَنَعَ خَلِيلِي رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم**»[(٣)].

إذن؛ فـلا ينبغـي الغفلة في لحظة واحدة، فحكـم اللَّه فينا ينفذ فينا فجأةً، سواءً في الموت أو في البعث والحشر.

بصائر وسنن

١- الإنسـان يجـب أن يفكّر أوّلاً، ثمّ يوسّـع مـن أفقه العلمي ليختـزل مـن المعلومـات والمعطيـات العلمية مـا يسـدّ حاجاته، ثمّ يسـتمع من الآخرين ويستلهم آراءهم ونظرياتهم، وأخيراً يبدأ بمهمّة

(١) الأمالي [للطوسي]، ص٤٠٤.
(٢) الغارات [الطبعة الجديدة]، ج١، ص٤٦.
(٣) الغارات [الطبعة الجديدة]، ج١، ص٤٨.

التعقّل في كل ذلك حتى ينتهي إلى استنتاج الحقيقة.

٢- هنـاك من هو قائم بذاته؛ وهو اللّٰه الخالق الغنّي عن غيره، ولكـنّ جميع الأشـياء قائمات به، لأنهـا مخلوقة، فهـي محتاجة إليه سـبحانه بوجودها وبقائهـا وبنظمها وحتى بنهايتها. فهـو المدبِّر لها، وهي المدبَّرة بلطفه.

٣- مـن الآيات الإلهيـة قيام السـماء والأرض بأمره سـبحانه وبما جعله من القوانين فيهما بمشيئته.

٤- إنّ اللّٰـه الـذي تقـوم السـماء والأرض بأمـره، هـو الـذي يأمركـم - أيّهـا النـاس - فتخرجون مـن الأرض. إنها كلمـة واحدة ونفخـة واحدة فـي الصور، فيخرج مليارات البشـر دفعـة واحدة من قبورهم. فقد انقضى وقت الإبتلاء، وحلّ موعد الطاعة المطلقة.

كلٌّ له قانتون

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾.

من الحديث

روي عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**كلُّ قُنوتٍ في القرآنِ فهو طاعةٌ**»[1].

تفصيل القول

في الآيات الماضية تلونا بحوثاً توحيدية مختلفة، مثل: (توحيد الخالقيّة) و(توحيد الربوبيّة) وأوضح القرآن ذلك بأمثالٍ حسّيّة وعينيّة، وفي هذه الآية نقرأ عن (توحيد المالكيّة).

وضرورة هذا البحث باعتبار أنّ الحديث قد وصل في الآية السابقة إلى مسألة المعاد والرجوع إلى اللّه سبحانه وتعالى. ولأنّ إعادة الموتى الذين صارت أجسادهم تراباً أمرٌ عجيب من وجهة نظر

(١) المعجم الأوسط، للطبراني، ج٢، ص٢٢٤.

المشركين، حتّى أنّهم اعتبروها ضرباً من الخيال - كما نقرأ في آيات أخرى - فإنَّ اللَّه جلّ جلاله ولإثبات قدرته وجبروته أكد هنا مالكيّته لجميع المخلوقات وإطاعة الكل له.

والمقصود بالمالكيّة والإطاعة هنا، المالكيّة والإطاعة التكوينيّة. أي أنّ نظام الخليقة وما فيه بيد اللَّه، وأنّ جميع الأشياء مسلّمة - شاءت أم أبت - للقوانين التكوينيّة التي قدّرها الخالق العظيم وكتبها على صفحة الوجود. وفي الواقع، يجب أن نقول بأنّه سبحانه هكذا خلق؛ وهكذا صار شأن المخلوق.. فحيثما أراد اللَّه كان على أعتى الخلق التسليم لقوانين اللَّه التكوينيّة.

ودليل هذه (المالكيّة) هو الخالقيّة والربوبيّة.. فالذي خلق الموجودات وجعل تدبير أمورها بيده، لا ريب في كونه المالك الأصلي لها؛ وليس غيره.. والموجودات جميعاً إزاء هذه الحقيقة القاطعة على حدٍّ سواء، وعليه؛ فلا شريك له في أمر مالكيّته أبداً، بما في ذلك آلهة المشركين المزيّفة، إذ هي خاضعة مملوكة لأمره جلّ جلاله.

إذن؛ فعبارة:

١ - ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

إشارة إلى إحاطة ملك اللَّه الحقيقي، وهو المتصرّف المطلق في ملكه كما يريد. وهذه المالكيّة الحقيقيّة تجيز له سبحانه التصرّف التامّ فيما يملك كيف يشاء.

معنى القنوت

أكّد اللَّه تعالى درس المعرفة هذا بقوله سبحانه:

٢- ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾

ومعنى القنوت: الطاعة الدائمة مع الخضوع الدائم.

وعن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «**كلُّ قُنوتٍ في القرآنِ فهو طاعةٌ**»(١) وقد تكون الطاعة تكوينيّة، وقد تكون تشريعيّة.

المسألة المهمة التي ينبغي تكرارها وتأكيدها؛ هي أنّ الطاعة المصحوبة بالخضوع والتسليم المطلق في هذه الآية ليس المراد بها الطاعة في الأحكام والقوانين الشرعية، إذ الأوامر الشرعيّة قد لا تنفّذ ولا تُطاع في كثير من الاحيان، ولا تدخل فى إطار ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ فيكون المراد: الطاعة التكوينيّة دون الشرعيّة، وسياق الآية ولحنها يشهدان على هذا المعنى.

وهذا المعنى جاء في الآية ١١ من سورة فُصِّلت: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ وكان جواب السماء والأرض بالشكل التالي: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(٢).

والمسألة كما هو واضح متعلّقة بمقام التكوين، وقوله الآمر: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أمر تكويني، وكانت الإجابة تكوينيّة أيضاً. وهذا هو معنى القنوت هنا.

وفي مجال التكوين فإنّ هذا القنوت والإطاعة في واقعهما هو نفسه مشيئة اللّه تعالى وأمره: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٣).

---

(١) المعجم الأوسط، للطبراني، ج٢، ص٢٢٤.

(٢) سورة فصلت، الآية:١١.

(٣) سورة يس، آية٨٢.

القضيّة الأخرى تكمن في عبارة: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾. فـ(مَن) تُستعمل للعاقل والموجود ذي الإرادة. وهذه الموجودات العاقلة - بعد عالم الدنيا التي هي دار اختيار - كلهم مطيعون للَّه تعالى كسائر المخلوقات. فالجنّ والإنس المختارون في الدنيا تنقضي فترة اختيارهم بعد الإنتقال من دار الدنيا، ولا بد لهم من الانضواء تحت يافطة (قانتون). وكلمة (كلٌّ) تعني أنّ جميع ذوي العقول من الجن والإنس والملك مطيعون وقانتون.

والنظرة الأخرى للآية هي أنّه علاوة على الإطاعة التكوينيّة بعد دار الدنيا، فإنَّ مَنْ في هذه الدنيا - غير الملائكة الذين لا يصدر عنهم غير الطاعة والخضوع العملي المستمر - وهم الجنّ والإنس، ينقادون ويطيعون الأسباب والعلل التكوينية، فمع إصرار الكثير منهم على إسقاط تأثير هذه العلل والأسباب التكوينية والتهرب منها فإنهم يجدون أنفسهم من جهة ثانية يتوسّلون بعلّة تكوينية أخرى، فهم يريدون التغلّب بعلم وإرادة على هذا التكوين، بينما هذا العلم والإرادة هما جزء من تكوين العالم، ولو أنّ اللَّه لم يكن - في دار الدنيا - قد اعتبر العلم والإرادة في نظام العالم، ما كان لهما أيّ تأثير، ولما وقعت حادثة أو نشاط علمي وإرادي من قبل الإنس والجن.

إذن؛ فالجميع وعلى الدوام مطيعون للتكوين الإلهي. وأنّ المؤثّر الوحيد - في إطار التكوين - هو اللَّه لا شريك له، ولا يكون إلاّ ما يشاء.. ولا يريد الجنّ والإنس شيئاً إلاّ ضمن ما أذن اللَّه الحقّ وأراد.

بصائر وسنن

١ - إنّ نظام الخليقة وما فيه بيد اللَّه، وإنّ جميع الأشياء مسلِّمة - شاءت أم أبت - للقوانين التكوينيّة التي قدّرها الخالق العظيم وكتبها على صفحة الوجود.

٢ - الجميع وعلى الدوام مطيعون للتكوين الإلهي، وإنّ المؤثّر الوحيد - في إطار التكوين - هو اللَّه لا شريك له، ولا يكون إلّا ما يشاء.

يبدأ الخلق ثم يعيده

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾.

من الحديث

قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيّته لابنه الحسن عليه السلام: «... **وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّه عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ وَالِابْتِلَاءِ وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَاد...**»(١).

وقال الامام زين العابدين عليه السلام: «**عَجَبٌ كُلُّ الْعَجَبِ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرى مَنْ يَمُوتُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الْأُخْرى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الْأُولى**»(٢).

(١) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، قسم الكتب والوصايا، رقم٣١، ص٣٩٥.
(٢) الكافي، ج٣، ص٢٥٨، ح٢٨.

تفصيل القول

هـذه الآية مكمّلة للآيتيـن (٢٥ و٢٦) وفيها الاسـتدلال على قـدرة اللَّه المتعال علـى المعاد وإعادة الأمـوات الذين صاروا رميماً وإحضارهم إلى ساحة المحشر:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

فالآية تستدلّ على إثبات إمكانيّة المعاد بأوجز العبارة، وتشير إلـى أنّ اللَّه الذي كانت بداية الخلقة مـن عنده، فلماذا لا يكون قادراً على إعادته مجدّداً، وهو أهون عليه؟!

هل المعاد ممكن؟

إعتبـرت الآية الكريمـة قضيّة المعاد والإعـادة أهون على اللَّه تعالـى من قضيّة البدء بالخليقـة، إذ أنّ عملية البدء بالخليقة وإبداعها كانـت مـن العـدم، فيمـا الإعادة سـتكون معتمـدة على توفّـر المواد الأصليّة في ثنايا التراب أو في الفضاء، فالمعاد سـيكون أشـبه شـيء بجمع المتناثر ومنحه التلاحم والصورة الجديدة.

والجديـر بالذكـر أنَّ الآية الكريمة تحاكـي الأصول والقواعد البشـرية المتعارفـة، فـإنَّ الحديـث عن الهيّـن والأهـون أو الصعب والأصعب إنّما يكون في مسـاحات القـدرة المحدودة، وحين يكون في مساحات القدرة اللّا محدودة واللّا متناهيّة للباري عز وجل، فلا يمكن أن يكون له معنىً أبداً.

وبعبـارة أخرى؛ فإنّ إزالة أو تحريك أعظم الجبال في الأرض ليـس بأصعب مـن تحريك ذرّة من الذرّات بالنسـبة إلـى اللَّه الخالق

القدير، فيكون التعبير بالأهون هنا هو محاكاة أذهاننا نحن البشر المطالَبين بتسبيح هذا الخالق القادر على كلّ شيء وتنزيهه عن كل نقص وتشبيه.

وربما لهذا السبب يقول القرآن الكريم مباشرة:

١ - ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

فكلّ وصف بالكمال في السماوات والأرض يمكن تصوّره لأيّ موجود، كالعلم والقدرة والعظمة، فإنّ مصداقه الأتمّ والأكمل خاصّ باللَّه المتعال. ذلك لأنّ كلّ مخلوق محدود، فيكون وصفه محدوداً أيضاً. بيد أنّ الربّ الخالق غير محدود، فوصفه غير محدود أيضاً، هذا فضلاً عن أنّ أوصافه سبحانه وتعالى ذاتيّة؛ دون خلقه القائم وجودهم ووصفهم العرضي على الاكتساب منه سبحانه، فهو المصدر الأساس لجميع الكمالات.

روي عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه قال: «**وَلِلَّـهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى الَّذِي لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ، ولَا يُوصَفُ، ولَا يُتَوَهَّمُ، فَذَلِكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى**»[1].

إذن؛ فإنّ ضرب مثال على ذلك - وقد أورد اللَّه تعالى الكثير من الأمثال في القرآن - فإنّما هو للتيسير على أفهام عباده، بل إنّ الألفاظ التي وُضِعت للتعبير عن الأمور اليومية - فيما بيننا نحن الناس - عاجزة عن بلوغ حقيقة أوصاف اللَّه تعالى، ومن ذلك كلمة (أهون) المناسبة تماماً لعالَم المادة.

إنّ عبارة ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ في الحقيقة حجّة وبرهان على كون إعادة الخلق إلى القيامة أمراً هيّناً على اللَّه: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ

(١) التوحيد [للصدوق]، ص٣٢٤.

عَلَيۡهِۚ﴾، بدليـل أنّ ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾. أي أنّ كلّ صفةٍ كمالٍ يمكن أن يتصّـف بها كلّ موجود في السـماوات والأرض، كالعلم والقدرة والحيـاة، هي في الحقيقة لا تمثّل شـيئاً مقارنةً بما عند اللّه سـبحانه، إذ لـه المطلق من هـذه الصفة. والمخلـوق مهما تعاظم شـأنه، يبقى محـدوداً متناهيـاً في الصغر، ولكـنّ اللّه هو المطلـق، وكلّ صفة فيه مطلقة لا متناهية.

والمعاد الذي يراه البشر أسهل وأهون هو عند اللّه سهل محض لا مشـقّة فيه أبداً، ذلك لأنّ المشـقّة متعلّقة بالفعل؛ والفعل عائد إلى قدرة الفاعل، وكلّما تضاءلت القدرة زادت المشقّة، وكلّما تعاظمت القـدرة قلّت المشـقّة حتّـى يصل الأمر إلـى القدرة الّـلا متناهية؛ فلا تُتصوّر المشـقّة آنذاك. وقدرة اللّه تعالى لا متناهية، فالمشقة لا معنى لها في فعله، ولذلك قال سبحانه في آيات كثيرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

فالإعـادة عنـد اللّه هـي الأهون علـى الإطلاق، وإنشـاؤه هو الأيسر على الإطلاق، وكلّ كماله هو الأكمل على الإطلاق.

وفي النهاية؛ يقول سبحانه على سبيل التأكيد أو الاستدلال:

٢- ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

فهو عزيز لا يُهزم، وكذلك أفعاله صادرة عن حكمة، ولا يشبه فعله أفعال القادرين من البشـر، لأنّ القدرة لدى البشـر قد تتسبب في فسادهم وإفساد الأرض، أمّا فعل اللّه فهو مقرون بالحكمة.

وينبغـي فهـم ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ علـى أسـاس قولـه سـبحانه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾. فعزّتـه مطلقـة، بـل إنّه المثـل الأعلى

للعـزّة، وحكمتـه مطلقة؛ باعتبـار أنّ لـه المثل الأعلى فـي الحكمة. ولا تشـبه عزّته وقدرته عزّة وقدرة بعض الجبّارين المبنيّة على قاعدة التعصّـب والحميّة أو الغرور والعناد، إذ تنتهي هذه العزة إلى الذنب، يقـول تعالـى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[1]. إنّمـا عـزّة اللّـه منزّهـة عـن العيـب والنقـص، بمعنى أنّها الكمال المطلق، كما قال سـبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[2]. وكذلك هي حكمته فإنّها مطلقة ولا متناهية. والجمع بيـن هذه العزّة والحكمة يكشـف عـن التدبير الفائـق القدرة الذي لا نظيـر له بالمـرّة، وكلّ جـزء منه يدفع إلـى المزيد من معرفـة الخالق المتعال.

بصائر وسنن

١ - إعادة الحياة إلى الإنسان - بعد موته - أهون على اللّه من البدء في خلق الخليقة من العدم، لأنّ موت إبن آدم ليس سوقاً له إلى العدم.

٢ـ مفهـوم (الأهون) في أصل الخلقة ثم إعادة الحياة إليها، لا يجد لحقيقته واقعاً في قاموس قدرة اللّه تعالى، إذ بدء خلق الأشـياء كلها وإعادته سواء بالنسـبة إلى القدرة الإلهيّة، وإنّما ساق اللّه تعالى هذا التعبير لمحاكاة الذهن البشري وتنزّلاً إلى طبيعة فهمه.

(١) سورة البقرة، آية:٢٠٦.
(٢) سورة النساء، آية ١٣٩.

كذلك نفصِّل الآيات

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

من الحديث

عن سعيد بن المسيب قال: كان علي بن الحسين عليهما السلام يعظ الناس ويزهِّدهم في الدنيا ويرغِّبهم في أعمال الآخرة بهذا الكلام في كل جمعة في مسجد رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، وحُفِظ عنه وكُتِب، كان يقول:

«**أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّه واعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُرْجَعُون** -إلى أن قال-: **اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّه! أَنَّ أَهْلَ الشِّـرْكِ لَا يُنْصَبُ لَهُمُ الْمَوَازِينُ ولَا يُنْشَـرُ لَهُمُ الدَّوَاوِينُ، وإِنَّمَا يُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً، وإِنَّمَا نَصْبُ الْمَوَازِينِ ونَشْـرُ الدَّوَاوِينِ لِأَهْلِ الإِسْـلَامِ. فَاتَّقُوا اللَّه عِبَادَ اللَّه! واعْلَمُوا أَنَّ اللَّه**

عَزَّ وجَلَّ لَمْ يُحِبَّ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وعَاجِلَهَا لِأَحَدٍ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، ولَمْ يُرَغِّبْهُمْ فِيهَا وفِي عَاجِلِ زَهْرَتِهَا وظَاهِرِ بَهْجَتِهَا، وإِنَّمَا خَلَقَ الدُّنْيَا وخَلَقَ أَهْلَهَا لِيَبْلُوَهُمْ فِيهَا أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا لِآخِرَتِهِ، وايْمُ اللَّه لَقَدْ ضَرَبَ لَكُمْ فِيهِ الْأَمْثَالَ، وصَرَّفَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»[١].

تفصيل القول

تتواصل دلائل التوحيد في هذه الآية أيضاً، فقد استدلّ سبحانه وتعالى فيها على بطلان الشرك واتخاذ الشريك له، وذلك عبر مثالٍ بسيط وقابلٍ للفهم:

١- ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

بالرجوع إلى أصل القصّة وسبب نزول هذه الآية؛ يتَّضِح المعنى بصورة أفضل. فقد جاء في تفسير القمي:

وأما قوله: «﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فَإِنَّهُ كَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا أَنَّ قُرَيْشاً والْعَرَبَ كَانُوا إِذَا حَجُّوا يُلَبُّونَ، وكَانَتْ تَلْبِيَتُهُمْ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ والنِّعْمَةَ لَكَ والْمُلْكَ لَكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ» وهِيَ تَلْبِيَةُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام والْأَنْبِيَاءِ، فَجَاءَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ،

فَقَالَ: لَيْسَتْ هَذِهِ تَلْبِيَةَ أَسْلَافِكُمْ،

قَالُوا: ومَا كَانَتْ تَلْبِيَتُهُمْ؟

فَقَالَ: كَانُوا يَقُولُونَ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ،

(١) الكافي، ج٨، ص ٧٢- ٧٥.

إِلَّا شَرِيكٌ هُوَ لَكَ».

فَنَفَـرَتْ قُرَيْشٌ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ. فَقَالَ لَهُمْ إِبْلِيسُ: عَلَى رَسْـلِكُمْ حَتَّى آتِيَ عَلَى آخِرِ كَلَامِي،

فَقَالُوا: مَا هُوَ؟

فَقَـالَ: «إِلَّا شَـرِيكٌ هُوَ لَكَ، تَمْلِكُـهُ وَمَا يَمْلِـكُ». أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ يَمْلِكُ الشَّـرِيكَ وَمَا مَلَكَـهُ؟ فَرَضُوا بِذَلِكَ، وَكَانُوا يُلَبُّـونَ بِهَذَا قُرَيْشٌ خَاصَّةً.

فَلَمَّـا بَعَـثَ اللَّه رَسُـولَهُ فَأَنْكَرَ ذَلِـكَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ: هَذَا شِـرْكٌ، فَأَنْـزَلَ اللَّـه: «ضَـرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِـنْ أَنْفُسِـكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مـا مَلَكَتْ أَيْمانُكُـمْ مِنْ شُـرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَـواءٌ» أَيْ تَرْضَوْنَ أَنْتُمْ فِيمَا تَمْلِكُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ فِيهِ شَـرِيكٌ؟ فَإِذَا لَمْ تَرْضَوْا أَنْتُمْ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ فِيمَا تَمْلِكُونَهُ شَـرِيكٌ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ أَنْ تَجْعَلُوا لِي شَـرِيكاً فِيمَا أَمْلِك[1]؟

فكان المقصود الشـيطاني هو جعل شـريك للّه في دين قريش بأيّ شـكل من الأشـكال. وهكـذا وقعت قريش والعـرب في مكيدة الشـيطان وبدّلت شـعارها التوحيـدي، ومن هنا زرع الشـيطان بذور الشرك في أتباع الدين الإبراهيمي الحنيف.

بالتدبُّر في هذه الآية؛ يتَّضح لنا استدلال اللّه سبحانه.

فحـرف (من) في ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾ يفيـد ابتداء الغاية، بمعنى أنّ اللّه تعالى قد ضرب لكم مثلاً بسـيطاً وقابلاً للفهم لِمَن كان له عقل، وهذا المثال مأخوذ من أنفسكم وعُرفكم ومعيشتكم. وبدأ هذا المثل

(١) تفسير القمي، ج٢، ص١٥٤.

بقوله: ﴿هَل لَّكُم﴾ وهو سؤال إستنكاري، أي: أنكم إذا سُئلتم عن هذا الأمر سيكون جوابكم بالنفي.

و(ما) في ﴿مَّا مَلَكَتۡ﴾ إشارة أيضاً إلى النوع، ويشمل كلّ أنواع المملوك، ومنهم العبيد أيضاً.

في هذا المَثَل يسأل اللّه تعالى المشركين بهيئة إستنكاريّة لإبطال عقيدتهم الفاسدة: تُرى هل يوجد بين مملوكيكم وغلمانكم وخدمكم شريك فيما رزقكم اللّه؟ وهل يمكنكم تصوّر خادمٍ أو عبدٍ لكم يكون شريكاً لكم في أموالكم فتخافون التصّرف فيما تملكون من غير إذنٍ منكم؟! وهل لكم أن تتصوّروا أن يتصرّف الأحرار من أمثالكم بأموالكم ويكونوا شركاء لكم؟ هل يعقل هذا أصلاً؟!

واضح أنّ الجواب بالنفي، إذ لا يمكن تصوّر ذلك أبداً، ولا يمكن لمملوك أن يكون شريكاً لمالكه فيتصرّف في أمواله. فإذا كان هذا الأمر غير جائز لكم، فكيف يجوز أن يكون بعض مخلوقات اللّه تعالى، كالجنّ أو الملائكة - الذين هم عبيد اللّه ومملوكوه - شركاء له في ملكه وربوبيّته، أو يكونوا أرباباً وآلهة منفصلين مستقلّين من دونه سبحانه وتعالى؟

فإنْ كان شريك اللّه إلهاً وربّاً، فإنَّ هذا يعني أنه قادر على التصرّف في الوجود من دون إذنه عزّ وجلّ، بينما أنتم لا تقبلون لعبيدكم أبداً أن تكون لهم الصلاحية والقدرة على التصرّف من دون إذنكم في أموالكم كما يتصرف شريكان متساويان في الملكية في الأموال المشتركة؟

إنّ اللّه سبحانه يتساءل من المشركين: إنكم حين تعدّون تصوّر - مجرّد تصور - مثل هذا الأمر في عبيدكم الذين تملكونهم

ملكاً إعتبارياً أو مجازياً؛ أمراً خطأً، فكيف تسمحون لأنفسكم بتصوّر عبيد اللَّه الذين يملكهم ملكاً حقيقياً صِرفاً؛ شركاء له عزّ اسمه؟ وكيف يمكن لأنبياء اللَّه تعالى كالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أو الملائكة أو الجنّ أو الأصنام الحجريّة والخشبيّة أن يكونوا شركاء للَّه في ربوبيّته والوهيّته؟!

إنّ عبارة ﴿مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ في الآية إشارة إلى أنكم لا تملكون حقيقةً لا عبيدكم ولا أموالكم، لأنّ كلّ شيء في الأصل عائد إلى اللَّه، ومع ذلك؛ تراكم لا تجيزون التصرّف بأموالكم المجازيّة لعبيدكم المجازيّين ولا تعتبرونهم شركاء لكم فيها، والحال أنّ الأمر غير محال تكوينياً، لأنّ الحديث يدور في الاعتباريات، إلاّ أنّ الفرق بين اللَّه تعالى ومخلوقاته فرق تكوينيّ وغير قابل للتغيير، ومن المحال اعتبار هذه المخلوقات شركاء له عزّ وجلّ.

ومن ناحية أخرى؛ نجد المملوكين المجازيّين قد يتحرّرون ذات لحظة، فيكونون في مصافّكم، كما قد يتوجّب عليكم في حالات كثيرة عتقهم وتحريرهم، أو يكون هذا التحرير أمراً واقعاً رغماً عنكم، ومع ذلك فإنّكم تستنكفون أن يكونوا أقراناً لكم ذات يوم، فلا تسمحون لهم بالدخول إلى دائرة نفوذكم ومالكيتكم، فكيف يصح تصوّر المملوكين الحقيقيّين المتعلّق كلّ وجودهم باللَّه سبحانه تعالى، والذين يستحيل نفي وسلب تعلّقهم هذا في لحظة من اللحظات، والذين هم وما يملكون راجعون إليه عزّ وجلّ، كيف يصحّ لكم أن تعتبروهم شركاء له سبحانه؟!

إنّ الإجابة على هذه الأسئلة حاضرة واضحة لدى كلّ عاقل، فالحجّة - إذن - قد تمّت على المشركين، ولا بد لهم من البراءة ممّا

يشركون ويعبدون، والتوبة إلى اللّٰه سبحانه وتعالى.

وبهذا الاستدلال يكون بديهياً أنّ نعدَّ مذهب المشركين فيما يتعلّق بالخالق المتعال مذهباً قبيحاً وبعيداً عن المنطق.

وما يجدر بالذكر هو أنّ شأن نزول هذه الآية الكريمة - كما هو شأن نزول الآيات الأخرى - لا يحدّد أو يخصّص معنى الآية في نطاق شأن النزول، بل الآية الكريمة تُتِمُّ الحجة على جميع المشركين عبر التاريخ.

ثمّ يأتي التأكيد على أنّ هذه الآيات بتفصيلها يهدف اللّٰه منها تحريك عقول الناس وطرد الغفلة عنهم:

٢- ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾

أي: ينبغي لكم أن تعقلوا الآيات، ولو من خلال ذكر الأمثلة الواضحة المستقاة من صميم حياتكم. فاللّٰه تعالى يُنطق الحقائق لتكون عاملاً مهماً في تحريك الأذهان، وتصحيح مسار التصوّرات، وتهذيب العقائد والآراء، لينتهي الناس إلى طرد التصوّرات الخاطئة، التي لا يقبلونها لأنفسهم، فضلاً عن اللّٰه الخالق سبحانه.

وقد عمد اللّٰه تعالى إلى الاستفادة من الأمثال لتبليغ الدين وتربية النفوس، فأثار بذلك ضمائرهم ودفعهم إلى تحكيم فطرتهم ووجدانهم على الأقل.

بصائر وسنن

١- لتتّجه الأذهان إلى استيعاب عقيدة التوحيد، نرى اللّٰه

سبحانه وتعالى يُنطق الحقائق من خلال ضرب الأمثال لتكون عاملاً مهمّاً في تحريك الأذهان وتصحيح مسار التصّورات وتهذيب العقائد والآراء.

٢- ضرب الأمثال أسلوب قرآنيّ لتبليغ الدين وتربية النفوس.

٣- إنّ اللَّه سبحانه وتعالى يثير الضمائر ويدفع بأصحابها إلى تحكيم الفطرة والوجدان.

الشرك واتباع الأهواء بغير علم

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾.

من الحديث

قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له، وفيها يعظ الناس:

«انْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللَّه، واتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّه، واقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّه، فَإِنَّ اللَّه قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، و[أَخَذَ] اتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وبَيَّنَ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنَ الأَعْمَالِ ومَكَارِهَهُ مِنْهَا لِتَتَّبِعُوا هَذِه وتَجْتَنِبُوا هَذِه، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم كَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِه وإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ. واعْلَمُوا أَنَّه مَا مِنْ طَاعَةِ اللَّه شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْه، ومَا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّه شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ، فَرَحِمَ اللَّه امْرَأً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِه، وقَمَعَ هَوَى نَفْسِه، فَإِنَّ هَذِه النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً، وإِنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ فِي هَوًى»[1].

(١) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، خطبة ١٧٦، ص٢٥١.

تفصيل القول

في الآية السابقة، وعبر مثال مستقىً من صميم الحياة، أثبت اللّٰه تعالى للمشركين بطلان ما يذهبون إليه. ولمزيدٍ من التأكيد على ضرورة التعمّق في مضمون المثال المضروب أشار سبحانه وتعالى الى أنّ الآيات التي فصّلها إنّما الهدف منها هو تحريك الأذهان وتعقّل الحقائق وطرد الغفلة عنهم والسير في طريق الإقرار بخطأ ما يذهبون إليه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وممّا سلف؛ كان يبدو أنّ احتمال هداية وعودة المشركين إلى حقائق الربّ العظيم غير بعيد. إلّا أنّ الآية الكريمة التي بين أيدينا تلمّح إلى اليأس من يقظة شريحة من الناس وعودتهم الى النور الساطع من الآيات والحقائق الإلهية:

١ - ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

فالآية بدأت بلفظ (بل) الذي يفيد الإعراض عن مضمون الآية السالفة، ومن هذا الإعراض وبالنظر إلى نهاية الآية السالفة يُستشفّ أنّ المشركين لم يبنوا عقائدهم الباطلة على أساس التعقّل لتؤثّر فيهم تفاصيل الآيات الربّانيّة، وإنّما هم يتّبعون أهواءهم القائمة على غير العلم والتفكير الرصين، واللّٰه تعالى حيث ضرب لهم الأمثال وتحدّث إليهم إنّما ليتمّ الحجة عليهم ولئلّا يقولوا له: لِمَ لمْ تبيّن لنا أو لم تبعث لنا رسولاً!

وما يجدر التدبّر فيه هو أنّه سبحانه لم يقل - في معرض تنديده بالضالّين المضلّين -: بل المشركون اتبعوا أهواءهم، وإنّما قال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾، إذ الشرك أساساً ظلم عظيم. ومن جهة أخرى فإنّ عبارة ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ توضّح القسم الثاني

من الآية؛ حيث قال: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾. فلأنّهم ظلموا أنفسهم بشركهم وبعقائدهم غير المعقولة؛ فقد حُرموا من الهداية.

وهذه النقطة تؤسِّس لقاعدة هامة؛ هي: أنّ الظلم يستوجب الإضلال الإلهي، كما قال سبحانه في الآية ٢٧ من سورة إبراهيم: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فالشرك - إذن - ظلمٌ، وهذا الظلم يستوجب الحرمان من الهداية.

مَن هو الظالم؟

بعد هذه النظرة العامة إلى الآية، لنتدبَّر في جزئيّاتها، فنقول:

من هو الظالم؟ ولماذا وكيف يتّبع الظالم هواه؟ وما معنى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾؟ وماذا تعني كلمة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؟ ولماذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾؟ ولماذا قال بعد ذلك: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؟

لقد كان المشركون في العصر النبوي يدّعون الدين والتديّن، ويعتبرون أنفسهم أتباعاً للنبيّ إبراهيم عليه السلام، ولكن اللّه سبحانه يؤكّد على حقيقة مغايرة لما يذهبون، فيقول:

٢ - ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾

أي: إنّ الدّين الذي يدّعونه ليس ديناً، وإنّما هو مجموعة أفكار ابتدعوها من عند أنفسهم، إذ لفّقوا شيئاً من الحقيقة مع أهواء نفسيّة باطلة حاكوها من قبل، وصنعوا لأنفسهم صنماً سمّوه فيما بعد ديناً.

قال الإمام الحسين عليه السلام: «**النَّاسُ عَبِيدُ الدُّنْيَا وَالدِّينُ لَعِقٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ مَعَايِشُهُمْ، فَإِذَا مُحِّصُوا بِالْبَلَاءِ قَلَّ**

الدَّيَّانُون»[١].

إنّ فـي هـذا القـول العظيم حقيقـة لتكريـس البصيـرة النافذة وإيجاد الوعي. فإذا عمد أحدهم إلى الأخذ بيدك ثم علمتَ أنّه يسـير فـي طريق صعـب، فعليك أن تتأكّد بأنّه يريـد الارتقاء بك إلى القمة، أمّا إذا رأيته طريقاً بسـيطاً، فاعلم بأنّه يريد بك الإنحدار والنزول إلى الحضيض.

فمن صوّر لك الدين في إطار الكلام فقط وسـهّل عليك أمره، فعليـك أن تتأكدّ أنـه يعمل على إضلالك. وأمّـا إن أمعن في تحذيره لك، وأشار عليك بالجدّ في تديّنك، وأنّ التمسّك بالدين أمر صعب، فاعلم بأنه خير دليل لهدايتك.

قال اللَّه تعالى لرسوله الكريم: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[٢].

والثقـل فـي المادّيات قوّة وفـي المعنويّات صعوبـة، والقرآن الكريم من نـوع المعنويّات، وهو ثقيل في عالم المعنويّات. إنّه ثقيل من حيث المعنى والمفهوم، لأنّه كلام الربّ العزيز، تلقّاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مـن صاحب العظمة والكبرياء، ومعلوم أنّ مثـل هذا الكلام لا يتلقّاه ولا يعيـه إلاّ مـن كان ذا روح ونفـس مطهّرة مـن كلّ دنس ورجس.. نفس غير متعلّقة إلّا باللَّه مسبّب الأسباب عزّ اسمه.

والقـرآن كلام إلهـيّ وكتـاب عزيـز؛ لـه ظاهر وباطـن وتنزيل وتأويل، وهو تبيان لكلّ شـيء، وثقله يتكشّـف من حال رسـول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم ووضعـه الغريـب حين نزول آيـات الوحي عليـه، إذ كان يُرى

(١) بحار الأنوار، ج٤٤، ص٣٨٣.
(٢) سورة المزمل، آية ٥.

الانقلاب عليه واضحاً جلياً[١].

إنّ معارف القرآن الكريم في مقام تكريس التوحيد ومفاهيم العقائد والأخلاق، كانت على قدر عظيم من الثقل بحيث قال عز وجل: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

وقال في آية أخرى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾[٣].

وبغض النظر عن هذين الاعتبارين، فإنَّ إبلاغ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن، ودعوة الناس إلى قبول الدين الحنيف، كان لهما الثقل الكبير أيضاً، ولذلك نجده صلى الله عليه وآله وسلم قد تحمّل أنواع المصاعب وشتى المصائب في هذا السبيل.

إذن؛ فالدين حقيقة رفيعة ثقيلة، فمن أراد التديّن الصادق وإدراك حقيقة الدين، لم يصحّ له حمله على غير محمل الجدّ أو

(١) روي أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم مع كلّ عظمته وقوّته الروحيّة - كانت تصيبه الغشية حين نزول الوحي. عَنْ عُبَيْدِ بْنِ زُرَارَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: جُعِلْتُ فِدَاكَ، الْغَشْيَةُ الَّتِي كَانَتْ تُصِيبُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ: «ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَحَدٌ، ذَاكَ إِذَا تَجَلَّى اللَّهُ لَهُ» ثُمَّ قَالَ: «تِلْكَ النُّبُوَّةُ يَا زُرَارَةُ وَأَقْبَلَ يَتَخَشَّعُ». [بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٥٦]. وفي حديث آخر عن الامام الصادق عليه السلام يتحدث فيه عن ثقل الوحي، حيث يقول: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم إِذَا أَتَاهُ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ وبَيْنَهُمَا جَبْرَئِيلُ عليه السلام يَقُولُ: هُوَ ذَا جَبْرَئِيلُ، وقَالَ لِي جَبْرَئِيلُ. وإِذَا أَتَاهُ الْوَحْيُ ولَيْسَ بَيْنَهُمَا جَبْرَئِيلُ تُصِيبُهُ تِلْكَ السَّبْتَةُ ويَغْشَاهُ مِنْهُ مَا يَغْشَاهُ لِثِقَلِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَل». [بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٧١].

(٢) سورة الحشر، آية ٢١.

(٣) سورة الرعد، آية ٣١.

اتّباع البدعة فيه، إذ هذه النظرة إلى الدين نظرة خاطئة ومنحرفة.

عبادة الهوى والظلم

فالظلم - هنا - يعني ستر الحق وعدم العمل به، فكلّ من يرفض الانصياع للحق ولا يستسلم له؛ ظالم، فهو يظلم نفسه ومجتمعه.

ففي مجتمع يحترم القانون، إذا كان هناك من يرفض العمل والالتزام بالقوانين، فإنه يُعدّ متمرداً على القانون، ظالماً. فمن لا يلتزم بقوانين المرور - مثلاً - يضرّ نفسه ويتسبب للآخرين بالضرر والفوضى.

وحينما يتمرّد الرجل أو المرأة على قوانين الزوجيّة، والأخ على أخيه، والجار على جاره في قوانين الأخوّة والجيرة، يتفشى الظلم ويعمّ الجميع، الظلم للحق والقانون، ثمّ الظلم للخلق. ونتيجةً لهذا الظلم يُصاب الاثنان بالدمار في نهاية المطاف.

وحسب النظرة القرآنية؛ فإنّ الظالمين هم المتمرّدون على الدين والمتجاوزون على القانون، فهم رغم ادعائهم بأنّهم اتباع دين إلاّ أنهم كاذبون، فهم أتباع أهواء أنفسهم، وليس غير القبح من نتيجة لاتِّباع الهوى، فيما المخالفة لهوى النفس تعقبها ثمرات ونتائج طيبة.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**احْذَرُوا أَهْوَاءَكُمْ كَمَا تَحْذَرُونَ أَعْدَاءَكُمْ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْدَى لِلرِّجَالِ مِنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَحَصَائِدِ أَلْسِنَتِهِم**»(١).

وروى الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنّه قال:

(١) الكافي، ج٢، ص٣٣٥.

«**يَقُولُ اللَّه عَزَّ وجَلَّ:**

وعِزَّتِي وجَلَالِي وعَظَمَتِي وكِبْرِيَائِي ونُورِي وعُلُوِّي وارْتِفَاعِ مَكَانِي، لَا يُؤْثِرُ عَبْدٌ هَوَاهُ عَلَى هَوَايَ إِلَّا شَتَّتُّ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، ولَبَّسْتُ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ، وشَغَلْتُ قَلْبَهُ بِهَا، ولَمْ أُؤْتِهِ مِنْهَا إِلَّا مَا قَدَّرْتُ لَهُ.

وعِزَّتِي وجَلَالِي وعَظَمَتِي ونُورِي وعُلُوِّي وارْتِفَاعِ مَكَانِي، لَا يُؤْثِرُ عَبْدٌ هَوَايَ عَلَى هَوَاهُ إِلَّا اسْتَحْفَظْتُهُ مَلَائِكَتِي، وكَفَّلْتُ السَّمَاوَاتِ والْأَرَضِينَ رِزْقَهُ، وكُنْتُ لَهُ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَةِ كُلِّ تَاجِرٍ، وأَتَتْهُ الدُّنْيَا وهِيَ رَاغِمَةٌ»[١].

صنم الهوى

إنّ من أطاع هوى نفسه؛ جعل منه صنماً يعبده: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٢].

ومثل هكذا شخص يضلّه اللَّه تعالى لعلمه بعدم جدارته بالهداية، فيكله سادراً في وادي الضلال والضياع ويحرمه من رعايته وحمايته.

ما أعظم خطر صنمِ عبادةِ الهوى الذي يغلق دون صاحبه كلّ طرق الرحمة وأبواب النجاة! قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما عُبِدَ تَحْتَ السَّماءِ إلهٌ أَبْغَض إلى اللَّه مِن الهَوى**»[٣].

إذن؛ فإنّ أخطر الأصنام؛ صنم هوى النفس، وإنّ عبادة الأهواء

(١) الكافي، ج٢، ص٣٣٥.
(٢) سورة الجاثية، آية ٢٣.
(٣) تفسير القرطبي، ج١٦، ص١٦٧.

واتّباعها بمثابة قاعدة للشيطان في داخل الإنسان، أي نفس الأمر الذي سقط الشيطان لأجله وأخرجه مطروداً من بين صفوف الملائكة.

وهـوى النفس يسـلب ابن آدم أهم وسـيلة للهدايـة والإدراك الصحيح للحقائق، ويسـدل ستارة سميكة على عين الإنسان وعقله، ويسـوقه إلى حيث يجرّئه على مواجهـة الربّ العزيز -والعياذ باللَّه- وهذه الصفة القبيحة على قدر من الخطر والشؤم بحيث يلحق لحظةً واحـدةً منه عمرٌ طويلٌ مـن الندم، وتدمّر عمر الإنسـان برمّته. ولهذا ورد التأكيـد فـي الآيـات والروايات علـى خطره الشـديد. وجاء في الحديث النبويّ الشريف:

«إِنَّ أَخْـوَفَ مَـا أَخَـافُ عَلَـى أُمَّتِيَ: الْهَـوَى وطُولُ الأَمَـلِ. أَمَّا الْهَوَى فَإِنَّهُ يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وأَمَّا طُولُ الأَمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ»[1].

وفي المقابل، إذا ما تغلّب المرء على هواه ومال إلى إرادة اللَّه عزّ وجل؛ أخذ اللَّه بيده إلى الهدى والخير.

إنّ اتّبـاع الهوى يضع ابن آدم في الجبهة المضادة للَّه سـبحانه وتعالـى، فقـد حُكي أنَّ أبا جهـل طاف بالبيت ذات ليلـة ومعه الوليد ابن المغيرة، فتحدثا في شـأن النبي ﷺ، فقال أبو جهل: واللَّه إني لأعلـم أنـه لصادق! فقال لـه: مه! وما دلَّـك على ذلك!؟ قـال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلمّا تم عقله وكمل رشـده، نسـميه الكذّاب الخائن!! واللَّه إني لأعلـم أنه لصادق! قال: فمـا يمنعـك أن تصدِّقـه وتؤمن به؟ قـال: تتحدث عنـي بنات قريش أنـي قد اتبعـتُ يتيم أبي طالب من أجل كسـرة، والـلات والعزى إنْ اتبعتـه أبدا. فنزلـت الآيـة: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ

(١) الخصال، ج١، ص٥١.

وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1] [2].

الجهل وعبادة الهوى

تواصل الآية الكريمة تحليلها لسيرة الظالمين، فتعدّ الجهل أساساً ومنشأً لعبادة الهوى، فتقول:

٣- ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾.

فهي ترسم للإنسان طريقاً لمعرفة نفسه، فهو يستطيع التعرّف إلى نفسه بناءً على هذه الآية؛ وما إذا كان تابعاً لهواه أم لا. فكل عمل ليس قائماً على العلم فإنَّ جذروه ضاربة في اتباع الهوى. ولو كان البشر تابعاً للعلم ما أصبح مشركاً أبداً.

ولعلّ السبب في تأكيد القرآن المجيد على أن نهج المشركين وأضرابهم على مرّ التاريخ غير قائم على العلم: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۖ﴾ هو الكشف للإنسان بأنّ الجهل ظلام، وأنَّ الجاهل غارق في مستنقع الظلمات؛ بل إنّه مظهر للظُلمة والظُلم، وأنّه ما لم يتّضح للمرء حقيقة أي موضوع يواجهه فإنه لا يصح قبوله.

وها هو رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يطالب أمّته ألّا يتقدّموا إلى الشهادة إلّا على ما هو مثل الشمس وضوحاً، وأنّه لا حقّ لهم في إبداء أرائهم إلّا فيما يعلمون، فقال: وقد سئل عن الشهادة: «**هَلْ تَرَى الشَّمْسَ؟ عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ أَوْ دَع**»[3].

(١) سورة الجاثية، آية: ٢٣.
(٢) الجامع لأحكام القران (تفسير القرطبي)، ج١٦، ص١٧٠.
(٣) وسائل الشيعة (ط آل البيت)، ج٢٧، ص٣٤٢، عن: شرائع الاسلام، كتاب الشهادات، في ضوابط الشهادة.

معيار العلم في العقيدة والسلوك

إذن؛ فإنّ عملنا وحديثنا ينبغي أن يكونا على أساس العلم، وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنَّه قال:

«**أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ فَلا يَسْمَعَنَّ فِيهِ أَقَاوِيلَ الرِّجَالِ. أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي وَتُخْطِئُ السِّهَامُ، وَيُحِيلُ الْكَلَامُ وَبَاطِلُ ذَلِكَ يَبُورُ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ**»، فسُئل عليه السلام عن معنى قوله هذا، فجمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه، ثم قال: «**الْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ، وَالْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْت**»(١).

إنّ النهي عن اتّباع غير العلم ورد أيضاً في الآية ٣٦ من سورة الإسراء، حيث يقول اللّه عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يعني ضرورة الامتناع عن السلوك الشخصي غير القائم على علم، وكذلك الامتناع عن الحكم على الآخرين بغير علم، ناهيك عن بناء المعتقد على غير علم.

وهكذا يبدو أنّ التقليد والاتّباع بغير علم له معانٍ عديدة وأبعاد جمّة، تعمّ المسائل العقائديّة، والكلام، والشهادة، والقضاء، والعمل. وما ذهب إليه بعض المفسرين من التحديد والتأطير ببُعدٍ واحد لا دليل عليه، ذلك لأنّ قاعدة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ تعني: ولا تتّبع، ونعلم أنّ للاتّباع بغير علم مفاهيم ومصاديق كثيرة جداً وتشمل كل ما أشرنا إليه آنفاً.

وعلى هذا، يكون أساس المعرفة في كلّ شيء هو العلم

(١) نهج البلاغة [صبحي الصالح]، الخطبة ١٤١، ص١٩٧.

واليقيـن، فلا يصـحّ البناء والاعتماد على الظـنّ والحدس والتخمين والشك والاحتمال أبداً.

وإنّ مَن يعتقد بشـيء بناءً على هذه الأمور، أو يقضي أو يشهد أو يمارس سلوكاً، إنّما يخالف النصّ الإسلامي الصريح بهذا الشأن.

وبعبارة أخرى؛ لا يمكن أن تكون الشـائعات مقياسـاً للقضاء والشـهادة والسلوك، وكذلك ليس من شـأن القرائن الظنية والأخبار غير الموثَّقة أن تكون الأسـاس والمعيار، وقـد أوصى أمير المؤمنين عليه السلام صاحبه كميلاً رضـوان اللَّه عليه قائلاً: «**يَا كُمَيْلُ، مَا مِنْ حَرَكَةٍ إِلَّا وَأَنْتَ مُحْتَاجٌ فِيهَا إِلَى مَعْرِفَةٍ**»[1].

هـذا هـو قيمة ومنزلـة العلم، فلا بد مـن إيلائـه كلّ الإهتمام، وبنـاء الحيـاة على أساسـه، فـلا يصـحّ الاقتصـار على سـدّ نواقص حياتنـا الماديّـة فقط، وإنّما المفترض أن نلتفت إلـى نواقصنا العلميّة والمعنويّة، فنتعلّم شـيئاً مـن فقه الحياة. ولطالمـا كان أمير المؤمنين عليه السلام يمشـي في الأسـواق ويحـرّض التجـار والباعة والمـارّة على التفقّه في الدين لتقوم حياتهم على أساس العلم، فكان عليه السلام يقول:

«**مَـنِ اتَّجَـرَ بِغَيْرِ عِلْـمٍ ارْتَطَـمَ فِي الرِّبَا ثُـمَّ ارْتَطَـمَ**»، وَكَانَ عليه السلام يَقُولُ: «**لَا يَقْعُدَنَّ فِي السُّوقِ إِلَّا مَنْ يَعْقِلُ الشِّرَاءَ وَالْبَيْعَ**»[2]. وكان يقول: «**يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، الْفِقْهَ ثُمَّ الْمَتْجَرَ، الْفِقْهَ ثُمَّ الْمَتْجَرَ، الْفِقْهَ ثُمَّ الْمَتْجَرَ**»[3].

ومـع كلّ هـذه التعاليم، تجـد معظم الناس يزاولـون أعمالهم ومكاسبهم (بغير علم).

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٦٧.
(٢) الكافي، ج٥، ص١٥٤.
(٣) الكافي، ج٥، ص١٥٠.

أصل الهداية ومعدن العلم

ثـم إنَّ الآية تذكِّرنا بـأنَّ الهوى والعلم ضـدّان، فمن اتَّبع هواه رحـل عنه العلم، ومن خالف هواه اسـتضاء بنور العلـم، والذي يتَّبع هواه بغير علم سوف يضلّه اللَّه:

٤ - ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾

إن اللَّـه يضـل الإنسـان بالتخليـة بينـه وبين أسـباب الضلالة، ويسـلب منه علمـه إن لم يعمل بذلك العلم، وتـرك علمه إلى جهله، واتّبع هواه، ولا يجد إذاً من يهديه غير اللَّه.

ثمّ إنّ مسـار الهداية هو في العلم المسـتقى من القرآن الكريم والرسول الأعظم وأهل البيت صلوات اللَّه عليهم أجمعين.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«**لَيْسَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ حَقٌّ ولَا صَوَابٌ، ولَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يَقْضِي بِقَضَاءٍ حَقٍّ، إِلَّا مَا خَرَجَ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْت**»[١].

وقال عليه السلام لسَـلَمَة بن كهيل والحكم بن عُتيبة: «**شَرِّقَا وغَرِّبَا، فَلَا تَجِدَانِ عِلْماً صَحِيحاً إِلَّا شَيْئاً خَرَجَ مِنْ عِنْدِنَا أَهْلَ الْبَيْت**»[٢].

وفضـلاً عن العلـم الصحيح؛ فـإنَّ طريق الهدايـة منحصرٌ في اتّباع رسول اللَّه وأهل بيته عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

قـال أبـو حمزة الثمالي: سـألتُ أبا جعفر عليه السلام عـن قول اللَّه عـز وجـل: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ

(١) الكافي، ج١، ص٣٩٩، ح١.

(٢) الكافي، ج١، ص٣٩٩، ح٣.

أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] قال: «**عَنَى اللَّه بِهَا مَنِ اتَّخَذَ دِينَهُ رَأْيَهُ مِنْ غَيْرِ إِمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى**»[2].

وقال الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديثٍ آخر وقد سأله أحدهم قائلاً: إنكم أهل بيتٍ رحمة اختصكم اللَّه تبارك وتعالى بها، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**كَذلِكَ نَحْنُ، وَالْحَمْدُ للَّه، لاَنُدْخِلُ أَحَداً فِي ضَلاَلَةٍ، وَلَا نُخْرِجُهُ مِنْ هُدًى**»[3].

إذن، ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ يعني أنّ من لم يسلك طريق القرآن ويهتدي بهدى رسول اللَّه وأهل البيت عليه وعليهم السلام؛ فهو محروم من الهداية، ولن يقدر أحد على إنقاذه من الضلال والردى، ذلك لأنّ اللَّه تعالى يهدي الإنسان بما جعل له من وسيلة، والوسيلة هنا هي القرآن والرسول والإمام لا غير.

وفي خاتمة الآية يشير سبحانه وتعالى إلى أنّ من لم يتّخذ طريق الهداية الربّانيّة منهجاً، ويجعل هوى نفسه معياراً لمعرفة الحقّ والباطل، سيُحرم من النصرة والتوفيق الإلهي، فقال عزّ وجلّ:

٤- ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

وقد اشترط اللَّه سبحانه لنزول نصره شرطاً واضحاً، فقال في موضع قرآني آخر: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[4] فمن اكتفى بأنْ يدعو اللَّه ويطلب نصره دون أن يخطو خطوة في الطريق الذي أشار عليه،

(١) سورة القصص، آية ٥٠.
(٢) بصائر الدرجات، ج١، ص١٣.
(٣) الكافي، ج٨، ص٣٩٦.
(٤) سورة محمد، آية ٧.

إنّما يذهب عبثاً ويتوقّع باطلاً، لأنّه قدّم هواه على إرادة اللّه سبحانه وتعالى، وهذا نوعٌ من الشرك والظلم.

بصائر وسنن

١- الحذر كلّ الحذر من اتّباع الهوى، لأنّه تعطيلٌ للعقل والتفكير الصحيح، وسقوطٌ في الشرك.

٢- الدين ليس مجرّد كلام، إنّما هو واقع يجب تجسيده في وجدان ابن آدم وتفكيره وقناعته.

٣- إنّ عبادة الهوى أكبر قاعدة للشيطان في النفس البشرية، ومنها ينطلق إلى إخراج الإنسان عن جادة العقل والحقّ.

٤- يعرف المرء نفسه من خلال طرد الجهل عنها، لأنّ الشرك والظلم اللّذين يحجبان حقيقة النفس الإنسانية نابعان من الجهل.

فطرة اللّه

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾[1].

---

(١) إليكم توضيحاً لبعض مفردات الآية الكريمة:

- ﴿فَأَقِمۡ﴾: القيام بمعنى الكمال، لأنَّ الإنسان يكون في أفضل حالاته عند القيام، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تعبيراً عن إثيانها بالوجه الكامل.
- ﴿وَجۡهَكَ﴾: الوجه أظهر شيء عند الإنسان، ولذلك يُعبَّر به عن مواقفه وجهة سيره، فيُقال: توجهات فلان أي طريقته وسلوكه.
- ﴿لِلدِّينِ﴾: يعبِّر القرآن هنا عن خلوص العمل بالدين عن شوائب الشرك بقوله: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ لأنَّ مجرد قبول الدين لا يكفي، بل ينبغي تطبيق كل المواقف والسلوكيات والتوجهات مع شرائعه.
- ﴿حَنِيفٗاۚ﴾: أي طاهراً من رجس الشرك ودنس الرذائل، فالحنيفية حقاً أنّ تطهِّر معتقداتك ومنذ البداية من كل آثار الشرك.
- ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ﴾: تعني هنا: الوحدانية، حيث إنها جزء من خلق الناس جميعاً وليس المؤمنون فقط.

[عن: تفسير من هدى القرآن (للمؤلف) ط الثانية، ج٧، ص٣٧- ٣٨]

من الحديث

روي عن زرارة، قال: سألتُ أبا جعفرٍ عليه السلام عن قول الله عزّ وجل: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾؟

قال: «**فَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَةِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمُوا إِذَا سُئِلُوا مَنْ رَبُّهُمْ وَمَنْ رَازِقُهُم؟**»[1].

تفصيل القول

إنّ اللّه سبحانه وتعالى يأمر الإنسان ألّا يستجيب للضغوط بأنواعها إن أراد أن يعبده حقاً، وأن يُبقي على طهارة ونزاهة باطنه وظاهره من لوث الشرك والمشركين:

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾

والدين الحنيف تعبير عن الدين الخالص والمنزّه عن شوائب الشرك، لأنّ مجرّد قبول الدين غير كافٍ، وإنّما يفترض تطابق المواقف والرؤى والأعمال مع شرائع وقوانين الدين.

وهكذا فقد أمر اللّه تعالى عبده أن يتّبع الدين وأن يجدّ في تطبيقه. وهكذا كان المقصود الإتّباع العملي الجاد.

و (أقِم) ليس مجرّد الأداء، بل هو الأداء والتمسّك الجاد والدائم والصحيح والكامل في مقام الإيمان والإعتقاد والعمل.

فمثلاً، قوله سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني أدِّ الصلاة بوجهها الصحيح والكامل. مضافاً إلى أنّ القيام في الصلاة أفضل حالات

(١) بحار الأنوار، ج٦٤، ص١٣٤، عن: المحاسن، ج١، ص٢٤١.

الصلاة وأجلى صورها. وليس المقصود به مجرّد الوقوف، وكما أنّ اللَّه تعالى قائم قيّوم بالحقّ كذلك المصلّي عليه أن يقوم بحقّ الصلاة.

وإقامة الوجه تعني معاهدة اللَّه تعالى منذ البدء على تقديم الطاعة والسير في الصراط المستقيم، وينبغي أن يُكرّر هذا العهد وهذا الالتزام حتى يترسّخ في الذات ويتضاءل احتمال الوقوع في الغفلة إلى أقصى حدٍّ ممكن.

قال اللَّه تعالى حاكياً عن لسان نبيّه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ويعني هذا أنّه نوى التحرّك والانطلاق نحو اللَّه عز وجل، لأنّ سائر التحركات الأخرى شرك، ولا ينبغي لمخلوق - فضلاً عن النبيّ أو أيّ مؤمن آخر - أن يتوجّه إلى جهة غير إلهيّة. أمّا إذا صادفت حركة الانسان عاصفة ما؛ ومال شيئاً ما عن المسار الحقّ، فإنّ نيتّه ينبغي أن تبقى صادقة مخلصة.

الأمر المهمّ الآخر في هذه الفقرة من الآية الكريمة يتعلّق بطبيعة الخطاب. فتارة يكون الخطاب القرآني جمعياً عامّاً مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، وتارة يكون الخطاب شخصيّاً.

فإذا كان الخطاب عاماً، فهذا يعني أنّ على المؤمنين أن يكونوا جماعة واحدة ولا ينفرد كل واحدٍ منهم لوحده. وحين يتّصف الخطاب بالصفة الفردية فيعني أن على الفرد المؤمن أن لا يتصوّر أنه يجب أن يتبع محيطه، وإنّما عليه أن يوثّق علاقته بربّه المتعال

(١) سورة الأنعام، آية ٧٩.

بحيث لا ينحرف مع محيطه إذا كان منحرفاً، فلا يسير في إطار المثل القائل: (حشر مع الناس عيد) إذ المؤمن ملزم بأن يعمل على إنقاذ نفسه من عذاب جهنم حتى لو سار الناس كلّهم باتجاه هذا العذاب!

فلا يصحّ للفرد المؤمن أن يولي محيطه الآثم مزيد اهتمام إلّا بالجدّ في توجيه النصح للآخرين، أو الردّ على أباطيلهم، دون الانسياق والانجرار وراءهم، كما عليه أن يربّي نفسه ويختار من العقائد والآراء والمواقف ما يمليه عليه دينه الذي أقام وجهه له من قبل. وهذا يعني في النهاية أن يسعى المؤمن لأن يكون نموذجاً صالحاً لنفسه وللآخرين.

الفطرة التوحيدية

قيّد القرآن المجيد إقامة الوجه للدين من قبل الإنسان بكونه حنيفاً، وهو يعني هجر الباطل والتوجّه إلى الحقّ، وترك كلّ دين مزيّف والتمسّك بدين الاسلام، والتوجّه إلى الصراط المستقيم دون طريق الضلال، وبالنتيجة؛ أن يتطهّر الإنسان من الدنس والرجس الذي يفرضه طريق الضلال والمعتقدات الباطلة.

إذن؛ فالحنيف يعني الطاهر والنزيه عن أيّة شائبة من شوائب الشرك والانحراف، فاللَّه سبحانه يريد من عبده أن يبحث عن الدين الخالص ثمّ يتمسّك به. جاء في الحديث القُدسي قول اللَّه عزّ وجلّ: «**خَلَقْتُ عِبادِي حُنفاءَ، فاحتالَتْهُمُ الشَياطينُ عن دينِهِم، وأَمروهُم أن يشركُوا بي غَيري**»[١].

إنّ هذا الحديث القدسيّ يشير إلى أنّ ذات الإنسان بريئة من الشرك، ولا تتجه بشكل فطري لغير اللَّه تعالى، لأنّ اللَّه خلق الإنسان

(١) تفسير جوامع الجامع، ج٣، ص١٣.

في أحسن تقويم: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾[1]. و﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾[2].

إن فطرة اللّٰه تعني ما أودعه اللّٰه سبحانه وتعالى في كلّ إنسان، وهذه الفطرة تشكل البنية الأساسية لعلم الإنسان، إذ العِلم علمان: علم مطبوع وعلم مسموع، كما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**الْعِلْمُ عِلْمَانِ: مَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ، وَلَا يَنْفَعُ الْمَسْمُوعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْمَطْبُوع**»[3].

والسبب في ذلك أنّ البنية التحتية لكل العلوم هي المخزون الفطري الذي أودعه اللّٰه في الإنسان، والتي يُطلق عليها البديهات، وهي ما أطلق عليها الإمام: العلم المطبوع.

والإسلام أيضاً على قسمين: الفطري (المطبوع) الذي يقوم على أساسه كيان الإنسان وخلقته، والإكتسابي (المسموع). وأصل الإسلام هو الأمور الفطرية، كالتوحيد، وشُكر المُنعم، وقُبح الظلم والقتل والزنا وسائر المنكرات، وحُسن العدل والمحبة وعبادة اللّٰه والحج والجهاد وسائر مفردات المعروف. أمّا الدين الإكتسابي فهو ما يحتاج الى الإستماع من الغير، كشرح اصول الدين، وتوضيح الأحكام الفرعية، وما شاكل.

فقول اللّٰه تعالى:

١ - ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾

يعني: أنَّ كل ما يوجد في القرآن والدين قد أودعه اللّٰه في

---

(١) سورة النمل، آية ٨٨.

(٢) سورة التين، آية ٤.

(٣) نهج البلاغة (صبحي الصالح)، قصار الحكم، الرقم ٣٤٥ او ٣٣٨، ص٥٣٤.

فطرة الإنسـان، فاللَّه تعالى فطر الإنسـان على الحق، وعلى الإنسـان أن يسير في هذا الطريق الفطري، واللَّه تعالى يحاسب الناس على ما في قلوبهم من نوايا ومقاصد تنعكس في أعمالهم في الحياة الدنيا.

جاء في الحديث عن أبي هاشم، قال: سألتُ أبا عبد اللَّه عليه السلام عن الخلود في الجنّة والنار، فقال:

«إِنَّمَـا خُلِّدَ أَهْلُ النَّارِ فِـي النَّارِ لِأَنَّ نِيَّاتِهِمْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ خُلِّـدُوا فِيهَا أَنْ يَعْصُـوا اللَّه أَبَداً، وإِنَّمَا خُلِّدَ أَهْـلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ لِأَنَّ نِيَّاتِهِـمْ كَانَـتْ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَوْ بَقُـوا فِيهَا أَنْ يُطِيعُوا اللَّه أَبَـداً، فَبِالنِّيَّاتِ خُلِّدَ هَؤُلَاءِ وهَؤُلَاءِ»، ثم تلا قوله تعالى: «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ» أَيْ عَلَى نِيَّتِه»[1].

وقـال رسـول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: **«كُلُّ مَوْلُـودٍ يُولَدُ عَلَـى الْفِطْرَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ويُنَصِّرَانِهِ ويُمَجِّسَانِه»**[2].

وقد فسَّـرَ أهـل البيـت عليهم السلام في أحاديـث شـريفة الفطرة في هـذه الآية الكريمة بالعبـارات التالية: (التَّوْحِيـد)، و **«فَطَرَهُمْ جَمِيعاً عَلَـى التَّوْحِيد»**، و **«هِيَ الْإِسْـلَامُ فَطَرَهُمُ اللَّه حِينَ أَخَـذَ مِيثَاقَهُمْ عَلَى التَّوْحِيـد»**، و **«فَطَرَهُـمْ عَلَـى التَّوْحِيـد»**[3]. وهـذه الفطـرة غيـر قابلة للتغيير، وهي في الجميع سواء:

٢- ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾

ففطـرة اللّـه لا تتغير، لا من حيث الزمـان، ولا بفعل التغيّرات

(١) المحاسن، ج٢، ص٣٣١.
(٢) شرح الأخبار، ج١، ص١٩٠.
(٣) انظر: الكافي، ج٢، ص١٢-١٣، باب (فطرة الخلق على التوحيد)، الاحاديث ١ الى ٤.

البيئية والمحيطية، بل قد يواجهها الإنسـان بالغفلة والتجاهل وقسوة القلب.

إنّ هـذه الفطـرة هـي أسـاس ديـن اللّـه، والمقصـود بهـا دين الاسلام والملّة الحنيفة.

ولكنّ البعض فسَّرَ الفطرة بالخلقة والإحداث، واستدلّ بالآية الكريمـة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١). وقـال: يريـد به خالق السـماوات والأرض، وفسَّر قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ بأنه يعني: خلقته التي خلق الناس عليها. كما فسّـر قول الإمام الصادق عليه السلام: «**فَطَرَ اللَّه الْخَلْقَ عَلَى التَّوْحِيد**» بأنه سبحانه: «خلقهم للتوحيـد وعلـى أن يوحدوه، وليس المراد به أنـه أراد منهم التوحيد، ولـو كان الأمـر كذلك ما كان مخلـوق إلّا موحِّداً، وفـي وجودنا من المخلوقيـن من لا يوحِّد اللَّه تعالى [وهو] على أنه لم يخلق التوحيد في الخلق، بل خلقهم ليكتسبوا التوحيد، وقد قال تعالى في شاهد ما ذكرنـاه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢) فبيَّن أنه إنما خلقهم لعبادته»(٣).

ويبـدو أن هذا البعض قد عدّ القائلين بالفطرة التوحيديّة؛ أنهم يعتبرون الإنسان مجبراً على التوحيد. بيدَ أنّه إذا قيل: إنّ اللَّه سبحانه قـد فطر الناس على التوحيد؛ فليس المقصـود بذلك الإجبار وخلقة جميـع تفاصيل العقيدة في النفس البشـرية، إنّمـا المقصود من ذلك؛ هـو أن اللّـه تعالى وهب الإنسـان البنيـة التحتيّة للعقيـدة التوحيديّة،

---

(١) سورة فاطر، الآية:١.

(٢) سورة الذاريات، الآية:٥٦.

(٣) انظر: تصحيح إعتقادات الإمامية (الشيخ المفيد)، ص٦٠-٦١.

تلك البنية الموجودة في روح كل إنسـان، حتى أنَّ الكافر والمشـرك يتحسسانها ويظهرانها عند مواجهة الأخطار الجسيمة.

نعم؛ إنّ اكتسـاب المعرفـة التوحيديّة بحاجة إلـى قاعدة وبنية أساسية أودعها اللّه في الإنسان.

ومما يجدر ذكره أنّ البعض يعقّدون مسألة الدين، بينما الدين هـو ما اسـتقر فـي القلـب والوجـدان؛ وهو متناغـم تماماً مـع العقل ومسـلّماته، وديـن اللّـه هو الديـن القيّـم. و(القيّم) يعنـي الصحيح، والكلمة تشترك في جذر واحد مع كلمة (قيّوم) و(أقم). فالقيّم يعني: ﴿لاَ عِوَجَ لَهُ﴾[1] والصحيح أبداً:

٣- ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾

فدين اللّه الموضوع والمكرّس في الفطرة الإنسانيّة لا انحراف فيه، إذ هو حق وصائب.

الانحراف عن الفطرة التوحيديّة

يقفـز للأذهان سـؤال، وهو: مع علمنـا أنّ الدين حق وفطريّ، وهذا اعتقاد راسخ وبرهاني، ولكن لمَ لا يعي جميع البشر هذا الأمر؟

نقـول في الجواب: إنّ القـول الصائب في مثل هذه الأمور هو أنّـه ما دام الشـيء قد ثبـت بالعقل والقلـب؛ فلا يصـحّ أن ننظر ذات اليمين وذات الشـمال، فنهتمّ بمن قال؟ ومـا قال؟ وكم عدد القائل؟ فـلا يصح أن تشـوِّش هذه التسـاؤلات ذهن صاحـب الدليل القاطع والبرهان.

(١) سورة طه، الآية:١٠٨.

إنّ مشكلتنا هي أننا نعيش جميعاً في محيط واحد، فنرى بعضنا، ويتأثر بعضنا بالبعض الآخر. فالبعض يكلّون أنّهم في الأسفل، فيقرّرون الصعود إلى الأعلى، والبعض الآخر لا يفرق لهم أين يكونون، والبعض الثالث يهبطون على الدوام. والذين يصعدون؛ ينقسمون إلى فِرَق قبل أن يرتقوا القمّة، فبعض يقف، وبعض يرجع القهقرى، والقليل منهم يصل إلى أعلى القمة. ولا ريب أنّ هناك من يعجز عن البقاء فوق القمّة طويلاً. ولكن الصحيح في الأمر هو أن لا تنظر إلى غيرك، بل عليك أن تبذل كلّ الجهد لبلوغ القمة والبقاء فيها، وإن أمكنك أن تأخذ بيد غيرك فترتقي به فالأمر حسن. ولا نقصد الأخذ بيد الجامدين ومريدي النكوص والانقلاب على الأعقاب.

عليك أن تَهُّمَ بفطرتك وتتقدم.. فمن كان يصلي الصبح باستمرار - مثلاً - ليس عليه النظر إلى منكر الصلاة أو المستخف بها، ثمّ يحدّث نفسه بالقول: بخٍ بخٍ لي أنا المصلّي دائماً والآخرون نائمون، أو: أنا الصائم والناس يتناولون المفطرات في الشوارع. ولو أنّك استسلمتَ لهذا المنحى من القول والسلوك لأصبحتَ من الجامدين المتوقّفين عن السعي والتقدم!

إنّ قطع المسافة الى اللّه تعالى بالصورة الصحيحة، ثمّ الحصول على النتيجة المطلوبة، بحاجة إلى جهد كبير وعدم الإغترار بالذات والسقوط في أوحال العُجب. قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾(١)، أي أنه سبحانه لا يحب من يطغى بما أُعطي. وجاء في آية كريمة أخرى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟

(١) سورة القصص، الآية:٧٦.

وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

انظروا إلى الإمام أمير المؤمنين، وسائر الأئمة المعصومين سلام اللَّه عليهم، وإلى العلماء الربانيّين الصادقين، وإلى ما كتبوا ونقلوا لنا من الفكر الصادق والعقيدة السليمة.

٤- ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

فالناس يعانون الجهل، ويحرمون أنفسهم من الفطرة الإلهية، ومن الرقيّ بسبب معاييرهم الخاطئة، فهم لا يعلمون أنَّ هذا هو الطريق السليم، فيفرّطون بالدين القيّم ويلوّثون فطرتهم الحنيفة الطيّبة.

بصائر وسنن

١- إنّ اللَّه سبحانه وتعالى يأمر الإنسان ألّا يستجيب للضغوط بأنواعها إن أراد أن يعبده حقاً، وأن يُبقي على طهارة ونزاهة باطنه وظاهره من لوث الشرك والمشركين.

٢- إقامة الوجه للدين تعني: هجر الباطل والتوجّه إلى الحقّ، وترك كلّ معتقَدٍ مزيّف والتمسّك بدين الاسلام، والتوجّه إلى الصراط المستقيم دون طريق الضلال، وأن يتطهّر الإنسان من الدنس والرجس الذي يفرضه طريق الضلال والمعتقدات الباطلة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية:١٨٨.

الإنابة الى اللّه تعالى

﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١﴾.

من الحديث

روي عن زيد الشحّام، عن أبي عبد اللّه عليه السلام، قال: سمعته يقول:

«أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللّه عَزَّ وَجَلَّ الصَّلَاةُ، وَهِيَ آخِرُ وَصَايَا الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، فَمَا أَحْسَنَ الرَّجُلَ يَغْتَسِلُ أَوْ يَتَوَضَّأُ فَيُسْبِغُ الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَتَنَحَّى حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَنِيسٌ، فَيُشْرِفُ [اللّه سبحانه] عَلَيْهِ وَهُوَ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ. إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ نَادَى إِبْلِيسُ: يَا وَيْلَاهْ! أَطَاعَ وَعَصَيْتُ، وَسَجَدَ وَأَبَيْتُ»[1].

(١) الكافي، ج٣، باب فضل الصلاة، ص٢٦٤، ح٢.

تفصيل القول

بعـد أن دعـا اللّـه تعالى النـاس إلـى الاهتمام الكامـل بالدين الفطري، والاستقامة على التوحيد والإسلام اللذَيْن هما نداء الفطرة، دعاهم الى الإنابة إليـه، والتوجه والإنقطاع الى الخالق الذي خلقهم على فطرة التوحيد:

١ - ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾(١)

الخطـاب في الآية السـابقة: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾ وإن كان موجّهـاً للرسـول ﷺ في الظاهر، ولكنه موجَّـه في الواقع الى جميع المسلمين، والدليل على ذلك هو عبارة ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ بصيغة الجمع. ولعلّ الخطاب موجَّهٌ لكلّ إنسـان، باعتبار أنّ كلّ إنسـانٍ هو مخاطَـب للقرآن الكريم. فالأمـر الإلهي هو إقامـة الوجه للدين، مع اشـتراط أن تكون هذه الإقامة مع الإنابة، أي: مع الانقطاع للّه وحده لا شريك له، وأن يكون المسلم في حال توبة دائمة متواصلة إن صدر منه خطأٌ مّا.

لفهمٍ أعمق لكلمة ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ لا بد أن نعرف أنَّ الإنسـان كائن ضعيفٌ ولا إحاطة كاملة له بسبل التغلّب على المصاعب، فهو مضطرٌّ للقبول بأنّ الخطأ واحتمال الخسارة جزءٌ من حياته ووجوده، فكلّ سقطةٍ فيه قِسْمٌ من نهوضه وارتقائه، فكما يصعد يهبط. فلا بد له من الإنابة الى اللّه، بمعنى الطلب إلى اللّه تعالى أن يتجاوز عن خطئه

(١) (منيبين) جمع منيب، وهو اسم فاعل، والمصدر: إنابة، وهي تعني: الرجوع والعودة، فالمنيبون هم العائدون. و﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ منصوب على الحال للجملة الفعليّة في الآية السابقة: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ﴾.

وأن يهبه القدرة على النهوض والارتقاء مرّة أخرى.

ويلزم هـذه النظرة الواعية الإيجابيّة عدم اليأس. قال جلّ وعلا: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]. و: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

إذن؛ فهنـاك الكثيـر مـن الأسـباب والعوامـل التي تـؤدّي إلى انحـراف الإنسـان عن أصـل التوحيد، ولكـن لا مناصَ مـن العودة. ومهمـا تكـرّر الانحراف فـلا مانع مـن أن يقوم الإنسـان ناهضاً على قواعد الفطرة السـليمة وممرّغاً أنف الشيطان والهوى، منيباً الى اللّه، وهذا مصداق قوله الكريم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾.

ولهـذه العودة المباركـة بروز أكثر في أزمنـةٍ وأمكنةٍ وحالاتٍ خاصـة، ففي شـهر رمضـان - مثلاً - وفـي ليلة القـدر خاصّة، نحثّ أنفسـنا على رفع الموانـع واقتحام العقبات ثم العـودة الى اللّه، فهذا زمـان خاص. وحينمـا نفقد قريباً ونقـف على قبره، علينـا تصوّر أننا سـنكون فـي قبرنا ذات يـوم، وفي هذه الحالـة الخاصّة نلقّن أنفسـنا ونوحي إليها بضرورة الإسراع إلى العودة الى فطرة التوحيد.

وفي كلّ مرّة نرتقي إلى الأعلى، نجد الشيطان والهوى يجراننا إلى الأسفل، فنسقط، لكن لا ينبغي أن نيأس من رَوْحِ اللّه الذي يعيننا على العـودة والإنابة والتمسّـك بحبله المتين، فلا ننـسَ ربّنا الغفّار، ولنسـتغفر أبداً لنرجع إلى اللّه الـذي لا مفرّ منه إلّا إليه، فمهما جذبنا الشيطان والهوى؛ وجب أن نكون أصلب عوداً وأصلد شكيمة.

---

(١) سورة يوسف، الآية٨٧.

(٢) سورة الزمر، الآية:٥٣.

وبالطبع لا يوفق الجميع للإنابة والتوبة، فقد ورد في بعض الروايات أنّ من الذنوب ما يسلب التوفيق إلى التوبة، كذنب البدعة في الدين. روي عن الرسول الأكرم ﷺ: «**إنّ اللّه حَجَزَ التوبةَ عن كلِّ صاحبِ بِدْعَة**»[1]، فلنحذر كلّ الحذر من ارتكاب مثل هذا الذنب. فمن أضاف على الدين من نفسه شيئاً، أو انتقص منه ما يثلمه؛ وصار سبباً في إضلال العباد؛ لن تفيده التوبة مهما حرص. إذ ما أن يعمل أحدهم عملاً بِناءً على تلك البدعة، إلّا وأضيف إلى صحيفة أعماله ذنب جديد، فهو المقصّر الأصلي، ولهذا لم تكن لتوبته أثر، فعلينا أن لا نهدم كل جسور الإنابة والعودة من ورائنا.

ثم إنّ اللّه تبارك وتعالى وبعد الأمر بالإنابة والمحافظة على الروح المعنويّة الدافعة للتوبة، يوصينا بالتقوى الجامعة لكلّ الأوامر والنواهي الإلهيّة:

٢- ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾

فالتقوى هي التحصّن والمحافظة من كل إنحرافٍ وسقوط. قال اللّه سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾[2].

فالتقوى - إذن - لباس الروح الذي يحفظها من المخاطر الحافّة بها. واللّه تعالى يأمرنا بالتقوى بعد الأمر بالإنابة إليه، ولكن الإنسان قد تخور عزيمته ويضعف عن الإستمرار في طريق التقوى، فما العمل؟

(١) كنزل العُمال، ج١، ص٢٢١، الحديث ١١١٦.
(٢) سورة الأعراف، آية ٢٦.

يجيب اللّه المتعال:

٣- ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

إذ الصلاة خير عاملٍ لاكتساب القوة على مقارعة الشيطان والهوى والجهل والغفلة.

ولكن لِمَ الصلاة بالذات؟

لأنّ الصلاة - بجميع أبعادها - خير منهاج ووسيلة لمواجهة الشرك - بجميع أشكاله - وأهم وسيلة لتدعيم أسس التوحيد والإيمان باللّه العزيز.

فالإنسان معرَّض للذنب، ومن شأن الذنب أن يضعف الروح وينخرها، فما العمل؟

لتكريس القوى الإيمانيّة، جعل اللّه تعالى وسيلة مناسبة؛ وهي الصلاة، فقال عزّ اسمه: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[١].

فمتى ما رأيتم الضغوط عليكم في ازدياد، والمشاكل في استفحال، وجواذب الدنيا في اشتداد، فلكم أن تؤدّوا ركعتي صلاة، ولا أهميّة في مكان أدائها، بيتاً كان أو مدرسة أو مكان العمل، وذلك لسدّ النقص الروحي. إذ الصلاة خير وسيلة للإرتباط باللّه تبارك وتعالى، فلتعمّقوا العلاقة بربّكم الغفّار، ولتطلبوا منه العون والمدد، ولا تبتدعوا طريقةً من عند أنفسكم، وإنّما اسلكوا الطريق الذي رسمه الشارع لكم.

لقد حدّد اللّه تعالى في الآية (٣١) من سورة الروم المباركة

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

(الإنابـة) و(التقوى) و(الصلاة) ثلاثة طرق من أجل العودة إلى اللَّه، ومقارعـة هوى النفس وأسـباب تخريـب الحياة الطيبة. وفي سـورة البقرة – وفي الآية التي تلوناها – أوصى سـبحانه بالصبر ثمّ الصلاة. وقد قسّـم رسـول اللّـه ﷺ الصبر إلى ثلاثة أقسـام، حيـث يقول: «**الصَّبْـرُ ثَلَاثَـةٌ: صَبْـرٌ عِنْـدَ الْمُصِيبَةِ، وصَبْـرٌ عَلَى الطَّاعَـةِ، وصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ**»(١). والتقوى – التي تعني الاستقامة على الصراط المستقيم ومواجهة الذنب ووساوس الشيطان – تجمع كل هذه الثلاث.

فالإنسـان بحاجة إلى عنصرين أساسـيين لإحـراز النصر على المشـاكل والأزمات: الأوّل داخلي، والثاني خارجي. في آية سـورة البقرة المذكورة تمّت الإشارة إلى هذين العنصرين: الصبر والصلاة. فالصبـر يعني الإسـتقامة والصمود في وجه المشـاكل، والصلاة من جانبهـا علاقة وطيـدة باللَّه تعالى ووسـيلة ارتبـاط لتحصيل الدعامة القويّة والعون العتيد. وهذا الصبر سمّي في سورة الروم بالتقوى.

ونقـل المفسّـرون: «**وَكَانَ النَّبِـيُّ ﷺ إِذَا أَحْزَنَهُ أَمْرٌ اسْـتَعَانَ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ**»(٢).

كمـا نُقـل عن الإمـام الصادق عليه السلام أنّـه كان يقول: «**مَـا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ غَمٌّ مِنْ غُمُومِ الدُّنْيَا أَنْ يَتَوَضَّأَ ثُمَّ يَدْخُلَ مَسْجِدَهُ فَيَرْكَـعَ رَكْعَتَيْـنِ فَيَدْعُوَ اللَّـهَ فِيهَا؟ أَمَا سَـمِعْتَ اللَّه يَقُولُ واسْـتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ**»(٣).

إنّ الاهتمـام بالصـلاة والدعاء إلى الـربّ الغفّـار يمنح المرء

(١) الكافي، ج٢، ص٩١.
(٢) التبيان في تفسير القرآن، ج١، ص٢٠٢.
(٣) بحار الأنوار، ج٦٦، ص٣٤٢.

طاقة متجدّدة لمواجهة المشاكل.

وروى الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه أمير المؤمنين سلام اللّه عليه فيقول: «**كَانَ عَلِيٌّ عليه السلام إِذَا هَالَهُ شَيْءٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلَاةِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: واسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ**»(١).

فالصلاة تربط الإنسان بالقوة اللّا متناهية، حتّى لتيسّر عليه المشاكل، وهذا الشعور بالتيسير يؤدّي بالإنسان إلى مقاومة الأزمات والهدوء في حلّها. كما أنّ أعقد مشاكل الإنسان أنه يحرم نفسه من الاستفادة من طاقاته الكامنة. قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«وتَزعُم أنّكَ جِرْمٌ صغير
وفيكَ انطَوَى العالَم الأكبر»(٢)

ثمّ إنّ هذه الغفلة تؤدّي إلى حسرة دائمة، حيث يجد المرء نفسه في يوم القيامة عاجزاً عن العودة إلى الدنيا واستئناف العمل من جديد. حتّى أنّ الكافر في يوم القيامة - كما روي - سيعظّ يديه حسرة على ما فرّط في الفرص التي واتته في الدنيا(٣). وللمؤمنين حسرتهم أيضاً على أنّهم لم يفعلوا المزيد من الحسنات.

مصاديق الشرك وأبعاده

بعد الأمر بالصلاة قال جلّ وعلا:

٤ - ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

فمن بين كلّ النواهي يؤكد القرآن هنا على الشرك، ذلك لأنَّ

(١) الكافي، ج٣، ص٤٨٠.
(٢) تفسير الصافي للفيض الكاشاني، ج١، ص٩٢.
(٣) انظر: تفسير مجمع البيان، ج٧، ص٢٩٢.

الشـرك أكبـر الكبائر، وهو الذنب الذي لا يغفـره اللّه تعالى أبداً، كما ورد فـي الآية ٤٨ من سـورة النسـاء، حيث قال سـبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.

والتدبّر في الآيات الأخرى والأحاديث ينتهي بنا الى أنّ عبارة: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تعنـي أنَّ الإنابـة والتقـوى والصـلاة يكـون لها أثرها المطلوب وتؤتي أُكلها حين لا يلج الشـرك إلى حياة الإنسـان، فإذا أشرك الإنسان غيرَ ربّه المتعال في عبادته وأمور حياته فإنّه سيضيع في عالَمٍ لن ينفعه فيه عمل من الأعمال.

روي عن الرسـول الأعظـم ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللّـه يَقْبَلُ تَوْبَةَ عَبْـدِهِ أَوْ يَغْفِـرُ لِعَبْدِهِ مَا لَمْ يَقَعِ الحِجَابُ**» قيـل: وما وقوع الحِجَاب؟ قال: «**تَخْرُجُ النَّفْسُ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ**»[1].

نهاية الشرك

يعتبر القرآن الكريم مصدر جميع مشـاكل البشر الشرك. علماً أنّ الشـرك بمقاييـس القرآن هو غيـره الذي في مقاييـس الناس، فهم يعنـون بالشـرك أن يتخـذ الإنسـان صنماً يعبده ويسـجد لـه من دون اللّـه، فيما الأمر ليس كذلك وليس منحصـرا فيه، بل هو أدّق وأعمق وأخطر.

الشـرك يعني أن يكون للإنسـان فـي حياته معيـاران، فيقع في كميـن الازدواجيّة. فـإذا كان المرء كإبراهيـم الخليل عليه السلام صاحب معيـار واحـد؛ فيقـول: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) تفسير الميزان، ج٤، ص٢٥٢، عن: الدر المنثور، ج٢، ص١٣١.

وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١] فليعلم بأنه لم ينفذ الشرك إليه، لأنّ المعيار عنده واحد، ولا يعاني من الازدواجيّة في داخله، بل إنَّ عقله الإلهي يدلّه على طريق الهداية، ويصبح معياره الوحي الإلهي، ولم تعد للنفس الأمّارة بالسوء القدرة على إضلاله واعتباره نفسه محوراً من دون الخالق المتعال.

ولكن حيث يكون للإنسان معياران - وغالب البشر مصابون بهذا الداء - بمعنى أن يكون لدى اتّخاذهم الموقف المطلوب، معيار الهي تارة، ومعيار غير إلهي تارة أخرى، سواء كان صنماً - خارجياً أو باطنياً - أو أنانيّة أو مصلحة دنيوية، فإنّه يقع في أوحال الاضطراب والتضادّ.

هذا الفريق من الناس قال عنهم اللّه سبحانه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾. وإنّما سقطوا في هذا المستنقع النتن لأنّهم: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ﴾[٢].

فإنْ خدعتك الدنيا، رأيت ما ليس بمؤثّر ولا دور حقيقياً له عاملاً مؤثّراً مصيرياً، والعكس صحيح ايضا. وأفراد هذا الفريق يتجرّؤون حتى على رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وعلى المؤمنين، فيشيرون عليهم كي يستمدّوا العون من غير اللّه تعالى، ولكن يأتيهم الرد:

﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا

(١) سورة الأنعام، الآية:٧٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية:٧٠.

﴿لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

ويصف القرآن هؤلاء المشركين بالاضطراب والغفلة ويقول عنهم: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[2].

فالمشركون لا تنتظم امور حياتهم، بل يعيشون الفوضى، إذ هم يتكالبون على الدنيا ويغفلون عن ذكر ربّهم، ولا يطلبون إلّا ما يلبّي حاجات أهوائهم الباطلة، حتّى أنّهم يخرجون عن حدود الاعتدال ويغرقون في أوحال التفريط والإسراف، ويصير أمرهم كعقد منفرط تناثرت حبّاته، فتارة يذكرون ربّهم وأخرى يكفرون به، فلا معيار حقيقياً لهم.

أنواع الأصنام

ترى ما هي المعايير الأخرى التي تجذبنا إلى ذات اليمين وذات الشمال؟ وأيّة أصنام لدى البشر تبعدهم عن عبادة اللّه تعالى؟!

١- **صنم الهوى**: قال سبحانه وتعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾[3] و: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾[4]. و: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[5].

إنّ اتّباع الهوى يعني الأنانيّة وحبّ الذات، والمصاب بهذا الداء المقيت، يعيش في نفسه فحسب ولا يرى سواها، وهو لا يرى الأشياء الأخرى، وإن رآها فمن خلال مرآته الشخصيّة،

(١) سورة الأنعام، الآية:٧١.
(٢) سورة الكهف، الآية:٢٨.
(٣) سورة الروم، الآية:٢٩.
(٤) سورة الكهف، الآية:٢٨.
(٥) سورة الفرقان، الآية:٤٣.

وليس باعتبارها حقيقة مستقلة، فهو يتعامل مع كلّ شيء عبر تقييمه الشخصي الجاهز سلفاً، والجميع عنده خواء، وهذه عين الأنانيّة، وهذه الأنانيّة صنم من الأصنام، وتحطيم هذا الصنم أمر صعب، ولكن يجب أن يحطّم مهما كلّف الثمن. ولو أنّ المرء عجز عن الفرار من سجن (الأنا) و(هوى النفس) فلن يرى شيئاً غير ذاته، فهو ليس لا يعمل خيراً في حياته فحسب، بل لا يرى خيراً، لأنّ معياره معيار خاطئ.

٢- **صنم الأسرة:** قال جلّ وعلا في سورة التغابن، الآية ١٣: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ثم يوصي عباده قائلاً في الآية التي تليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ وكأنّ ثمّة إشكال -ينبغي حلّه- بين التوحيد وعلاقة المرء بزوجه وأولاده، والمشكل عند البعض هو اتّخاذ الزوجة والأولاد معياراً؛ بدلاً عن أصل التوكّل المحض على اللّه سبحانه.

ولا نعني بالطبع ترك الإهتمام بالزوجة والأولاد وعدم القيام بمسؤولياتنا تجاههم، وإنّما المطلوب تحاشي اتخاذهم صنماً يُعبد من دون الربّ القدير.

٣- **صنم العنصرية والحميّة:** حيث يميل المرء إلى أقاربه من عشيرته بتعصّب لا مبرّر شرعياً أو قانونياً له. وهذا النوع من العنصرية والتعصّب والحميّة تَسبَّب في اندلاع حروب عارمة في التاريخ، كالحربين العالميّتين الأولى والثانية، ولا يزال عالمنا اليوم يعيش آثار الحرب العالمية الثانية والتي منها إقامة الكيان الصهيوني وإزهاق أرواح عشرات الملايين من البشر في أنحاء العالم، والعامل

الرئيسي وراء كل ذلك كانت العنصرية النازية التي إعتبرت العنصر النازي مقدساً، ومثل هذا التعصّب كان حاكماً في العرب قبل ظهور الإسلام، ولطالما واجه دينُ اللّه هذا المنحى من التفكير الأعمى لدى الناس.

وهكذا شيّد بنو أميّة سلطتهم على أساس العصبية والحميّة الجاهلية، واستمروا في غيّهم وطغيانهم، وكان هذا التعصب معيار التعامل مع غير العرب بعد وفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، حتّى أن أولئك الذين انقلبوا على الدين عرضوا على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يتّبع هذه السيرة العصبيّة الجاهليّة فكراً وسياسةً، ولكنه عليه السلام أبى الانصياع لمذهبهم، لقوله بوجوب تحطيم منهج التعصب للعشيرة والعرق الحاكم على نفوس الجاهليّين.

٤- صنم الأرض: حيث يتفاخر المرء بانتمائه الى هذه الأرض أو تلك، إلى هذه المدينة والبلاد أو تلك، وإنّ كثيراً من الحروب والصراعات الدامية قد اندلعت؛ حرصاً على شبر واحد من الأرض، وقد لا يبدو أنّ هؤلاء المتعصّبين يقبّلون الأرض أو يسجدون لها في ظاهر الأمر، ولكنّهم في النهاية يتخذون من أرضهم شعاراً ورمزاً يعبدونه من دون اللّه.

وهكذا تتوالى الأصنام واحداً تلو الآخر مما يجعله الإنسان معياراً في حياته من دون اللّه ودينه ورسالاته.

التوحيد؛ أساس الدين

حينما يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فإنّه يعني اتّخاذ إله واحد، والاتّخاذ هذا يعني التوجّه الكامل للّه بما فيه من تفاصيل عقائديّة وتشريعيّة وأخلاقيّة: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي

﴿فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ﴾[1] دون سواه. فالصراط يلزم أن يكون واحداً، والمعيار كذلك، كما يلزم تحطيم جميع الأصنام والمعايير غير الإلهية، مثل الأنانيّة والهوى والأسرة والعنصر والأرض غيرها إذا ما وقفت سدّاً حائلاً بين الإنسان وربّه المتعال.

الكثير من الناس يظنّ في نفسه الصلاح، ولكنّه إذا ما اصطدم بذاتياته ومصلحته؛ عجز عن تجاوزهما، فتراه يمارس أشكال الرذائل ويرتكب أنواع الذنوب ليؤكّد تقدُّم نفسه على غيره. ولو أنّ معياره الحقيقي والوحيد كان اللّه تعالى، ما كان له أن يسقط، وما كان له أن يرى فرقاً بينه وبين غيره في البين، ولكنّ الشرك يمارس دوره الظلامي؛ فيعمي عين الإنسان ويطفئ نور عقله ويخمد جذوة فطرته؛ فيضلّ ويتيه، حتّى يصبح ممّن لا يُقبل منه عدل ولا صرف يوم القيامة!

وصفوة القول؛ هو أنّ الأوامر والتعاليم التي وردت في الآيتين (٣٠-٣١) من سورة الروم المباركة، حوت التأكيد على مسألة التوحيد وآثاره العمليّة؛ بما فيها الإخلاص في الدين، والعودة إلى اللّه عزّ وجل، والتقوى، وإقامة الصلاة، والحذر من الشرك، إذ التوحيد أساس الدين، وقيمة كلّ عمل رهينة بِبُعدها التوحيدي. وهذه القضية تزيد من أهمية مراقبة الفطرة التوحيدية والاهتمام بها.

بصائر وسنن

١- هناك الكثير من الأسباب والعوامل التي تؤدّي إلى انحراف

(١) سورة الأنعام، الآية:٧٩.

الإنســان عن أصل التوحيد، ولكن لا مناصَ من العودة. ومهما تكرّر الانحـراف فلا مانع من أن يقوم الإنســان ناهضاً علـى قواعد الفطرة السليمة وممرّغاً أنف الشيطان والهوى، منيباً الى اللّه.

٢- التقـوى لباس الـروح الذي يحفظها مـن المخاطر الحافّة بها، واللّه تعالى يأمرنا بالتقوى بعد الأمر بالإنابة إليه.

٣- (الإنابة) و(التقوى) و(الصلاة) ثلاثة طرق من أجل العودة إلى اللّه، ومقارعة هوى النفس وأسباب تخريب الحياة الطيبة.

٤- اليـأس من روح اللّـه تعالى يعيق المرء عن التوبة والإنابة، وهو وجه قبيح للشرك باللّه.

فرّقوا دينهم

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾.

من الحديث

روي عن رسول اللّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ﴾ أنه قال:

«**هُـمْ أَصْحَابُ البِدْعَةِ، وَأَصْحَابُ الأَهْـواءِ، لَيْسَ لَهُمْ تَوبَةٌ، أَنَا مِنْهُمْ بَرِيءٌ وَهُمْ مِنّي بُرَاء**»[1].

تفصيل القول

يبيّن ربّنا المتعال في هذه الآية الشريفة إحدى نتائج الشرك؛ ضمن عبارة قصيرة ودقيقة، فيذمّ التفريق في الدين، وهو العمل الذي طالما وجّه ضربات شديدة وموجعة لهيكل الدين والمتديّنين

(١) كنز العمال، ج٢، ص٢٢.

عبر التاريخ؛ ولا يزال يلعب هذا الدور.

والعَجب أنّ أصحاب المعتقدات الضالّة والديانات الباطلة فرحون بما لديهم وبما قاموا به من جرائم فكريّة، بل وتراهم يتفاخرون طاغين، فيسفكون دماء بعضهم ويعتقدون بأنّهم محقّون فيما يقترفون.

ونستلهم من الآية بوضوح أنّ إحدى علائم الشرك؛ التفرقة، ذلك لأنَّ الآية السابقة قالت: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ثم جاءت هذه الآية لتذكِّر بعض أوصاف المشركين:

١ - ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾

في هذه الآية الشريفة يميط القرآنُ اللّثامَ عن حقيقة هامة، وهي: أنّ تعدّد المعبود يؤدّي إلى تعدّد الفِرق والمذاهب، وهذا التعدّد في المعبود هو منشأ التفرّق. فالشرك أبداً قرين هوى النفس والتعصّب والأنانيّة وحبّ الذات والعجبُ بها وما يتشعّب عن ذلك، ولهذا كانت الفِرق الباطلة بعدد الأهواء الباطلة، رغم أنّ من تلكم الفِرق ما لم تكن تحمل عناوين وأسماء مشهورة ومعروفة. فيما الوحدة والاتّحاد والوفاق لا يكون إلاّ تحت مظلة التوحيد الحقّ وعبادة اللّه التي تتأتى أصلاً من العقل والتعقّل دون إتّباع الهوى والجهل والغفلة. إنّ نتيجة التوحيد وثمرته؛ هي الوحدة الاجتماعية وتوافق قلوب الموحِّدين.

وعلى هذا؛ فمتى ما رأينا اختلافاً وتفرّقاً، علينا أن نعرف بأنّ ثمَّةً نوعاً من الشرك حاكماً. ويمكن الخلاص إلى هذه الحقيقة كاستنتاج منطقي يقول بأنّ نتيجة الشرك تناقضٌ وفُرقةٌ وهدرٌ للطاقات

ثم ضعفٌ وعجز.

إنّ وجود الشرك في قلب من يدّعي الإيمان يؤدّي إلى خروجه عن الدين، لأنّه مؤمن أساساً بغير اللَّه تعالى؛ ووجود هذا (الغير) في القلب يدفع إلى إساءة الاستفادة من الدين الحقّ نفسه، فيما المؤمن لا يصحّ له أن يسخّر الدين لأجل الدنيا واغتنامها. لأنَّ الدين أمر إلهي فوق كلّ اعتبار، وله حرمته وحدوده الخاصّة، وهو عائد إلى اللَّه عزّ وجلّ وحده لا شريك له.

فحين يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ نظنّ أنّ المشرك هو من ينصب أمامه صنماً فيركع ويسجد له ويخاطبه بأبجل العبارات، غير أنّ القرآن نفسه يوضِّح لنا المقصود ويعطف القول بعبارة تفصيليّة فيبيّن:

٢ - ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾

فإذا كان الدين قد نزل من السماء، فذلك لنكون كتلة واحدة وأصحاب نهج واحد نتحرّك في مسير واحد، وحينما تجعل كلّ جماعة لنفسها ديناً؛ ثمّ تدّعي - جهلاً وغروراً - أحقيّتها، ثمّ تفرح بما لديها، فذلك الشرك عينه بنص القرآن الكريم:

٣- ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾

فترى الواحدة منها تقول: ما يصبّ في مصلحتي وما يضمن مصالحي فأقبله، وإلّا فلا. وهذا هو مستنقع الشرك، إذ الدين ينادي بتقديم أوامر اللَّه تعالى دون المصلحة الشخصيّة أو الحزبيّة أو العشائريّة، لأنّ هذه المصلحة وفروعها تنافسُ مع اللَّه في كبريائه وتأسيسُ حكمٍ في مقابل حكم اللَّه.

إنَّ أجلى وأهمّ فضائل النبي الأكرم وأهل بيته الأطهار عليه وعليهم السلام هو أنّهم كانوا يصرفون النظر عن المصالح الدنيوية؛ ويعرّضون أنفسهم لأنواع المخاطر والمصائب في سبيل اللَّه تعالى ورضاه، بل أنّهم عليهم السلام ولشديد ذوبانهم في ذات اللَّه تعالى؛ لم يكن ليُتَصَوَّرَ أنّ لهم مصلحة غير مصلحة الإسلام وإرادة غير إرادة اللَّه تعالى، حتى صار رضاهم رضا اللَّه وغضبهم غضب اللَّه، بل إنّما الدين هم، وتمثَّلَ وتجسَّدَ فيهم.

ولنا أن نلقي ولو نظرة بسيطة على بعض الشواهد التاريخية من سيرة الرسول الأعظم وأهل بيته عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام لنتأكَّد من عظيم الدور المثالي الذي قاموا به في سبيل تحقيق وإعلاء كلمة اللَّه تعالى، وبالمقابل نجد بعض أدعياء الدين الذين كانوا يتسترون بالدين لضمان مصالحهم وإشراكهم باللَّه عزّ وجلّ.

ويتضح قبح هؤلاء إذا جوبهوا بالدلائل الدينية الواضحة التي لا توافق مسالكهم، حيث يرفعون عقائرهم بأنّ الحقّ معهم دون سواهم، فيفرحون ويطغون، هادفين من وراء فرحهم وطغيانهم خداع الآخرين، حتى أنّ منهم من يعمل على خداع الناس من خلال تصوير الحقّ باطلاً والباطل حقاً:

٤ - ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾

إنّ منشأ الفرح والإعجاب بالنفس وجذرهما عائد إلى تزيين الأهواء النفسية، وهذا التزيين ينتهي إلى التعلّق الأشدّ والفرح الأعمق بما اختار من طريق واتّخذ من موقِف؛ وإن كان طريقاً منحرفاً وموقفاً باطلاً. فحبّ الهوى والذات لن يسمح للإنسان أن يرى وجه الحقيقة كما هو، فيميّز الحكم الصحيح والمجرّد عن العواطف.

يقول سبحانه في الآية ٨ من سورة فاطر: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾.

إنَّ جذر جميع مآسي الإنسان الضال والمتعصّب يكمن في أنّه يرى أعماله القبيحة ومنهجه الضال - وبداعي الانصياع والتوافق مع الشهوات - جميلة رائعة. ومن البديهي بمكان أنّ هكذا شخص لا تنفع فيه موعظة، ولا استعداد له للاستماع إليها، ناهيك عن افتقاره إلى القدرة على التمييز بين الأقوال فيتّبع أحسنها، فتراه غير قادر على تغيير مساره، أو محاولة ذلك حتّى.. ومن كانت فيه هذه الصفة المذمومة، وكان هذا نهجه لا يكلّف نفسه عناء المحاسبة والنقد الذاتي، ولا يحذر عاقبة أمره بالمرّة، فتراه يصدّق نفسه بأنّه على حق بعد أن أدمن الكذب عليها. وهذا وأمثاله ينتشي فرحاً؛ فيعدّ نفسه وأعماله نموذجاً رائعاً للجمال، بل ويتعدّى إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث يضرب بالمؤمنين الإلهيين مثالاً على القبح والبطلان!!

ولكن ما ومَنْ هي الجهة التي تزيِّن أعمال السيّئين في أعينهم وتؤدّي إلى أن يفرحوا لأعمالهم وأعمال حزبهم؟!

لا ريب أنّ السبب الأساس في كلّ ذلك هو هوى النفس ووساوس الشيطان. لأنّ الإنسان لدى ارتكابه الذنب يصاب بحالة من الانزعاج في بادئ الأمر بلحاظ فطرته الطيّبة وضميره الحيّ وعقله الواقعي، ولكنّ هذا الانزعاج يضمحلّ شيئاً فشيئاً لدى تكرار الذنب والإصرار على ممارسته، حتى يصل الأمر إلى التجاهل، فإذا تكرار السوء منه، رآه جميلاً الى الحد الذي يعدّه فخراً وفضلاً، فيما هو يزداد إثماً وسقوطاً إلى أعماق الحضيض.

وكلّ هذه الانحرافات نتيجة التبعيض في الدين واعتباره أداة

لتحقيق المصالح. فمن لم يؤمن ببعض عقائده وأحكامه وآمن بالبقيّة منها، كان ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ لأنّ الدين عبارة عن كتلة متراصّة ووحدة واحدة مترابطة، فإذا انفصمت منه حبة واحدة لم يعد ديناً، وكان مصداقاً لقول القائل: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾[1].

بلى؛ إنّ أغلب الذين يدّعون الاسلام ولكنهم لا يؤمنون ولا يستسلمون لكثير من أحكامه، يخرجون بموقفهم هذا عن الاسلام وهم جاهلون غير ملتفتين.

هؤلاء يؤسسون أحزاباً متنوّرة – كما يدَّعون – فتراهم يعدّون آية القصاص – مثلاً – مناقضة لحقوق الإنسان، وكم هم فرحون بقولهم هذا، بينما نقرأ في سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[2].

إنّ أولئك الذين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وتجاهلوا حكم اللّه تعالى هم ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ فأسّسوا للتحزّب الباطل، ولا زلنا نلمس ونعاني آثار ذلك الإجتماع الذي أدّى إلى مصادرة حقّ أمير المؤمنين عليه السلام والانحراف بالناس – عبر الأجيال – عن طريق اللّه القويم، فتفرّق المسلمون وانتهوا إلى أحزاب ومذاهب. لقد مزّقوا الدين ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾.

والأعجب من ذلك أنّ عمر بن الخطّاب روى عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لعائشة: «**إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً؛ هم أهل**

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٣–١٠٥.

البدع والضلالة من هذه الأمّة، إنّ لكلّ صاحب ذنب توبة إلاّ صاحب البدع والأهواء؛ ليست لهم توبة، أنا منهم بريئ وهم منّي براء»[(١)].

والأعجب أيضاً أنّ بعض رواة هذا الحديث كان أوّل من تقاعس عنه ولم يعمل به، وابتدع بدعاً في الدين كثيرة، كان أهمّها الانحراف بالناس وبالتاريخ عن صراط الإمامة وخلافة الرسول الأكرم ﷺ.

روى الحارث بن الأعور عن أمير المؤمنين علي عليه السلام، قال في حديث طويل: «سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ، يَقول: **إنّها سَتكُونُ فِتَنٌ!** قلتُ: فَمَا المَخْرَجُ مِنهَا يا رسولَ اللَّه؟ قال: **كِتابُ اللَّه، فيهِ خبرُ ما قَبْلَكُمْ، ونَبَأُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنكُمْ، هُو الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ، هُو الّذِي لَا تَزِيْغُ بِهِ الأهْوَاءُ، وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عِن كَثْرَةِ رَدّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُه، وَهُوَ الّذِي مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبّارٍ قَصَمَهُ اللَّه، وَمَنْ ابْتغَى الهُدَى فِيْ غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّه، هُوَ حَبْلُ اللَّه المَتِيْنُ، وَهُوَ الصِّراطُ المُسْتَقِيْم**»[(٢)].

وقال عليه السلام في معرض تحليله وموقفه من الفتنة:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ اللَّه، يَتَوَلَّى فِيهَا رِجَالٌ رِجَالًا، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ لَمْ يَخْفَ عَلَى ذِي حِجًى، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ لَمْ يَكُنِ اخْتِلَافٌ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ فَيَجِيئَانِ مَعاً، فَهُنَالِكَ اسْتَحْوَذَ الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَنَجَا الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّه الْحُسْنَى»[(٣)].

---

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (تفسير الثعلبي)، ج٧، ص٣٠٣.
(٢) تفسير مجمع البيان، ج١، ص٤٥.
(٣) الكافي، ج١، ص٥٤.

عن المتحزّبين

آيـات القرن الكريم ليسـت للقراءة والسـماع فحسـب، وإنّما اللّازم أن يُتلَمَّسَ بها طريق الحياة القويم، وهنا نشير الى بعض النقاط إنطلاقاً من قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾:

١ - إنّ آيات القرآن الكريم ليسـت خاصّـةً بتوجيه النصح إلى الآخرين من دوننا، بل علينا أن نعتبر أنفسـنا مخاطَبين للآيات أيضاً، فنرى ما الذي يرتبط بنا من هذه الآيات فنعمل به.

٢ - مـاذا يقصد القرآن بـ﴿فَرِحُونَ﴾؟ وقـد وردت هذه الكلمة فـي عدّة مواقع مـن القرآن، كما في الآية ١٨٨ من سـورة آل عمران: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فهـؤلاء إذا مـا قالوا شـيئاً أو أعطوا شـيئاً لغيرهم؛ إهتمّوا بذلك كلّ الاهتمام وغالوا في فرحهم.. ولكنّ مصير هؤلاء - حسب الآية - عذابٌ أليم.

وجـاء عـن قـارون: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾(١).

فالآية تقول لقارون أنْ لا يفرح ولا يغتر بما لديه من مال الدنيا وحطامها الزائل، فإنّ اللّه لا يحبّ الفرحين.

وكان قـارون - كمـا تبيّـن الآيـة - من نفـس النـاس ومثلهم، ولكنّـه حين أصاب ثروة كبيرة انقلبـت حاله. فماذا كان يعاني حقّاً؟! وعمّ نُهي في القرآن؟ هل نُهي عن الفرح؟ فاللّه قد أعطاه نعمة ففرح

(١) سورة القصص، الآية:٧٦.

لها أو بها.. فهل ثَمَّ إشكال في البين؟ ولِمَ أكّد اللّه المتعال على النهي عن أن يكون المرء فرِحاً؟!

ترى ماذا تريد الآية أن تقول؟

يبدو أن مصطلح الفرح الوارد في القرآن الكريم لا يقصد منه حالة السرور والراحة النفسية بالنعم، وإنّما هو التفاخر والمغالاة في الغرور. فقد يعطي اللّه عبده شيئاً، فتراه يغالي في تفاخره به إلى حدِّ نسيانه كلّ شيء آخر، فيلتفت بكلّه إلى ذلك الشيء ويغفل عمّا سواه، وهنا تكمن أزمة الإنسان الكبرى. لماذا؟

فمن كان يتمتّع بعين جميلة وانشغل بها عمّا لديه من أذن أو أنف أو سائر الجوارح الأخرى، فماذا سيحلّ به؟ لعلّه سيؤدي به إلى الصمم أو فقدان حاسة الشمّ.

وبعيداً عن جوارح البدن، لو أنه صار غنياً جداً وظنّ أنّ النعمة كلّها في ثروته الطائلة وأنّ كلّ شيء يُختزل فيها، فماذا سيحدث له؟ وهل أنّ السعادة الحقيقية في المال فقط؟ وهل السعادة تتبع الغنى؟! ولكنّنا نرى كثيراً من الأغنياء غير سعداء، لما فيهم من مرض ونقص في السلامة والعافية والأمان.. وهناك من هم أغنياء ولكنّهم لا يشكرون، وبالتالي فإنهم يعانون نقصاً عقائدياً وأخلاقياً حادّاً.

ولعلّ مصيبة البشر أنهم يغفلون عمّا وهبهم اللّه تبارك وتعالى من النعم، فتراهم لا يحسنون الانتفاع بها، والحال أنّ السعادة منوطة بطبيعة الاستفادة من النعمة.. فمن لم يكن شاكراً حقّاً لن يكون سعيداً أبداً، فلا ريب أنّ المصاب بمرض عضال - مثلاً - وهو مع ذلك يشكر ربّه المتعال، أكثر سعادة من ذلك الجالس على كنوز قارون ولا يشكر ولا يحسن الانتفاع منها.

فالذيـن قد بلغت بهـم النعمة إلى حـدّ الثمالـة وتوجّهوا إليها دون سواها بكلّ وجودهم؛ هم الفرحون.

فحين أصبح قارون ثريّاً جداً؛ نسي أنّه كان من قوم موسى، بل ونسـي أنّه كان من أصحابه ذات يـوم، فملأت الثروة عينه وعجز عن رؤية أي شيء آخر. الكثير يبدو عليهم الصلاح، ولكنّهم إذا أنعم اللَّه تعالى عليهم بنعمة ما؛ أصبحوا عبيداً لها. ولَرُبّ ذلك إمتحانٌ قصده اللَّه بعطائه النعمة، إلّا أنّهم على اسـتعداد لأن يضحّوا بكلّ شـيء في سبيلها.. وهذا هو الفرح المذموم في القرآن[1].

٣- إنّ هـذه الآيـة الكريمـة تسـاعدنا علـى حـلّ المشـاكل الاجتماعيّـة وتكريـس الوحـدة، فالحـذر كلّ الحـذر مـن التفـرّق والتشـرذم إلى جماعـات متناحرة، فالتفرّق أمر خطير للغاية وسـبب في البؤس، فلِمَ أنتم غافلون فرحون؟!

(١) لقد انتهى الأمر بهارون العباسي إلى أن يهدّد ابنه المأمون بقطع الرأس إذا ما حدّث نفسه بالملك من دونه، يقول المأمون العباسي في رواية طويلة: دخل موسى بن جعفر عليه السلام على الرشيد يوما فقام إليه، واستقبله وأجلسه في الصدر وقعد بين يديه، وجرى بينهما أشياء،... ثم قام فقام الرشيد لقيامه، وقبل بين عينيه ووجهه، ثم أقبل عليَّ وعلى الأمين والمؤتمن فقال: يا عبد اللَّه ! ويا محمد ! ويا إبراهيم ! امشوا بين يدي ابن عمكم وسيدكم، خذوا بركابه، وسووا عليه ثيابه، وشيعوه إلى منزله... ثم انصرفنا وكنت أجرأ ولد أبي عليه، فلما خلا المجلس قلت: يا أمير المؤمنين ومَنْ هذا الرجل الذي أعظمته وأجللته، وقمت من مجلسك إليه فاستقبلته، وأقعدته في صدر المجلس، وجلست دونه، ثم أمرتنا بأخذ الركاب له؟ قال: هذا إمام الناس، وحجة اللَّه على خلقه، وخليفته على عباده. فقلت: يا أمير المؤمنين! أو ليست هذه الصفات كلها لك وفيك؟ فقال: أنا إمام الجماعة في الظاهر بالغلبة والقهر، وموسى بن جعفر إمام حق، واللَّه يا بني إنه لأحق بمقام رسول اللَّه مني ومن الخلق جميعا، وواللَّه لو نازعتني في هذا الأمر لأخذت الذي فيه عيناك، لأن الملك عقيم. [الإحتجاج، ج٢، ص١٦٥-١٦٦].

حكمة الفوارق البشرية

حيـن نلاحظ الجغرافيا، نلاحظ أنّ لـكلّ بلد إمكاناته الخاصّة بـه. فواحد فيـه الغاز، وآخـر اليورانيـوم، وثالث البتـرول. فلماذا لم يجعل اللَّه تبارك وتعالى كلّ شيء في منطقة واحدة؟

السـبب هو أنّه سـبحانه أراد للناس أن يحتـاج بعضهم بعضاً، ليتعاونـوا وليؤسّسـوا للعلاقـات فيمـا بينهـم. ولقد شـهدت القرون الثلاثـة الأخيـرة حروباً طاحنة بين الدول لتسـتولي علـى الإمكانات ومصادر الثروة، ولتسـيطر على التجارة العالمية. ولا ريب أنّ العديد مـن البلدان انتهت إلى عدم جدوى خـوض الحروب، وإلى ضرورة بناء العلاقات الدولية الرصينة، فكان كلّ يوم يشهد تأسيس منظمات ومؤسسـات دوليـة جديدة، كالأمـم المتحـدة، والصليـب الأحمر، واليونيسف، وغيرها؛ لتلتقي المصالح والدول فيما بينها.

ذلك لأنّ البشـرية رأت التعاون خيراً من التناحر مع السعي إلى المحافظة على المصالح الخاصّة دون التجاوز على مصالح الآخرين.

والسؤال: لـمَ خلق اللَّه الخلق بهذا النحو؟!

الجـواب: لأنّ المجتمـع يحتاج في بناء حياتـه وحضارته إلى مختلف التخصّصات والعلوم والمهن، وإذا دقّقنا النظر في الاختلاف الحاصـل في المجتمع البشـري، وجدنـا أنّ ثَمَّ هدفاً إلهيـاً في البين، وهـو الدفع إلى التعاون والتنسـيق والاسـتفادة مـن بعضهم البعض: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾[1].

ولا شـكّ أنّ هـذا التعـاون يتأتّـى ويتكـرّس حيـن لا تصـاب

(١) سورة المائدة، الآية:٢.

الشعوب والدول بداء الفرح والطغيان والتفاخر إزاء ما تملك من الإمكانات والنعم، فلا تظنّ في نفسها القوّة المطلقة والاكتفاء لمجرّد توفّر بعض النعم فيها، وتعي أنّ ما تملك هو مجرّد جزء من الإمكانات، وما يملكه الآخرون جزء آخر. ولكن حين يظنّ الإنسان - بسبب ما لديه من نعمة - أنه أصبح يمتلك كلّ شيء فيتفاخر ويفرح، فهذا ما يؤدي إلى وقوع الفرقة والاختلاف.

إنّ التفرّق والغرور بالحزب والجماعة أمر سيّء للغاية، وإلّا فإنّ التفاوت أمر طبيعي، إذ لا يمكن تصوّر الناس كلّهم بصورة واحدة، ولا وجود لمجتمع لا تتفاوت آراء أفراده أو لا تختلف إمكاناتهم، بل إنّ اللَّه سبحانه وتعالى لم يرد ولم يقدّر ولم يخطّط لذلك حينما خلقهم. وإنّما المهم في الأمر أنهم لدى تفاوتهم في الإمكانات والأذواق والطبائع والخلفيات التاريخيّة عليهم أن يسعوا إلى التفكير الجمعي وصبّ الاختلافات في بوتقة واحدة لتكون بمثابة الفرصة للتطوّر وصناعة عيش رغيد تحت مظلة التوحيد والولاية الإلهيّة، وهذا ما أراد اللَّه وقدّر: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[1].

إنّ فطرة اللَّه تعالى ذات بُعدين، بُعدٍ توحيدي يتّجه نحو اللَّه؛ وبُعدٍ يتجّه صوب الخلق. فلكل فردٍ من البشر ميزة خاصة، وبذلك يحصل التفاوت الذي قرّر له الرب الجليل أن يكون سبباً للتكامل وتشييد نظام رائع منسجم يجمع كلّ الميزات ويتّجه نحو السعادة البشرية.. وهذا النظام الرائع المنسجم هو الذي نادى به الرسول الأعظم ﷺ وكرّس قواعده ووضّح أبعاده، حتى لترى الدين المحمديّ قد انتشر في أرجاء المعمورة في فترة زمنيّة قياسيّة

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

رغـم كلّ المؤامـرات التـي تعرّض لهـا ولا يزال من قبل المشـركين والمنافقيـن، ورغم كلّ الممارسـات التي وقعت تحت مسـمّاه وهو منهـا بـريء.. وما ذلك إلاّ لكونـه نظاماً صحيـح القواعد والأصول، ودعـا بكلّ رصانـة إلى التعاون والعيش المشـترك لتأسـيس حضارة الفطـرة الإلهيّة، ولدحض ظاهـرة ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ وتكريـس قاعـدة ومفهـوم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ والعمـل بمقتضى قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[(١)].

فـلا ينبغي لأحـد أن يغترّ ويتفاخـر على غيره بما لديـه، وإنّما الجميـع مدعـوّون للتعـاون والتوافـق لبنـاء الحيـاة الطيّبـة، وليـس لاحتكارها والطغيان بها.

إنّك إذا أردت إقامة علاقة مع أحدهم، عليك أن تنظر أوّلاً إلى ما يحتاج، وإلى أيّ مدًى تسـتطيع تلبية حاجته بما آتاك اللّه سـبحانه وتعالـى، وهل فيك القـدرة على إكمال نواقص حياته ومعيشـته؟ ثُمّ انظـر مـاذا تريد منه وتتوقّـع أن يسـاعدك.. بهذه النظرة تقـام العلاقة المعقولة؛ فلا يفخر أحدٌ على أحد.

إنّ هذه الفكرة ينبغي أن تكون المنطلق الحيّ في شتّى مجالات الحياة الاجتماعية.

ترى كيـف هي علاقتك بزوجك؟ لقد جعـل اللّه بينكما مودّة ورحمـة، فهـل تظنّ أنـك قد اسـتثمرت جميع فـرص التعـاون فيما بينكمـا؟ ربمـا إنّ ذلـك لم يحـدث.. ولو أنّـه حدث؛ لكانـت الحياة افضل وأجمل.

(١) سورة الحجرات، الآية:١٣.

من الأمور المشهورة بين بعض الناس هو أنّ لك أن تستشير زوجتك ثـمّ تخالفهـا فيما تـرى.. ولكنّ هذا خطـأ، إذ المطلوب هو أن تتشـاورا ثمّ تخطّطا لحياتكما المشـتركة، وحينها سـتكون الحياة رائعـة جميلة، ولكن حيـن تقـع بينكمـا الفاصلـة وصرتمـا ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ ستعجزان عن استثمار حالة الزوجية وما يتوقّع منها من تعاون وتقدّم.

وهكذا العلاقة بين الجيران والأصدقاء وذوي القربى، ولو أنّ كلاً منهم تفاخر بما لديه وطغى على قرينه، ما كان للعلاقة الطيّبة أن تتكرّس.

إنّ مفهـوم قولـه سـبحانه: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ يعني أّنّ كلّ شـخص متقوقع على نفسـه، منطوٍ على ذاته، فلا تعاون ولا تكامل ولا سدّ حاجة. وهذا هو الخطر المحدِق بعينه.

يجـب علينـا - والحـال هـذي - أن نسـتفيد من هـذا المعيار الأخلاقي الذي دعت إليه الآية الشـريفة، باعتباره يمثّل جذر السعادة الإنسـانيّة.. كما أن المجتمع البشـري يجـب أن ينظّم علاقاته بحيث يراعـي كلّ فرد حرمة وحقوق الآخرين، ويتعـرّف على ما لديهم من إمكانات فيضيفها إلى إماكاناته هو لتتطوّر الحياة إلى حيث الأحسـن والأرقى.

لقد عدّ اللّه جلّ جلالـه التفاخر والغرور بالإمكانات نوعاً من الشرك، ويحدث ذلك حين يبدّل الإنسانُ النعمةَ التي لديه إلى معبود يخضع له ويقدّسه من دون اللّه. فقد يتحول العِلْم صنماً بعد أن يتفاخر ويغتـرّ به صاحبه، وكثيـراً ما يتحوّل المال والوجاهـة الاجتماعية ربّاً يُعبد من دون اللّه عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾.

إنّ الآيـة دقيقـة كلّ الدقّـة، وتمنـح المتدبّر فيهـا بصيرة ورؤية

ثاقبـة، تدفعه إلى عدم التشـبث الجاهلـي بالجماعة التـي ينتمي لها، وتحثّه على عدم التعصّب إلى شيء سوى اللَّه وتعاليمه السامية. ولو أنّ المرء اعتصم باللَّـه وبحبله المتين المتمثّل بالقرآن والعترة النبويّة الطاهـرة؛ كان مؤمنـاً حقاً؛ لأنـه تجرّد مما يمكـن أن يتحوَّل إلى ربٍّ معبـود مـن دون اللَّـه. ينبغي لنا أن نقضـي على التعصّـب والتحزّب والأنانيّة ليحلّ محلّها الانصهار في إرادة الربّ الجليل.

بصائر وسنن

١ - إنّ تعـدّد المعبود يؤدّي إلى تعدّد الفِرق والمذاهب، وهذا التعدّد في المعبود هو منشـأ التفرّق. فالشـرك أبداً قرين هوى النفس والتعصّب والأنانيّة وحبّ الذات والعجبُ بها وما يتشعّب عن ذلك، ولهذا كانت الفِرق الباطلة بعدد الأهواء الباطلة.

٢- إنّ وجـود الشـرك في قلب مـن يدّعي الإيمان يـؤدّي إلى خروجه عن الدين، لأنّه مؤمن أساساً بغير اللَّه تعالى.

٣- يحتـاج المجتمـع فـي بناء حياتـه وحضارته إلـى مختلف التخصّصـات والعلـوم والمهـن، وإذا دقّقنـا النظـر فـي الاختـلاف الحاصـل في المجتمع البشـري، وجدنـا أنّ ثَمَّ هدفاً إلهيـاً في البين، وهـو الدفع إلى التعاون والتنسـيق والاسـتفادة مـن بعضهم البعض: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ علـى الآخرين.

الإنابة الى اللّه

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾.

من الحديث

روى أحمد بن محمد بن أبي نصر، قال: قلتُ لأبي الحسن الامام الرضا عليه السلام: جُعِلتُ فداك، إني قد سألتُ اللّه حاجةً منذ كذا وكذا سنة، وقد دخل قلبي من إبطائها شيء. فقال عليه السلام:

«يَا أَحْمَدُ، إِيَّاكَ والشَّيْطَانَ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَيْكَ سَبِيلٌ حَتَّى يُقَنِّطَكَ، إِنَّ أَبَا جَعْفَر [الامام الباقر عليه السلام] كَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْأَلُ اللّه عَزَّ وجَلَّ حَاجَةً فَيُؤَخِّرُ عَنْهُ تَعْجِيلَ إِجَابَتِهِ حُبّاً لِصَوْتِهِ واسْتِمَاعِ نَحِيبِهِ.

ثُمَّ قَالَ: واللَّهِ مَا أَخَّرَ اللّه عَزَّ وجَلَّ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَطْلُبُونَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا عَجَّلَ لَهُمْ فِيهَا، وأَيُّ شَيْءٍ الدُّنْيَا؟ إِنَّ أَبَا جَعْفَر عليه السلام كَانَ يَقُولُ: «يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ دُعَاؤُهُ فِي الرَّخَاءِ نَحْواً مِنْ دُعَائِهِ فِي الشِّدَّةِ، لَيْسَ إِذَا أُعْطِيَ فَتَرَ» فَلَا تَمَلَّ الدُّعَاءَ، فَإِنَّهُ مِنَ اللّه عَزَّ

وجَلَّ بِمَكَانٍ، وعَلَيْكَ بِالصَّبْرِ وطَلَبِ الْحَلَالِ وصِلَةِ الرَّحِمِ»[1].

تفصيل القول

تؤكد الآية على كون التوحيد أمراً فطرياً، وتبيِّن لنا زمن إضاءة نور الفطرة، وهو زمن التعرّض للمصيبة ونزول الشدائد. إنها تذكّر بأنّ الإنسان إذا ما تعرّض لقليل ضررٍ[2] إستغاث باللّه تعالى من صميم قلبه، وتعالى منه صوت الإستعانة، فيجد في نفسه الإنابة والعودة إلى ربّه سبحانه:

١ - ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾

وهنا قد ينتبه البعض في خضمّ هذه الحوادث فيهتدون. ولكنّ شطراً آخر من الناس يعودون إلى الشرك لما فيهم من قلّة النضج والتقليد الأعمى لأسلافهم المشركين، وذلك بمجرّد زوال الشدة والنجاة من النائبة:

٢ - ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾.

وهذا يعني أنّ فريقاً من الناس يجأرون إلى ربّهم لمجرّد أن يمسّهم قليلٌ من الضُرّ، فيزيحون الحجاب عن فطرتهم التوحيديّة، ولكنّهم حين يلمسون رحمةً من ربهم يعودون إلى غيّهم وطغيانهم وغفلتهم ونسيانهم وكأنَّ شيئاً لم يحدث!!

وفيما يتعلّق بالتعرّض للضرّ والإنابة الى اللّه يشير اللّه تعالى

---

(١) الكافي، ج٢، ص٤٨٨.
(٢) كلمة (الضُرّ) في ﴿مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ جاءت بهيئة النكرة، إشارة إلى القلّة، أي مسَّ الناس ضُرٌّ قليل.

إلـى أنّ الجميـع يعودون فـى هذه الحالة إلـى ذكر ربّهـم إنطلاقاً من الفطرة التوحيديّة الكامنة في نفوسهم.

أمّا فيما يتعلّق بالنعمة والعودة الى الشرك، فإنّ فريقاً من الناس ينسـونها ويغفلون عن ذكر اللّه تعالى، لأنّ آخرين من الناس يذكرون اللّه في كلّ حال ويستمرون على الإنابة، ولا تجد تراجعاً الى الشرك في حياتهم.

وقـد أوضحنـا لـدى التدبُّر فـي الآيـة (٣١) التي جـاءت فيها عبارة ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: أنَّ (منبيين) جمع (منيب) وهو إسـم فاعل من (الإنابة) وتعني الكملة: الرجوع المتكرّر. وفي هذا إشـارة لطيفة الى أنّ في داخل الإنسـان ميل وانجذاب فطري إلى اللّه سبحانه وتعالى، وأنّ أساس وجود الإنسـان قائم على التوحيد وعبادة الربّ المتعال، فيما الشـرك أمرٌ عارض أساسـه الغفلـة والجهل. ولكـنّ هذا الغافل الملوَّث بالشـرك حيـن يصل إلى مرحلـة اليأس؛ يجد في نفسـه مرة أخرى الرغبة إلى الإيمان والتوحيد؛ شاء أم أبى.

جـاء فـي الحديـث أنَّ رجـلا قـال للإمـام الصـادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا بن رسـول اللّـه، دلّني على اللّـه ما هو؟ فقد أكثر علـيَّ المجادلون وحيّروني.

فقال له: «**يَا عَبْدَ اللَّه، هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ**»؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «**فَهَلْ كُسِرَ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ ولَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ**»؟

قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «**فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ**

يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ»؟

فَقَالَ: نَعَمْ.

قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: «**فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللَّه الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِيَ وعَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيث**»[1].

وجاء في (ربيع الأبرار): قال رجل لجعفر بن محمد عليهما السلام: ما الدليل على اللَّه؟ ولا تذكر لي العالم والعرض والجوهر.

فقال له: «**هَل رَكِبتَ البَحرَ**»؟ قالَ: نَعَم.

قالَ: «**هَل عَصفَت بِكُمُ الرّيحُ حَتّى خِفتُمُ الغَرقَ**»؟ قالَ: نَعَم،

قـالَ: «**فَهَلِ انقطَـعَ رَجاؤُكَ مِـنَ المَركَبِ وَالمَلاّحيـنَ**»؟ قالَ: نَعَم.

قالَ: «**فَهَل تَتَبَّعَت نَفسُك أنَّ ثَمَّ مَن يُنجيكَ**»؟ قالَ: نَعَم.

قـالَ: «**فَـإِنَّ ذاكَ هُـوَ اللَّـه. قـالَ اللَّـه تَعالـى**: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[2]، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[3]»[4].

وهـذا يعني أنّ لكلّ شـخصٍ طريقاً إلى اللّـه في ذاته، حتّى من هم في عداد أشـقى الأشـقياء، إذ يجأرون إلـى ربّهم حين تنقطع بهم السـبل والآمـال، وهـذا الجأر والإنابـة أمر فطـري وطبيعي مغروس في أعماق كلّ إنسـان، ولكنّه يُسْـدِل سـتار الغفلة والخطيئة على هذا

(١) التوحيد (للصدوق)، ص٢٣١.
(٢) سورة الاسراء، آية٦٧.
(٣) سورة النحل، آية ٥٣.
(٤) ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ج٢، ص٤٨.

المغروس في عمقه في الحالات الطبيعيّة من حياته، وحين يزاح هذا الستار تُثار الرغبة والانجذاب إلى الرب سبحانه وتعالى.

الإمام الصادق عليه السلام عَمَد إلى تعريف الرجل بربّه عبر ما في نفسه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[1]. والتعلّق القلبي الذي وصفه الإمام إنمّا يظهر ويتجلّى حين اليأس من كلّ أمل، فيعي المرء قاهريّة ربّه سبحانه وتعالى وقدرته على الأخذ بيده إلى ساحل النجاة. ولو أنّ هذه القاهريّة الربانيّة والقدرة الإلهيّة لم تكن موجودة، ما كان لذلك التعلّق والانجذاب القلبي أن يتجلّى في ساعة العسرة.

ولا ريب أنّ الفرق واضح بين وجود الميل والرغبة القلبية في داخل الإنسان، وبين معرفته بهذا الميل بصورة كاملة وإدراك الهدف منه.

معرفة اللّه عبر معرفة النفس

إنْ كان اللّه عزّ وجلّ موجوداً في نفوسنا، فمهما أمعنّا النظر في أنفسنا عرفنا ربّنا أكثر فأكثر. قال الإمام الصادق عليه السلام عن معرفة الرب: «**الْعِلْمُ أَصْلُ كُلِّ حَالٍ سَنِيٍّ، ومُنْتَهَى كُلِّ مَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ، ولِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمَةٍ، أَيْ عِلْمِ التَّقْوَى والْيَقِينِ، وقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: اطْلُبُوا الْعِلْمَ ولَوْ بِالصِّينِ، وهُوَ عِلْمُ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ، وفِيهِ مَعْرِفَةُ الرَّبِّ عَزَّ وجَلَّ، وقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّه**»[2].

وواضحٌ إنّنا إذ ولجنا في كلّ علم، وجدناه يشير إلى اللّه

(١) سورة الذاريات، الآية:٢١.

(٢) مصباح الشريعة، ص١٣.

سبحانه وتعالى ويدلّ عليه. فالذين بحثوا في علم الجوارح والأعضاء، عرفوا ربّهم من خلاله، وكذلك علماء النفس، وسائر العلوم الأخرى. فالمعرفة تتضاعف بمضاعفة البحث والدقّة، ثمّ اللَّه تعالى الذي خلق ودبّر الأشياء الماديّة بنظام عظيم الدقّة، خلق روح الإنسان وجعل فيها الرغبة والانجذاب إليه، بحيث لا يجد المرء مناصاً من الإقرار به ومعرفته.

قال سبحانه وتعالى في سورة الآعراف، الآية١٧٢: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ثم سألهم قائلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فأجابوا جميعاً قائلين: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾.

وواضح أنّه تعالى يبصّر الناس بأنّهم إذا رجعوا إلى أنفسهم عرفوه وعلموا أنّه ربّهم الواحد الأحد. وعليه؛ فإنّ (التوحيد الفطري) والإيمان باللّه مغروس في أعماق روح الإنسان، والى هذه الحقيقة كان يستند خليل اللَّه إبراهيم عليه السلام حينما قال للمشركين: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[1].

ولا ريب أنّ الأصنام عاجزة عن النطق، ولكن هذا الخطاب الإبراهيمي الحكيم هزّ وجدان المشركين وأيقظ ضمائرهم الغافلة المحجوبة، وكشف عن فطرتهم التوحيديّة من وراء حجب التعصّب والجهل والغرور، فمكثوا هُنيئة ورجعوا إلى أنفسهم وعقولهم وقلوبهم وحكّموها، ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

وكان قولهم هذا صرخة وجدانهم، حيث اعترفوا بواقعهم

(١) سورة الأنبياء، الآية:٦٣.

(٢) سورة الأنبياء، الآية:٦٤.

الظالـم لأنفسـهم والمتمرّد علـى إرادة ربّهم وطبيعـة ما خلق وجعل فيهم.

إنّ الرجـوع إلـى النفس والعـودة الى الذات، هـو الأمر الذي إهتمّت سـورة الـروم المباركـة بالتنبيه اليه وتعليمـه بعبارة: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾. وهذا هو الأسـلوب القرآني في التعليم، حيث يربّي الإنسـان علـى الرجـوع إلـى العقل والوجـدان حين إبـداء الرأي وقبـل القيام بالعمل، وعلى أن يعتاد المرء هذا الأسـلوب، ليخلق في نفسه وازعاً فطرياً يراقب الأفكار والعقائد ويعلن عن صحتّها أو خطئها.

يقظة الفطرة في الشدائد

وقد يتسـاءل أحدنـا: لماذا تتجلّـى معرفة اللّـه تعالى في قلب الإنسان حين وقوع المصاعب والمشاكل؟

ينبغـي البحث عـن الإجابة فـي خصائص الإنسـان وأحواله. ففـي الحالات العاديّة يصنع الإنسـان لنفسـه أطـاراً أو دائـرة خياليّة يضـع فيها أفكاره وأعماله، حتّى لتراه يسـتميت في الدفاع عن صحة وصلابـة أفـكاره وأعمالـه، وذلك لوجود أنـواع الحجـب على قلبه وعقلـه ووجدانه، كحجاب الشـرك باللّه تعالى، وحجاب حب الدنيا والأنانيـة، فتعمـى بصيرتـه ويتصـوّر ما هـو خاطئ صحيحـاً وما هو صحيح خاطئاً، ولا يسمح لنفسه بالتأمّل والمحاسبة.

ولكم أن تتصوّروا فرعون في مقابل النبيّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذ كان يعدّ نفسـه ربّاً، بل ورباًّ أعلى، ولم يكن مستعداً حتى اللحظة الأخيرة أن يتنازل عن عرشـه الخرافي وأن يتحرر من قيود الدنيا، ولكنّه حين استشـعر الخطر الجـدّي، وحانت لحظة غرقـه، عاد وقال: ﴿ءَامَنتُ

أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾[1].

ففـي لحظات الخطر - كمـا هي حالة فرعـون - تفقد الأقنعة والألوان المزيّفة بريقها وتسـقط، كما هي أشـياء البيت الكماليّة التي تتساقط قبل كل شيء حين وقوع هزّةٍ أرضيّة - مثلاً -.

إنّ أعتـى الحـكّام وأقواهـم - فـي الظاهر - تراهـم يتصرّفون بضعف وذلةٍ وانهيار عند مواجهة الخطر والموت.

إذن؛ فالفطـرة التوحيديـة حقيقة يحاول المرء إسـدال السـتار عليها، ولكنه يعود إليها حين الخطر. وهذه الفطرة ليسـت شيئاً مبهماً وغامضـاً، بل هي نوع من المعرفة الأصيلة، كمـا قال الإمام الصادق عليه السلام: فِـي قَـوْلِ اللَّـه عَـزَّ وجَـلَّ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ قَـالَ: «**فَطَرَهُمْ عَلَـى التَّوْحِيد**»[2]، فاللَّه تعالـى أودع معرفته وتوحيده فـي قلب الانسـان وروحه، ولكنَّ الانسـان يخفيهـا بحُجُب الذنوب والغفلة.

ومثيل هذا التعبير ورد في الدعاء الذي ذكره الشـيخ الطوسـي وأوصـى الناس بقراءته في السـحر: «**يا مَن فَتَقَ العُقـولَ بِمَعْرِفَتِه**»[3]. ولـو أنّه سـبحانه لم يهبنـا هذه القوّة علـى معرفته؛ فكيـف كان لنا أن نتعرّف إليه؟ كما لو أنّ الشـمس ما كانت لتتجلّى للناس، فكيف كان لهـم أن يروهـا؟ وإنّ كثيـراً من الأجسـام والأجرام موجـودة ولكنها مظلمـة ونحن بها جاهلون، ولو أنّه سـبحانه لم يعطنا المعرفة به ولم يزوّدنا بالوسـائل اللاّزمة لإدراك وجوده الـلاّ متناهي، فكيف كان لنا

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩٠.
(٢) الكافي، ج٢، ص١٣.
(٣) مصباح المتهجِّد وسلاح المتعبِّد، ج١، ص٢٨٠.

أن نعي نوره المطلق؟!

نقرأ في المناجاة الشعبانيّة:

«إلهي! هبْ لي كمالَ الانقطاعِ إليكَ، وأنِر أبصارَ قلوبِنا بضياءِ نظرِها إليكَ؛ حتّى تخرِقَ أبصارُ القلوبِ حُجُبَ النورِ؛ فتصلَ إلى مَعْدِنِ العظمةِ؛ وتصير أرواحُنا معلّقة بعزِّ قدسِكَ»[1].

وما لم يتحقّق (كمال الانقطاع) فلن تتسامى الروح إلى منازل القرب من ربّها سبحانه وتعالى. وإنّ إحدى طرق الانقطاع إلى اللَّه تعالى بالنسبة للغافلين؛ أن تواجههم المصائب والمشاكل والبلايا، حيث تدفع بالانسان إلى الإخلاص، وتعود به إلى وعيه. وهناك من الناس تراهم مفعمين بالإخلاص المتواصل فتتجلّى الحقائق الموجودة في أرواحهم ونفوسهم، تتجلى في سلوكهم في الحياة، كما تجري على ألسنتهم الحِكَم الإلهيّة التي أودعها اللَّه في نفوسهم. وقد ورد في الحديث النبويّ الشريف: **«مَنْ أَخْلَصَ للَّه أَرْبَعِينَ صَبَاحاً ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِه»**[2].

بصائر من الآية

ومن خلال التدبّر في الآية نستلهم البصائر التالية:

١- نسبت الآية الكريمة -كما هو الحال في سائر آيات الذكر- (الرحمة) إلى اللَّه تعالى، ولم تنسب إليه (الضرّ) لأنّ المشاكل والمصائب عائدة إلى أعمال الإنسان وخطاياه.

٢- وردت كلمة (ربّهم) مرّتين في الآية، وفي ذلك تأكيدٌ

(١) إقبال الأعمال، ج٢، ص٦٨٧.

(٢) عدة الداعي ونجاح الساعي، ص٢٣٢.

على أنّ الإنسان يستشعر حاكمية الربّ والتدبير الإلهي في ذاته، فيما التعاليم الخاطئة والثقافة المنحرفة تسوقه إلى الشرك.

٣- أشرنا الى أنَّ كلمة (ضرٌّ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ وردت بصيغة النكرة، للتدليل على قِلّة الضرر، ولكنّ الإنسان سرعان ما يشكو حتى من القليل من الضرر، وهذا هو ما عناه قوله تعالى في سورة المعارج الآية ١٩-٢٠: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ لحرصه وقلّة حيلته وطاقته، فتراه أسرع شيءٍ إلى الجزع والشكوى. أمّا حين مسّهم الضرّ ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ فيعودون إليه وينقطعون له، بيدَ أنه كان من الأحرى بهم أن يكرّسوا في أنفسهم الانقطاع إلى ربّهم في جميع الحالات، ولكن هذه هي طبيعة البشر، حيث تراهم يلجؤون إلى بارئهم حين العسر وإصابة الضُرّ، فإذا ما زال العسر والضُرّ، ونزلت عليهم الرحمة - ولو قليلاً - طلبوا غير ربهم ونسوه في ساعة اليسر!.

٤- قال سبحانه في خاتمة الآية: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾. أي أنّه ما أن يزيح اللّه عزّ وجلّ عسرهم حتّى تخرج جماعة ممّن عُرّضوا للبلاء على إرادة ربّهم فلا يعودون إليه، ولهذا السبب خاطبهم اللّه سبحانه بالملامة والتوبيخ.

٥- إنّ الانسان بمسيس الحاجة إلى الدعاء حين يتعرّض للمشاكل والمصاعب، وهو يتّجه إلى الدعاء بشكل فطري، ويعلم أنّ عليه أن يدعو ربه بإنابة وتضرّع: ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾.

الدعاء في الشدّة والرخاء

بلى؛ إنّ الدعاء من المسائل الهامّة جداً في حياة البشر، وله دور مؤثّر للغاية في تحقيق سعادته، ولطالما أوصى الربّ المتعال

عباده بالدعاء، وقد نزلت آيات كثيرة بهذا الصدد، كما أنّ الآيات التي تشير الى الذِّكر إنما ترتبط بالدعاء أيضاً. قال سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[١]، أي أنّ الدعاء والتوسّل هو الذي يقرّبكم إلى ربّكم، أما تكذيبكم للرسالات الإلهيّة فسوف تُسألون عنه.

ورد في الحديث القدسي خطاب الرب إلى النبي عيسى عليه السلام أنْ: «**يَا عِيسَى، اذْكُرْنِي فِي نَفْسِكَ أَذْكُرْكَ فِي نَفْسِي، وَاذْكُرْنِي فِي مَلَئِكَ أَذْكُرْكَ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَإِ الْآدَمِيِّينَ. يَا عِيسَى، ادْعُنِي دُعَاءَ الْغَرِيقِ الْحَزِينِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مُغِيث**»[٢].

وجاء في حديث نبوي: «**أَوْحَى اللَّه تَعَالَى إِلَى نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ: ابْنَ آدَمَ، اذْكُرْنِي عِنْدَ غَضَبِكَ أَذْكُرْكَ عِنْدَ غَضَبِي، فَلَا أَمْحَقْكَ فِيمَنْ أَمْحَق**»[٣].

فالمطلوب من الإنسان أن يدعو ربه دائما وأبداً، حتى في أيام اليُسر والرخاء، فإذا تعرّض لمصيبةٍ مّا ونزلت به بليّة، ودعا ربه قال: أي ربّ! إنني لطالما دعوتك حتى في أيام الرخاء، ولا ريب - في هذه الحالة - أنّه سبحانه سيستجيب له.

ولعلّ من النقاط المهمّة في هذه الآية الشريفة هو أنّ أهل الذكر إذا ما غفلوا شيئاً ما وتورطوا بشيءٍ من الشرك، فعوقبوا بالضُرّ، عادوا وأنابوا الى ربهم ولم يكن شأنهم شأن أولئك الغافلين دوماً، الساقطين في حضيض الشرك، الذين إذا ذاقوا من اللّه تعالى رحمةً

(١) سورة الفرقان، آية ٧٧.
(٢) الكافي، ج٨، ص١٣٨.
(٣) كنز الفوائد، ج١، ص١٣٤.

بعد ضرّ، فإنهم سرعان ما يعودون الى الشرك.

ثـمّ إنّ لغة الدعاء ليسـت مهمّـة، إنّما المهمّ أنْ يدعو الإنسـان ربّه ويطلبه ويناجيه حثيثاً، بل ولعلّ التحدّث إلى اللّه سبحانه باللسان غير مهمٍّ أيضاً، إذ يكفي أن يكون القلب مقبلاً على الربّ المتعال.

وقد روي أنّ النبي إبراهيم عليه السلام المفعم بعقيدة التوحيد رفض عرض الملائكة عليه بالمساعدة في ذلك الظرف العصيب حيث كان يُلقى به إلى قلب النار، جاء في الحديث:

«فَتَلَقَّاهُ جَبْرَئِيلُ فِي الْهَوَاءِ، فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ؟

فَقَالَ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا، حَسْبِيَ اللَّه وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

فَاسْتَقْبَلَهُ مِيكَائِيلُ فَقَالَ: إِنْ أَرَدْتَ أَخْمَدْتُ النَّارَ، فَإِنَّ خَزَائِنَ الْأَمْطَارِ وَالْمِيَاهِ بِيَدِي. فَقَالَ: لَا أُرِيدُ.

وَأَتَاهُ مَلَكُ الرِّيحِ فَقَالَ: لَوْ شِئْتَ طَيَّرْتُ النَّارَ. قَالَ: لَا أُرِيدُ.

فَقَالَ جَبْرَئِيلُ: فَاسْأَلِ اللَّه. فَقَالَ: حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي»(١).

فقـد كان النبي ابراهيم ذاكـراً دوماً، ولم تنقطع اسـتغاثته باللّه تبارك اسمه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾(٢). ومعلوم أنّ اللّه اللطيف الرؤوف لا يكل أمر هكذا عبد إلى سواه في لحظات اليسر والعسر.

ويجدر بالإنسـان إذا أراد الدعاء أن يقـرن دعاءَه بما يعلم يقيناً أنه دعاء مستجاب كالصلاة على محمد وآل محمد، فاللّه تعالى أكرم

(١) بحار الأنوار، ج٦٨، ص١٥٥، ح٧٠.
(٢) سورة هود، الآية:٧٥.

من أن يستجيب أحد الدعاءَين ويرد الآخر.

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَى اللَّه سُبْحَانَهُ حَاجَةٌ فَابْدَأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ** صلى الله عليه وآله وسلم **ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ، فَإِنَّ اللَّه أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ فَيَقْضِيَ إِحْدَاهُمَا ويَمْنَعَ الْأُخْرَى**»(١).

وروي عنه عليه السلام أيضاً: «**كُلُّ دُعَاءٍ مَحْجُوبٌ عَنِ السَّمَاءِ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِه**»(٢).

ولنعلم أنّ اللّه تبارك وتعالى يحب دعاءنا، ويريد لنا أن نكون ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ وأن نقصد بابه. روي عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل أنه قال: «**أَكْثِرُوا مِنْ أَنْ تَدْعُوا اللَّه، فَإِنَّ اللَّه يُحِبُّ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْعُوهُ، وَقَدْ وَعَدَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ الِاسْتِجَابَةَ، وَاللَّهُ مُصَيِّرٌ دُعَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُمْ عَمَلًا يَزِيدُهُمْ فِي الْخَيْرِ**»(٣).

٦- نقرأ في الآية الكريمة قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ﴾.

وكلمة (ناس) عامة تشمل الجميع؛ المسلم منهم وغير المسلم، فمسّ الضرّ والدعاء والإنابة عنده غير مخصوص بجماعة دون أخرى. هذه الآية في الواقع تشير إلى تلك الفطرة التي أشارت إليها الآية الحادية والثلاثون: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾، وهذه الفطرة هي فطرة كل الناس وغير قابلة للتغيير.

٧- ما هو سبيل الخلاص من الشرك؟ وماذا نصنع لنتحاشى

(١) نهج البلاغة (صبحي الصالح)، قصار الحكم، ص٥٣٨، رقم٣٦٧.
(٢) ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص١٥٥.
(٣) وسائل الشيعة، ج٧، ص٢٦، أبواب الدعاء، باب إستحباب الإكثار من الدعاء، ح٦.

نفوذ الشرك إلى دواخلنا؟ وإذا نفذ فينا؛ ما نصنع لنتخلّص منه سريعاً وننيب إلى اللّه سبحانه؟

السبيل هو القرآن نفسه، فإذا قرأتَ القرآن؛ عليك أن تتدبَّر فيه كلمة كلمة وجملة جملة، فقد أنزل اللّه القرآن لتُفتح به أقفال عقولنا وقلوبنا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[1].

ومفتاح القلب هو القرآن، وإنّ علّة عدم تأثير القرآن في حياتنا هي عدم التدبّر في كلماته وآياته وسوره وسياقاته. روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَيْسَ فِيهِ تَفَهُّمٌ، أَلَا لَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَدَبُّرٌ، أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَا فِقْهَ فِيهَا، أَلَا لَا خَيْرَ فِي نُسُكٍ لَا وَرَعَ فِيه**»[2].

إنّ القراءة مع التدبّر تؤثّر في روح الإنسان وعقله وقلبه. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يَخْضَعْ للّه، وَلَمْ يَرِقَّ قَلْبُهُ، وَلَا يُنْشِئُ حَزَناً وَوَجَلًا فِي سِرِّهِ، فَقَدِ اسْتَهَانَ بِعِظَمِ شَأْنِ اللّه تَعَالَى، وَخَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً**»[3].

بصائر وسنن

١ - إنّ فريقاً من الناس يجأرون إلى ربّهم لمجرّد أن يمسّهم قليلٌ من الضُرّ، فيزيحون الحجاب عن فطرتهم التوحيديّة، ولكنّهم حين يلمسون رحمةً من ربهم يعودون إلى غيّهم وطغيانهم وغفلتهم

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٢) الكافي، ج١، ص٣٦.
(٣) مصباح الشريعة، ص٢٨.

ونسيانهم وكأنَّ شيئاً لم يحدث!.

٢- إنَّ اللَّـه تعالـى يبصّر النـاس بأنّهم إذا رجعوا إلى أنفسـهم عرفوه وعلموا أنّه ربّهم الواحد الأحد. وعليه؛ فإنّ (التوحيد الفطري) والإيمان باللّه مغروس في أعماق روح الإنسان.

٣- المطلوب من الإنسـان أن يدعو ربـه دائما وأبداً، حتى في حالات اليُسر والرخاء.